الدكتور جمال حيمر




# البعثات التعليمية في عهد السلطان مولاي الحسن







# سلسلة شرفات

## العدد 62

## نوفمبر 2015



**المدير:** عبد الكبير العلوي الإسماعيلي
**الإخراج الفني:** طاقم الزمن
**العنوان:** 153 . شارع سيدي محمد بن عبد الله. رقم 7 العكاري – الرباط
**الهاتف + الفاكس:** 44 98 29 37 5 212 00
**البريد الإلكتروني:** manchourat@gmail.com
**الإيداع القانوني:** 2015 MO 3125
**الطبع:** مطبعة بني ازناسن – سلا – المغرب
**ردمك:** 1 – 59 – 516 – 9954 – 978
**التوزيع:** سبريس

جمال حيمر

# البعثات التعليمية في عهد السلطان مولاي الحسن







نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة

# إهداء

إلى والدتي

تغمدها الله برحمته

# الاختصارات الواردة في البحث

**خ.ح.ر**: الخزانة الحسنية بالرباط

**خ.ع.ر**: الخزانة العامة بالرباط

**خ.ع.ت.مح**: الخزانة العامة بتطوان - محفظة

**م.ط.ك**: مراسلات الطالب محمد بن الكعاب

A.E.P : Archive du Ministère des Affaires Etrangères, Paris correspondance politique Maroc.

A.G.V : Archive du Ministère de la Guerre, Vincennes.

B.A.F.RC : Bulletin de L'Afrique Française, Renseignements coloniaux.

# تقديم

## الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش

يشرفـني أن أقدّم هـذا الكتاب المتميز الذي أنافـت صفحاته عن المائتين، لعدة اعتبارات:

فالباحـث الدكتور جمال حيمر، يعتـبر من خيرة المؤرخين اللامعين الذين أنجبتهم الجامعة المغربية، ويتميز بالجد والمثابرة، وطول النفس، والحسّ التاريخي، والعمل الدؤوب الذي لا يفتر. كما يتميز بقدرته على الصبر وامتطاء عقبات التحدي، ومعاركة صعاب البحث بعزم وإصرار، لكن أيضا بهدوء وانضباط وتبصّر.

وأحسـب أنه أحسن اختيار الموضوع الذي يعالجه في هذا الكتاب: فرغم ما كتب عن تاريخ المغرب في القرن 19م من أبحاث ودراسـات يشهد لأصحابها بعلـو الكعب، لا تزال بعض البياضات تخترق المنجز التاريخي الخـاص بهذه المرحلة التاريخيـة، وهي بياضات لا تخطئ العين السليمة في رؤية إحداثياتها وما خلفته وراءها من فجوات تحتاج إلى ترميم وإعادة تصويب النظر، خاصة في حقل إصلاح التعليم الذي شكل مكوّنا أساسيا في مشاريع الإصلاح التي تبنتها الدولة المغربية. وبما أن أوروبا شـكلت آنذاك مصدر النماذج المستلهمة للإصلاح، فقد بـدأت عملية التفكير في اقتباس تجربـة « الآخر» في إصلاح التعليم المغـربي وتطويره عـن طريق إرسـال بعثات طلابية لبعـض البلدان الأوروبية، بهدف الاحتكاك والاسـتفادة من الخبرات العلمية والتربوية الذي أنتجتها الحضارة الغربية في ذروة إشعاعها.

في هذا السـياق نحت الباحث المتألق الدكتور جمال حيمر سـؤال البعثات التعليمية المغربية في عهد السلطان الحسن الأول نحو أوروبا،

على الـرغم مما يحمله الخوض في تفاصيل هذا السـؤال من شحنة استشـكالية ومفاهيم ملتبسة ومعقدة، جعلت الأبحاث السابقة لا تجرأ عـلى المغامرة باقتحام هذا الموضوع الشـائك، لا بل يمكن الجزم أنه قبـل إقدام الباحث المنوه به على هـذه المغامرة البحثية الدقيقة، لم تكن معرفة المهتمين بتاريخ المغرب في القرن 19م تتجاوز سـقف الإشارات، والتلميحـات الباهتة إلى هذه المبـادرة الإصلاحية بكثير من العمومية والتأسـف عن نكوص وكبـوة هذه المبـادرة على غـرار كل التجارب الإصلاحية التي شهدتها معظم البلدان الإسلامية في سياق الاحتكاكات الأولى التي وقعت بينها وبين أوربا خلال القرن التاسع عشر.

وتأسيسا على ذلك، فإن القارئ المنصف لا يمكن إلا أن ينوه بقصب سبق الدكتور جمال حيمر في تقحّم هذا المجال الشائك، وتفكيك ألغازه، ويقرّ بجدة وأصالة الدراسـة والموضوع البكر الذي وفق في اختياره، وفي إنجازه بكثير من الرصانة وعمق الحفر والتنقيب. وقد آثر الباحث أن يتفرد بمسـلك يخالف ما دأبت عليه معظم الدراسـات التي وقعت تحت تأثير سـلطة التنظير لموضوع الإصلاح، فلم تول اهتماما بالنبش في جزئيـات وتفاصيـل الظاهـرة، وبالتالي لم تقدم مشهـد الوقائع التاريخيـة التي يتوخاها القارئ، لذلك عـوّل الدكتور حيمر على رؤية مزدوجة تجمع بين التنظير المؤسس الذي يلامس السياقات العامة، دون إهمـال التركيز على المـادة المصدرية التي هي عماد المؤرخ ، وهو ما جعله يسبر غور هذه التجربة استنادا إلى أفق نظري يحيل على ثنائية التقدم والتأخر، وبطء التطور التاريخي في المجتمعات الثالثية، وكيفية الجمع بين اسـتنهاض ذاتي للمجتمع واستلهام أسس تقدم الأوربيين، إلى جانب مقاربة مجهرية تقوم على التحري الدقيق، والرصد المفصل، والدقة في تقصي الجزئيات المفيدة لرصد هذه التجربة «الأم» من حيث منطلقاتها ومقاصدها ونتائجها.

ووفقـا لهذه الرؤية الدقيقة والمنفتحـة في نفس الوقت،عالج المؤلف إشـكاليات هذا الكتاب بنوع من الاحتراف التاريخي القائم على منهج متكامل زاوج فيه بين الاسـتنباط والاسـتقراء لدراسـة هذه التجربة الإصلاحية اعتمـادا على رصيد توثيقي متعدد ومتنوع المظان ، شمل الأرشـيف المغربي المتمثل في الوثائق والطـرر والتقاييد ، والمذكرات والمراسـلات وجميع الموارد التي تحوي إشـارات وتلميحات متناثرة، اسـتطاع الباحث أن يلملم خيوطها ليجعل منهـا مادة دسمة بعد أن كانت في شكلها الأصلي شحيحة ومبعثرة. كما اعتمد في التقاط مادة

بحثه على الأرشـيف الأجنبي الذي شكل ثقويا استطاع من خلالها أن يميط اللثام عن أسرار وخبايا هذه التجربة. ولإثراء دراسته المتميزة، لم يدخر الباحث وسـعا في الانخراط في دائرة البحث «الميداني» المتمثل في الاتصـال بالعائلات المغربية التي كان لها حظ امتلاك بعض وثائق الطلبـة المبتعثين لأوروبا ومسـاءلة حفدتهم للبوح بالمسـكوت عنه من الوقائع، واقتناص بعض الوثائق منهم.

ومما يضفي قيمة على هذا الإنتاج التاريخي المتميز، قدرة صاحبه على التماهي مـع الطريقة التوثيقية المؤصلـة التي تحيل على طريقة المؤرخين الكبار من طينة « لانجلوا» وسيدي محمد المنوني، فالهوامش والإحالات موثقة وصارمة في تعيين المصادر والوثائق المعتمدة، وأرقام صفحاتهـا، والأفـكار مقنعة بالحجـة والقرينة، فضـلا عن التصميم والهندسـة المتوازنة لكل فصول الدراسـة، ناهيك عن دربة المؤلف على تحليل النصوص واسـتنطاقها استنطاق المؤرخ المحترف، وتفسيرها تفسيرا تاريخيا علميا. هذا دون إغفال ما يزخر به الكتاب من تعليقات مفيدة، ومناقشات رصينة كان يفردها لبعض المقولات التي لا يتفق مع توجه أصحابها.

أمـا الحديث عن الخلاصات الـتي تمخض عنها البحث فهو حديث يطـول، لأن كل فصول البحث ضمت بين دفتيهـا خلاصات ومعطيات جديـدة. ورغم المتعة التي يشـعر بها قارئ تلـك النتائج في سردها، فحسـبي أن اقتصر - لضيق المجـال -على نماذج لهـا ارتباط وثيق بتاريخنا الراهن وبمنظومتنا التعليمية والتربوية، إذ يكتشف القارئ أن المبادرة الحسنية للبعثات الطلابية لأوروبا جسّدت خطوة تربوية تعليمية غير مسـبوقة في العالم العربي في النصف الثاني من القرن التاسع عـشر، ولا غرو فقد دلـت على جرأة في الانفتاح عـلى دائرة التعليم الغربي بالـرغم من عدم نضج المقدمات بـكل أبعادها، وعدم تناغمها مع بنيات الاسـتقبال، ناهيك عن بقاء قشرة الذهنية التقليدية متكلّسة ومعيقة لكل تحديث.

لذلك أكدت نتائج الدراسـة أن فشـل هذه التجربة يعزى إلى أن أي محاولة تريد إدخال بعض عناصر التحديث على بنيات اقتصادية واجتماعية وذهنية تقليدية دون أن توازيها عملية تحديث شامل وكلي، ودون أن تكون منبثقة من تطور داخلي، تبقى محاولة عقيمة ومحكومة بإخفاق متواصل، وغير قادرة على إحداث تحول حقيقي. وفي تقدير الباحث أن هذا الحكم

لا يزال يصدق على تجارب متعددة، ومن هنا تكمن راهنية هذا الموضوع، وحاجتنا إليه اليوم كمرجعية نبني عليها توجهاتنا.

ولعل ما يزيد من قيمة هذه الخلاصات والاستنباطات العلمية التي جاءت نتيجة قراءة هادئة ومتزنة وبعيدة عن أي سلطة إيديولوجية، تواضع المؤلف، وهو خصلة من شيم العلماء، فضلا عن نزاهته وأمانته العلمية. فدراسته تخاطب المتخصص الأكاديمي في المعرفة التاريخية، والراغب في التعرف على جوانب من تاريخ مغرب القرن التاسع عشر. كما يعلن صاحبها - دون عقدة - أن نتائجها تظل مفتوحة وقابلة للنقد والتعديلات بناء على المتغيرات التي قد تفتحها اكتشافات جديدة للوثائق، وهو بذلك لا يغلق ملف البعثات التعليمية بقدر ما يفتح آفاق البحث في إشكاليات الموضوع، وإمكانية تعميقها، أو الحفر فيها من جديد مع كلّ اكتشافات جديدة في الأرشيف الوثائقي.

ولا يفوتني أيضا التنويه ببراعة المؤلف في صياغة دراسته بأسلوب أنيق، ومسحة بلاغية فصيحة تكشف عن ملكته اللغوية القوية، وتعبيره الذي يتميز بجماليته ورونقه، مما يجعله سريع الإدراك والاستيعاب من طرف القارئ، دون أن ينزل من علو سقفه الرفيع.

وبكلمة واحدة فإن الكتاب الذي بين أيدينا يعد -دون مدافع - قيمة مضافة لتاريخ المغرب خلال القرن التاسع عشر، وللحركة الإصلاحية التي ميزت هذا القرن، وتفسيرا مقنعا للإخفاقات التي بصمت هذه المرحلة من تاريخنا الوطني. كما أنه يشكل مرجعا مهما وأساسيا لا يستغني عنه أي باحث في القرن التاسع عشر، ولكل مهتم بتاريخ إصلاح التعليم بالمغرب، وبالتالي فإن هذا الكتاب يعتبر- دون مدافع - قيمة مضافة، ووزنا من العيار المعرفي الثقيل الذي يشرّف الخزانة التاريخية المغربية.

وفق الله الباحث للمزيد من الحفر في هذه الحلقات المعتمة من التاريخ المغربي، وأحسب أن العديد من الإشكالات التي طرحها ستكون محور دراساته المستقبلية، وما ذلك عليه بعزيز.

**مكناسة الزيتون في 7 مارس 2015**

# المقدمة

شهدت معظم البلدان الإسلامية ومن بينها المغرب دعوات ومشاريع وحركات إصلاحية في سياق الاحتكاكات الأولى التي وقعت بين هذه البلدان وبين أوربا في القرن الماضي.

ويتميز المغرب- ومن قبله بلاد مصر- بتجربة إصلاحية تمثلت في إرسال بعثات تعليمية على دفعات إلى مختلف دول أوربا لاكتساب خبرات متنوعة، بهدف تزويد البلاد بأطر إدارية وتقنية مثقفة ثقافة عصرية، وقادرة على تولي مهام الإشراف على الأجهزة الإدارية والعسكرية التي لم تعد قادرة على مسايرة الأوضاع المستجدة.

وتميز المغرب بهذه التجربة الإصلاحية بغض النظر عن مردوديتها ومدى نجاحها أو فشلها، شكل أحد دواعي اختيار هذا الموضوع، فضلا عن أن دراسة هذه التجربة تحيلنا إلى صلب الإشكالية التي طالما أرقت الفكر العربي الإسلامي منذ بداياته النهضوية إلى الآن. ونقصد بها إشكالية التقدم والتأخر، وكيفية الجمع بين إنهاض ذاتي للمجتمع وبين استلهام أسس تقدم الأوروبيين.

وانجذابي إلى دراسة جانب من جوانب هذه الإشكالية من خلال موضوع البعثات التعليمية لا يعود لكونها إشكالية تغري بالميل إلى دراستها، بقدر ما يرتبط بقناعة مؤداها أن قضية الإصلاحات التي أنجزها أو فكر في إنجازها مخزن القرن التاسع عشر، رغم ما حظيت به من اهتمام الباحثين فإننا ما نزال نشعر حيال هذا الموضوع بأبعاده التاريخية والفكرية إلى التعريف بجوانب كثيرة منه، وذلك بالعمل على استقراء وتحليل الوثائق والمصادر المغربية والأجنبية على السواء.

ويكمن الدافع الثالث - في اعتقادنا- في أن تناول موضوع الإصلاحات تناولا قطاعيا أو مجهريا من خلال أنموذج معين كموضوعنا الخاص بالبعثات الطلابية، من شأنه أن يمكننا من تحديد طبيعة الإصلاح ورسم حدوده ومحدوديته واستجلاء أبعاده ونتائجه.

تأسيســا على ذلك تمحور الهدف من هذا البحث حول تتبع حيثيات وبواعث هذا الإصلاح، ومحاولة فهم الغايات التي كان السلطان المولى الحســن يروم تحقيقها، والوقوف على الوســائل المتيـسرة والمعتمدة لبلوغها مع رصد نتائج وعوامل إخفاق التجربة الإصلاحية.

ومن أجل الوصول إلى هذا الهدف فإني لا أزعم أنني اعتمدت منهجا محـددا بضوابطه وقواعده، وإنما حاولت قدر الإمكان اعتماد الطريقة المباشرة والمحتكة بالموضوع عبر تحليل عيني لعناصره وتركيب صورة الوقائع في الزمان والمكان مع مراعاة تسلسلها التاريخي.

ولم يكن مـن السهل إنجاز هذا العمل حيـث اعترضتنا صعوبات عديدة ومتنوعة، يتعلق بعضها بشروط البحث وهي صعوبات مشتركة، غالبـا مـا يصادفها كل باحـث، وبعضها الآخر مرتبـط بخصوصية الموضوع ذاته، وهي التي نود الوقوف عندها بتصنيفها إلى مستويين:

## المستوى الخاص بطبيعة الموضوع:

- تصنيف الموضوع: يرى الأستاذ محمد المنوني في حركة البعثات التعليمية التي أرسلها السلطان الحسن الأول (1894-1873م) إلى أوربا، والتي تعد في نظره في طليعة المحاولات الإصلاحية مظهرا من مظاهر اليقظة والانبعاث في ميدان التعليم. في حين أن المؤرخ جون لوي مييج J.L.Miège وغـيره يصنف هذه الخطوة كتدبير شـكل إلى جانب ثلاثة تدابـير متلازمة والمتمثلة في تغيير طريقة التجنيد، واسـتقدام مدربين أجانب، وشراء أسـلحة معاصرة من مختلف الأقطار الأوربية، كل هذه شكلت قوام سياسة تحديث مؤسسة الجيش في مغرب منتصف القرن التاسـع عشر، مما جعل من العسير وضع حدود ثابتة للموضوع دون احتمال الوقوع في استطرادات أو إهمال جوانب مهمة منه.

- وبالنظـر لاضطرارنا إلى اسـتعمال بعض المفاهيم التي لا زالت موضوع سجال بـين الباحثين، فقد حاولنا تجنب الخوض في متاهات التحديد الابستمولوجي للمفاهيم المسـتعملة في متن هذا العمل، دون أن يعني كلامنا هذا توظيفها بنوع من التسـيب وعدم التدقيق، بل مِلْتُ إلى تشـغيل مفاهيم إجرائية مستفيدا في هذا الصدد من نتائج بعض الدراسـات النظرية، فمثلا بخصوص مصطلح «الإصلاح» الذي يمكن

أن يكتسي عدة معان متباينة، فقد أثرت تبني المفهوم الذي حدده الأستاذ علي أومليل لهذه اللفظة في دراسته عن «الإصلاحية العربية والدولة الوطنية». وذلك من خلال تمييزه بين منطق الإصلاح الإسلامي القديم والإصلاح الإسلامي الحديث. من حيث إن الإصلاح الثاني يختلف عن الأول بإحالته إلى الآخر واتجاهه إلى الغير (أوربا) في تصوره ومباشرته لعملية الإصلاح وصياغة مشاريعه. وقد وجدنا في هذا المفهوم تحديدا مناسبا وملائما لهذا الإصلاح موضوع دراستنا[1].

## المستوى الثاني الخاص بمادة البحث:

يرى بعض الباحثين أن استئثار مرحلة القرن التاسع عشر باهتمام المؤرخين لم يكن مجرد صدفة، وإنما راجع لعوامل مختلفة نذكر منها على الخصوص أهمية هذه المرحلة من تاريخ المغرب من جهة، ووفرة الوثائق والمصادر المتصلة بها من جهة ثانية.

وإذا كنا نعتقد بوجاهة هذا الرأي إلى حد كبير، فإنه لا يصدق على موضوعنا الذي يتأطر زمنيا ضمن حدود هذه المرحلة، ذلك أنه رغم عدم استبعادنا لوفرة مادة هذا الموضوع، فإنه من العسير إن لم نقل من المتعذر الوصول إليها، نظرا لأن أساس مصادر البحث إلى جانب أصول أخرى، هو عبارة عن وثائق خاصة ومذكرات وتقاييد ورحلات ألفها بعض أفراد البعثات، إلا أن معظمها لا زال حبيس خزانات الخواص. وهو ما يدفعنا إلى تقديم تقويم أولي لمختلف مضان الدراسة.

## مصادر ومراجع البحث:

لم يستفد البحث كثيرا من دراسات سابقة في الموضوع سواء المغربية منها أو الأجنبية، فباستثناء الدراسة القيمة للمؤرخ محمد المنوني، نجد أن باقي الأعمال التي اهتمت بهذه المرحلة لا تتضمن سوى معلومات متكررة لا تزيد في مجملها عن الإشارة إلى حدث إيفاد بعثات تعليمية إلى أوربا من طرف السلطان الحسن الأول دون أدنى

1 -El Malki (H) et Doumou (A) : Réflexions Méthodologiques sur la problématique des Reformes au Maroc du 19 ème siècle in Actes du colloque Réformisme et Société Marocaine au XIXe siècle Publications de la Faculté de lettres et des sciences humaines-Rabat 1983, p471.

إضافة. وتكمن أهمية دراسة المنوني بالأساس في قيمتها البيبلوغرافية وتذليل كثير من مصاعب البحث، حيث عرفتنا بعدد من الوثائق والنصوص التاريخية التي اكتفى بعرض وتحليل بعضها الآخر.

وعلى قلة ما يخصصه الأستاذ عبد الله العروي من صفحات لا تزيد عن ثلاث لموضوع الدراسة، فإننا استفدنا منها إلى حد كبير ومن أطروحته ككل حول الأصول الاجتماعية والفكرية للحركة الوطنية، خاصة على مستوى تصور هذا الإصلاح، وموقفه في سياق وقائع المرحلة، وتحليل أبعاد وخلاصات هذه التجربة.

وعلى كثرة التآليف الأجنبية المهتمة بالمغرب على عهد السلطان الحسن الأول، فقد كانت استفادتنا من الاطلاع على جلها جد محدودة، نظرا لسطحية أعمال بعضها من جهة، وتكرارها لنفس المضامين من جهة ثانية، غير أننا استقينا من بعضها إشارات لا تخلو من أهمية ونذكر منها بالخصوص مقال جاك كايي (Jacques Caille) المنشور بمجلة هسبريس Hesperis في عددها سنة 1954 تحت عنوان:

« Les Marocains à l'école de Génie de Montpellier
1985-1988»

وكتاب «Les Marocains en France» لمؤلفه (Juany Ray) حيث أفادنا بإشارات مقتضبة وهامة حول بعض أفراد البعثات، هذا فضلا عن دراسة مييج Miège حول العلاقات بين المغرب وأوربا، ودراسة بيير كيين (Pièrre Guillen) عن العلاقات المغربية الألمانية.

واعتبارا أن الوثائق والمذكرات التي تهم الموضوع تحتفظ بها جهات خاصة، فإني لم أدخر جهدا يفوق بكثير إمكاناتي في سبيل الاطلاع عليها، حيث بذلت عدة محاولات للاتصال ببعض الأسر التي بلغني أنها في ملكها. غير أن حصيلة هذه المجهودات لم تسفر عما كنت أطمح إليه في بداية البحث، وأهم ما تأتى لي الحصول عليه هو مقيدات وتصاميم هندسية تسلمتها شاكرا من السيد محمد بن صالح بن محمد بن الكعاب المقيم بمكناس، وهو حفيد محمد الكعاب أحد أعضاء البعثة الطلابية التي توجهت إلى فرنسا، ومن بعدها إلى بلجيكا سنة 1297هـ/1879م، وتتضمن هذه المقيدات بعض المعلومات الهامة بخط صاحبها باللغة الفرنسية، إضافة إلى بعض المراسلات التي تبودلت

بين الطالب محمد الكعاب وبعض أفراد عائلته، حول إشـارات أفادتني في تسليط الضوء على بعض الجوانب الخاصة بالموضوع.

وبعد محاولات متعددة للاتصال بالطبيب السـيد العيدوني بالرباط وهو ابن أحمد الجبلي العيدوني أحد أعضاء البعثة الموجهة إلى إيطاليا سـنة 1306هـ/1888م تمكنت من الحصول على مقـال مرفوق بصورة شمسية لشخص الطالب، ومتضمن لمعلومات هامة حول أطوار دراسته بإيطاليا، وعلى الأخص حول المهام التي تولاها بعد عودته إلى المغرب.

كمـا سمح لي العلامة محمد المنوني بتصويـر نسخة لمخطوط من مخطوطـات خزانته الخاصة، وهو من تأليف الطالب الطاهر بن محمد الحاج الأودي أحد أعضاء البعثة التي قصدت فرنسـا السالفة الذكر، عنوانه بـ «الاسـتبصار في عجائب الأمصار والجبال والأنهار والبحور ومنافيـس النـار...»، وتكمن قيمة هذا المخطـوط في أنه يُتيح للباحث إمكانية معرفة المسـتوى الفكـري ومواقف طلبـة البعثات، فضلا عن تضمنه لبعض الشوارد ذات الارتباط بموضوعنا.

وإجمـالا، يمكن تصنيف الأصول التي تم اعتمادها في إنجاز هذه الدراسة إلى الأنواع التالية:

## الوثـائق

### ◆ الوثائق المغربية:

بعـد تصفح أغلب المحافـظ المحتوية للوثائـق الرسمية الخاصة بعهد السـلطان الحسن الأول بالخزانة الحسـنية، وبعد مراجعة أغلب المراسـلات التي تبودلت بين الحسـن الأول ونائبه الطريس بالخزانة العامـة بتطوان، فإني لم أظفر منها بشيء يذكـر، عدا بعض الوثائق القليلة التي تخص الجوانب المرتبطة من بعيد بموضوعنا. وأهم الوثائق التي ارتكز عليها بناء هذه الدراسة، كان قد تم نشرها في ثلاث مضان أساسية وهي:

مجلـة «الوثائـق» التي تصدرها مديريـة الوثائق الملكيـة بالرباط وخاصـة في عددها الثالث، والجزء الثاني مـن مؤلف «إتحاف أعلام النـاس بجمال حـاضرة مكناس» للمؤرخ عبد الرحمـن بن زيدان، تم

كتـاب «مظاهر يقظة المغرب الحديث» الجزء الأول الذي ضمنه صاحبه وثائق جد هامة في ملك أسرة آل بن سعيد بسلا.

وإذا كنـت أفـدت أيما إفادة مـن هذه الوثائـق بخصوص بعض الجوانـب التقنية والعلميـة، كالإجراءات الإعدادية التي كانت تسـبق إرسـال كل بعثة، وتاريخ سـفرها، ومعايير اختيار الطلبة، وأصولهم الاجتماعيـة ومواطنهـم، فإن بعض الجوانب الأخـرى لم تفصح عنها إلا نادرا كالنفقات المالية التي تطلبها إنجاز هذا الإصلاح على سـبيل المثـال، وعن مجالات توظيف خبرات أفـراد البعثات بعد عودتهم، مما حتم الاستناد إلى أصول أخرى.

◆ الوثائق الأجنبية:

لم يكـن بمقدورنـا في ظل شروط إنجـاز هذا البحـث زيارة كل أرشيفات الدول التي اتجهت إليها البعثات، غير أنه تأتى لنا الحصول على بعض وثائق وزارة الحربية الفرنسية، وعلى الأخص بعض تقارير البعثة العسكرية الفرنسية بالمغرب، حيث كان أعضاؤها يوفون شهريا قيادتهم العليـا بتقارير حول تطور الأوضـاع العامة بالمغرب، كما تم الاطلاع على بعض وثائق وزارة الخارجية الفرنسـية والبلجيكية، هذا بالإضافة إلى الوثائق الهامة الـتي تضمنتها بعض التآليف الأجنبية، ولاسـيما كتاب «ب.ج.ر. روجيرز حول «العلاقـات الانجليزية-المغربية حتى عام 1900». ومهما قيل عن محتوى هذه الوثائق ومنطلقاتها، فإنه لا يمكن التقليل من أهميتها لاعتبارات متعددة، منها على الأخص كونها تعكس وجهة نظر طرف أساسي ارتبط به موضوع هذا الإصلاح، كما أن طابعهـا السري جعلهـا تحوي بعض المعلومـات التي تفصح عن النوايا الحقيقية، وتكشف النقاب عن معطيات قد لا نجدها في الوثائق المغربية.

◆ الكنانيش والسجلات المخزنية:

راجعت عددا من هذه الكنانيش بالخزانة الحسنية والخزانة العامة بالرباط، ولم يتضمن بعضها سوى إفادات جد محدودة، غير أننا نؤكد في هـذا الصدد على أهمية السجل الذي أورده المؤرخ ابن زيدان في الجزء الثاني من مؤلفه «العز والصولة في معالم نظم الدولة»، حيث يعد

عمدتنا الرئيسـية في تسليط الكثير من الضوء على عناصر الموضوع، ويكشف بنوع من التفصيل عن أسماء أفراد أغلب البعثات، والدول التي قصدتها، فضلا عن بعض الإشـارات التي عرفتنا بتخصصات هؤلاء العلمية والعسكرية، والمدة الزمنية التي قضوها في الديار الأجنبية.

◆ **مذكرات وتقاييد خاصة:**

تعد هذه الأصول على قـدر كبير من الأهمية التاريخية، باعتبارها تعكس وجهة نظر أفراد البعثات وتجربتهم، وتزودنا بمادة غنية تفيد في التعرف على ظروف عيشهم بالبلدان التي درسـوا فيها، كما تتضمن معلومات سياسية حول علاقة المغرب بالدول الأوربية لا تخلو من قيمة، فضـلا عن التعريف بالمهام التي كلف أصحابها القيام بها. وهي كلها معلومـات قد لا نجدها في غيرهـا من المصادر التاريخيـة المتداولة، وإذا كانـت بعض هذه المذكرات لا زالت في حوزة الخواص، وليسـت في متناول الباحث، فإنه من حسـن الحظ أن بعضها قد عرف طريقة إلى النـشر على أعمدة بعض المجلات (مجلة البحث العلمي، مجلة دار النيابة، مجلة دعوة الحق)، مما أتاح إمكانية توظيفها في مقاربة بعض جوانب موضوع البحث.

◆ **المصادر المخطوطة والمطبوعة:**

لم أدخر وسعا في ملاحقة مادة الموضوع في عدد كبير من المصادر المختلفة، محفوظـة كانت أم مطبوعة، وباسـتثناء بعضها الذي أمدنا بشهـادات مفيدة، فإن جل مصادر المرحلة على كثرتها، تلوذ بالصمت حيال موضوعنـا، بيد أن هذا الصمت ذو دلالة تعبر عن موقف مؤلفي هذه المصادر الرافض للانفتاح على العالم الخارجي، والذي كان حدث البعثات التعليمية أحد تجلياته الأكثر تعبيرا.

بيـد أن اطلاعنا على بعـض المصادر التي ألفـت حول تحديث الجيش أو إحداث «عسـكر النظام» على حد تعبير مؤلفيها، وتقارير الرحلات السـفارية المرتبطة بهذه المرحلة، كان مجديا، حيث أسعفنا في إبـراز بعـض المعطيات التي سـاهمت في ميلاد هـذه المبادرة الإصلاحيـة.

وأخيرا، وبالنظر إلى خصوصية الموضوع التي لا تسمح بإقامة حواجز فاصلة بين هذا الحقل المعرفي أو ذاك، فإننا حاولنا استغلال قراءتنا لأعمال بعض الباحثين المهتمين بتاريخ الأدب المغربي الحديث، والمهتمين بقضايا إشكالية النهضة، ونخص بالذكر كتاب الأستاذ عبد الله كنون «أحاديث عن الأدب المغربي الحديث»، ومقال للأستاذ محمد الجابري حول تطور الانتلجنسيا في المغرب، كما ساعدنا استثمار نتائج بعض الدراسات التي عالجت قضايا الإصلاح سواء في المغرب أو غيره من أقطار العالم الإسلامي في القرن الماضي، في تسهيل معالجة بعض الجوانب الخاصة بموضوعنا، وأذكر منها بالخصوص الأبحاث التي ساهم بها أصحابها في ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر التي نظمتها كلية الآداب بالرباط سنة 1983.

تلك هي حصيلة مختلف المضان التي استقينا منها المادة المصدرية وتم توظيفها في قالب يتكون من ثلاث أبواب وخاتمة عدا هذه المقدمة.

خصص الباب الأول لرصد المعطيات وتحليل العوامل التي بدت لنا كبواعث على التفكير في الإقدام على هذه المبادرة الإصلاحية، والقاضية بتوجيه مجموعة من الشبان المغاربة في بعثات متتالية إلى أوربا بهدف اكتساب الخبرة العلمية والعسكرية الأوربية.

وأفرد الباب الثاني للتعريف بمختلف الإجراءات المتخذة قصد إعداد الطلبة الذين وقع عليهم الاختيار، وبأصولهم الاجتماعية، إلى جانب التمييز بين أصناف هذه البعثات وتركيباتها ومقاصدها.

أما الباب الثالث فقد تمحور أساسا حول عرض نتائج هذه التجربة الإصلاحية على المستوى العملي والعلمي، وتقويم حصيلتها، ومحاولة رصد عوامل إخفاقها.



# الباب الأول:

# مصادر فكرة البعثات

تهدف فصول هذا الباب إلى محاولة الإجابة على سؤال يفرض نفسه في مقدمة الأسئلة التي يثيرها موضوع الدراسة. ويتعلق بنصيب العوامل الداخلية، ونصيب العوامل الخارجية من مصادر هذا الإصلاح. هل صدرت فكرة إرسال بعثات للتكوين والدراسة بأوربا عن قناعة من السلطان، وجاءت كخطوة أملتها مواطن الضعف في الأجهزة المؤطرة لبنية المخزن من إدارة وجيش، أم كانت مجرد استجابة لأحد مقترحات و«نصائح» الخبراء والقناصل الأوربيين؟

وقبل الشروع في استعراض مصادر هذا الإصلاح، يجمل بنا إبداء الملاحظات التالية:

- تنشأ الحاجة إلى الإصلاح والشعور بضرورته ووجوبه في كل مجتمع كنتيجة لوعي بخلل ذاتي وبتدهور الأوضاع الداخلية، كما يمكن أن يكون ناتجا عن وعي بأخطار خارجية محدقة بكيان هذا المجتمع، وقد يكون ناجما عنهما معا. وهذا شأن المغرب منذ منتصف القرن التاسع عشر باعتبار أن الإصلاح مثل ظاهرة طويلة الأمد واكبت تاريخ المغرب، فكانت دوما مصادر داخلية للإصلاح في مقدمتها النموذج السياسي الإسلامي. إلا أن واقع الاحتكاك مع الدول الأوربية خلق وضعا جديدا، وبالنتيجة فرض مصدرا خارجيا للإصلاح كما يذهب إلى ذلك أحد الدارسين[1].

- إن ما يلفت النظر بخصوص موضوع الإصلاح في مغرب منتصف القرن التاسع عشر، أن كل المبادرات جاءت في الغالب من الجهات الرسمية، وتمت على يد الدولة إن لم تكن أحيانا على يد السلطان بصفته فردا[2].

- من الصعب حيال واقعة تاريخية أن نحدد بشكل جازم الأسباب التي كانت وراء هذه الواقعة. ويصدق ذلك على هذه المبادرة الإصلاحية، إذ لا يمكن ربطها ربطا سببيا بجملة من العوامل المحددة، حسبنا

---

1 - محمد زنيبر، "هل هناك مصادر داخلية للإصلاح؟"، ضمن ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية-الرباط، أكتوبر 1986، ص13 و ص346.

2 - جرمان عياش، "حول الإصلاح بالمغرب في القرن التاسع عشر"، ضمن مجلة دار النيابة السنة الأولى، العدد الأول، يناير 1984، ص360، وأنظر أيضا:

محمد زنيبر، "الفكر المغربي في الربع الأخير من القرن 19"، ضمن مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، العدد الثامن 1982، ص323.

التأكيد على أن حدث إرسال البعثات التعليمية إلى أوربا جاء نتيجة تفاعل واحتكاك شروط مميزة لوضع داخلي يتسم بتأخر في هياكله وبنياته، تقابله شروط وضع خارجي يتميز بتقدم بنياته العسكرية والصناعية والعلمية.

▪ تأسيسا على الملاحظة السالفة لم نود التعرض لوضعية المغرب خلال ظرفية هذه المبادرة الإصلاحية، تفاديا لاستعادة معلومات تاريخية معروفة، واعتقادا منا أنها نالت حظها من الدراسة من طرف ثلة من الباحثين أكثر أهلية منا لهذه المهمة. بيد أننا نرى أنه لا مندوحة من الوقوف على بعض الوقائع والقضايا التي لا يمكن فصل العلاقة ببينها وبين هذا الإصلاح.



# الفصل الأول

# مصادر داخلية

## 1) مشاريع نظرية حول إصلاح الجيش:

سجل حدث احتلال الجزائر من طرف الجيش الفرنسي سنة 1830 بداية مرحلة جديدة بالنسبة لكل شمال إفريقيا، باعتبار أن هذا الحدث لم يخص الجزائر وحدها بل إن الدول المجاورة قد تحملت صدمة ذلك الاحتلال[1]، إذ أن تدخل المغرب لنصرة جارته سبب في حدوث مجابهة عسكرية مباشرة بينه وبين جنود الاستعمار الفرنسي في «إيسلي» سنة 1844، مني خلالها المغرب بهزيمة فظيعة أبانت عن مدى ضعف الجيش المغربي وهشاشة تنظيماته أمام جيش نظامي مجهز بأسلحة فتاكة تتحرك وفق إستراتيجية محكمة وتخطيطات مدروسة.

وما لبثت إسبانيا أن ألحقت بالمغرب هزيمة أخرى في «حرب تطوان» سنة 1859 - 1860، لم تكن أقل تأثيرا من الأولى بل زادت من تعزيز النفوذ الأجنبي في البلاد، وأرهقت الخزينة المغربية التي أفرغت من كل محتوياتها[2].

وليس في نيتنا الدخول في تفاصيل هاتين الهزيمتين وآثارهما، حسبنا التأكيد أنهما سجلتا بداية مسلسل من النكسات اللاحقة زعزعت المعطيات السياسية والعسكرية والاقتصادية، ومهدت الطريق للاستعمار الأجنبي.

---

1 -Abdallah Laroui , « Les origines Sociales et culturelles du nationalisme Marocain (1830-1830) , Maspero- Paris 1977, p 237.

2 - جرمان عياش، جوانب من الأزمة المالية بالمغرب بعد الغزو الإسباني سنة 1860، مطبوعات معهد الدروس العليا المغربية، الجزء التاسع عشر الرباط 1959، ص26.

إن هدفنا من هذه الوقفة، هو إبراز الوجه الآخر للهزيمتين اللتين شكلتا حافزا للنقد الذاتي، ومدخلا لولوج سياسة الإصلاحات. يقول علال الفاسي في هذا الصدد: «...ولقد كان انهزام الجيش المراكشي في هذه الموقعة (...) باعثا للشعب المغربي ونخبته على التدبر والتفكير في أسباب الهزيمة وظروفها. وقد تنبه المغاربة منذ الساعة إلى أن الأنظمة العتيقة في الجيش وفي الدولة لم تعد مجدية إزاء التقدم الأوروبي الحديث، وتكون في نفس القادة شعورهم بالحاجة إلى التجديد، وانتحال وسائل التقدم والتعرف. وتعتبر هزيمة إيسلي العجز الأول للنهضة المراكشية الحديثة...»[3].

وبالفعل فقد تمخض عن الهزيمتين ظهور حركة انبعاث جديد ويقظة في البلاد[4]، فكما حصل في المشرق حيث لم تبدأ بوادر الوعي النهضوي الحديث في التبلور إلا بعد الاصطدام مع أوربا، وبكيفية خاصة بعد احتلال نابليون لمصر سنة 1798، حدث نفس الشيء في المغرب، إذ لم يبدأ الاتجاه إلى المستقبل بتساؤل وتوجس إلا مع احتلال الجزائر، وبالخصوص عقب هزيمة الجيش المغربي في وقعة إيسلي سنة 1844 أمام الجيش المحتل للجزائر[5].

فَتَحْتَ وقع الضربات الأولى للغزو الأجنبي (حادث الجزائر، إيسلي، تطوان) بدأ المغاربة أو على الأقل نخبتهم العالمة يعون وضعيتهم كأمة أصبحت مستهدفة من طرف الطامعين، هذا الوعي الذي جسدته نخبة من العلماء الذين ألفوا رسائل وفتاوى وكتب جعلت من المسألة العسكرية نقطة الانطلاق في الإصلاح وبؤرته، فجاءت هذه التأليف عبارة عن مشاريع ونظريات تتضمن توجيهات حول تنظيم الجيش، وتصورا لنظام الاستعداد لمواجهة التهديد الأوربي.

إن الكتابات حول الإصلاح العسكري والتي لا زالت في غالبيتها مخطوطة، بدأت تأخذ أهميتها منذ سنة 1850، أي عقب هزيمة إيسلي. وقد ميز العروي في هذه الكتابات بين ثلاثة اتجاهات. وهو تمييز يقوم على أساس موقع واضعي هذه التأليف.

---

3- علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، مطبعة الرسالة، الطبعة الرابعة، الرباط 1980، ص86-85.

4- محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، الجزء الأول، مطبعة المتوسط، الطبعة الثانية، بيروت 1985، ص22.

5- محمد عابد الجابري: "تطور الانتلجنسيا المغربية: الأصالة والتحديث في المغرب"، ندوة الانتلجنسيا في المغرب العربي، المجموعة بإشراف عبد القادر جغلول، دار الحداثة الطبعة الأولى، بيروت 1984، ص14.

الاتجـاه الذي يمثله شهود عيان للعمليات العسـكرية في الجزائر، والذيـن رأوا أن مـن واجبهم إثارة انتباه سـلطان المغـرب للأخطار المحدقة بالبلاد.

- الاتجاه الذي يمثله العسـكريون المحترفون الذين أتوا من بلدان إسلامية أخرى وعرضوا على السلطان خدماتهم.
- اتجاه العلماء المرتبطين بشكل أو بآخر بالسلطة[6].

وما يهمنا من هذه التآليف هو الوقوف على بعض الاقتراحات التي اعتـبرت من شروط الاسـتعداد، وهي اقتراحات نعتبرها ذات أثر في إقدام السـلطان على إرسال شبان وجنود لدراسـة العلوم العسكرية وغيرها بالمعاهد الأوربية، خصوصا إذا علمنا أن أغلب هذه الرسـائل كانت ترفع إلى السـلطان، كما أن أصـل هذه التأليف كان يرجع إلى الفتاوى التي يطلبها السلطان في شأن ما يعرض عليه من إصلاحات، إذ تتحـدث المصادر أن السـلطان محمد بن عبـد الرحمان وهو الذي عاش حرب إيسـلي وتطوان بكل النتائج المترتبـة عنهما، بعد اقتناعه بحقيقـة ضعـف الجيش المغربي، واسـتيعابه للدور الكبـير للمدفعية وضرورة إخضـاع الجيش لتكوين نظري خاصة في مادة الرياضيات، قرر استشارة عشرة علماء كبار لإضفاء الشرعية على مشاريعه الرامية إلى تجديد قواعد الجيش المغربي(7).

وقبـل إبراز أثر هـذه التأليف كمصدر داخـلي للتفكير في توجيه البعثـات، من المفيد الإشـارة إلى ما يلاحظ بخصوصها من تباين من حيث مستوى شموليتها، وربط إصلاح وتنظيم الجيش بإصلاح الميادين الأخرى. غير أن القاسم المشترك الذي يجمع بينها هو اعترافها بضعف الجيش المغربي والفوضى الذي تسود صفوفه بالمقارنة مع تفوق الجيش الأوربي المنظم والمسلح على الطريقة العصرية.

إن تعاملنـا مع نمـاذج من هذه التأليف لن يطـال بنيتها الفكرية، وتحليـل طريقـة تصور هؤلاء العلماء لنظام الاسـتعداد، إنما سـيتم التركيز فقـط على كل إحالة إلى الغرب تفيـد الإعجاب بعناصر قوته

---

6 -Abdallah Laroui, op-cité, pp273-274.

7 A. Laroui, op-cité, pp 279-280.

محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، الجزء الأول، ص 20.

العسكرية، أو تصرح بتقليد نظام جيشه، أو توحي بجلب أسباب قوته، كاستيراد الأسلحة الأوربية وتعلم الفنون العسكرية.

ولنبدأ برسـالة ألفها ابن عزوز سـنة 1256/1849 موجهة للسلطان المـولى عبـد الرحمان بن هشـام (1859-1822) تحمل عنوان «رسـالة العبد الضعيف إلى السلطان الشريف»[8] ويدور موضوعها حول تنظيم الجيش. ويستنتج من خلال ما جاء من معلومات في الرسالة ذاتها أن ابن عـزوز هذا كان أحد الصوفية المقيمين بالجنـوب الجزائري، وأنه شاهد عيان لمعارك فرنسا ضد الجزائر.

ويبـدو واضحا من خلال الصفحات المعدودة[9] لرسـالة ابن عزوز، أن هذا الأخير يقترح على السـلطان عبد الرحمان بن هشـام القيام بجملـة مـن الإجراءات لتهييء جيـش منظم قادر عـلى القيام بحملة عـلى الجزائر لتحريرها من قبضة الفرنسـيين. واقتراحات ابن عزوز لإصلاح الجيش تنتظم ضمن أربعة مستويات تشمل التجنيد والتدريب والتسـليح والتنظيم، ويهمنا الوقوف عند مستوى التسليح حيث نجده ينصح السـلطان بجلب الأسلحة من أوربا على اختلاف أنواعها. يقول ابـن عزوز: «...فابعث إلى بلاد النصارى يأتونك بسـتماية من المدافع المعلومـة للقتال ومايتين وخمسـين ألفا من المكاحل المعلومة للعسـكر المخالفـة لمكاحلكم هذه، وعشرة آلاف مكحلة ذات الجعبتين ومثلها في العـدد من الكوابيس وأربعمايـة كريطة...وكراريط المدافع أيضا لا بد منهـا. وابعث نصرك الله أيضا إلى بـلاد النصارى بنحو اثني عشر سـفينة موسوفة (كذا) بالشر ثم الكور (...) وإن زادوك البارود فحسن. وهذا معظم ما نحتاجه من بلاد النصارى»[10].

يتبـين أن أول ما اسـتهل به رسـالته هو اقتراحه على السـلطان بالاعتمـاد كليا على أوربـا «بلاد النصارى» لتزويـد الجيش المغربي بالأسلحة الحديثة، لأنه خبر في الميدان فعالية هذه الأسلحة كما يتضح

8 - ابن عزوز المراكشي، "رسالة العبد الضعيف إلى السلطان الشريف"، مخطوط خ.ع.ر، رقم ح1623.

9 - مجمل الرسالة يتكون من أربعة فصول: الفصل الأول في ذكر التهييء للجيش، والثاني في كيفية جمعه من المدائن والقرة والبوادي، والثالث في كيفية تهييئه وسفره لقتال العدو وصفة القتال، والرابع في ذكر توبيخ بعض أمراء الحوز وبعض أمراء الجند، غير أن النسخات المحفوظة بالخزانة العامة بالرباط تشمل نقط الفصل الأول وجزء من الفصل الثاني.

10 - ابن عزوز، المصدر المذكور، ص8-7.

بجلاء من خلال وصفه الدقيق لكل أنواعها والتي تخالف الأسلحة المغربية التي باتت متجاوزة تقنيا، كما تبرز صيغة أسلوبه «المكاحل المعلومة للعسكر المخالفة لمكاحلكم هذه»[11]، وإذا فات ابن عزوز أن أوربا لم تكن لتقبل أن تزود المغرب بما يمكنه من مقاومة أهدافها الاستعمارية، فإن تأكيداته المتكررة تعكس يقينه من التفوق العسكري الأوربي، وهو تفوق أصبح مطلب الحصول عليه الهاجس الذي حرك أغلب التدابير المتخذة بهدف تحديث الجيش المغربي، هكذا، فكما أن ابن عزوز يقترح على السلطان عبد الرحمان بن هشام التوجه إلى الغرب لتزويد هذا الإصلاح من حيث الأسلحة، فإن هذا الغرب هو الذي ستقصده البعثات في عهد السلطان الحسن الأول لتأطير عناصر الإصلاح[12].

وخلافا لابن عزوز، فإن علي السوسي السملالي (1311هـ/1893م) في مخطوطه الموسوم بـ«عناية الاستعانة في حكم التوظيف والمعونة»[13] يرى من شروط الاستعداد الاعتماد على النفس في ميدان تسليح الجيش، وذلك بتوفير مستلزمات إقامة صناعة حربية محلية، يقول: «فلا بد للملك من أن ينبث في أراضيه ينابيع الإمداد من مدافع وكور وسيف ومكحلة وغير ذلك...»[14] خصوصا إذا علمنا أن السملالي كما تبرز فقرات مخطوطه كان على بينة ووعي بمناورات وحيل الدول الأجنبية التي كانت تطوق المغرب وتورطه عبر خطة إقراضه بالديون، كخطوة أولى على طريق الإجهاز عليه واحتلاله. غير أن السملالي لا يسعه إلا الإقرار بواقع التفوق العسكري الأوربي من خلال تأكيده على ضرورة الاستعداد لمواجهة أطماع العدو المتربص بالبلاد، جاعلا من مسؤوليات السلطان ومن شروط الاستعداد العمل على خلق قوة عسكرية مماثلة لقوة الغرب العسكرية، كما عبر بقوله: «أن يكون بين ريحه وريح عدوه»[15].

---

11 - المصدر نفسه، ص8.

12 - عبد المجيد الصغير، "ملاحظات حول مشكلة الإصلاح في أول مخطوط صوفي لتحرير الجزائر سنة 1265هـ/1849م، ضمن مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط العدد الثامن 1982، ص351.

13 - مخطوط بـ خ.ع.ر، ضمن مجموع يحمل رقم د480. على أننا اعتمدنا بالأساس على دراسة أحمد العماري، "نظرية التحديث والمواجهة عند علي السوسي السملالي من خلال كتابه (عناية الاستعانة في حكم التوظيف والمعونة). ضمن ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن 19، منشورات كلية الآداب، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء سنة 1986، ص ص111-91.

14 - نقلا عن المرجع السابق، ص108.

15 - المرجع نفسه، ص107.

وفي نفس السياق، ينص السملالي على جملة من شروط الاستعداد نود الوقوف عند بعضها والتي تنم عن إدراكه للتباين الحاصل في المجال العسكري بين المغرب وأوربا (فرنسا). فمخطوط السملالي بما تضمنه من اقتراحات وتوجيهات قد ساهم إلى جانب تآليف أخرى حول نفس الموضوع في تحفيز السلطان على اتخاذ إجراءات متعددة تصب في اتجاه تحديث الجيش المغربي، ومن ضمنها إيفاد بعثات دراسية للتكوين العسكري في الدول الأوربية.

إن السملالي الذي ألف مخطوطه اعتمادا على مصدر القرآن والمؤلفات الفقهية والموروث السلفي النقلي والعقلي يرى «أن النصر لا يكون باللطيف والدعوات ولكن بالاستعداد المنظم والصبر قبل الاتكال على الله»[16]، محيلا إلى فرنسا حسب قوله «تمارس التجنيد الإجباري زيادة على أنها تملك مليونا ونصف مليون من الجنود المدربة الدائمة في العمل العسكري»[17].

ويبدو واضحا، أن حديث السملالي يعكس لديه رغبة في اقتفاء أثر فرنسا، وغني عن البيان أن تحقيق ذلك كان يتوقف على إيجاد أطر مدربة على الطريقة الأوربية، وهو ما رام السلطان بلوغه بإقدامه على توجيه جنود وطلبة إلى أوربا لاكتساب هذه الخبرة. ولم يفته في دعوته لإنشاء «عسكر النظام» التأكيد على أهمية تلقين دروس في الفن العسكري واختيار عناصر الجيش من فئة الشباب. وسنرى كيف أن عنصر الشباب سيراعى كمقياس من مقاييس اختيار الطلبة الذين سيقصدون الدول الأوربية لتلقي الخبرة العلمية والتقنية، والإشراف على تدريب القوات المغربية. يقول أحد الباحثين محللا تصور السملالي لمستلزمات إيجاد قوة عسكرية منظمة «والتنظيم عنده يقوم على اختيار عناصر الجيش من الشباب الأقوياء الشجعان وأن تلقن لهم دروس حول المهمة التي يقومون بها»[18].

بقي أن نشير إلى أن السملالي الذي عمل مدرسا لحساب بعض أفراد الجيش المتخصصين في المدفعية بتطوان على عهد عبد الرحمان

16 - المرجع نفسه، ص108.

17 - المرجع نفسه، ص108.

18 - المرجع نفسه، ص108.

بن هشـــام، ثم مدرســـا للعلوم بالقصر الكبير على عهد محمد بن عبد الرحمان[19] كان من دعاة الاهتمام بالعلوم الطبيعية في ظرف تراجعت أثناءه مكانة هـــذه العلوم، ولم يعد لها من موقع في البرنامج الرسمي لأعلى مؤسســـة تعليميـــة في البـــلاد(20)، مذكرا أن لا عيـــب في نقلها واقتباسها من أوربا، وكيف أن الفكر الإســـلامي اســـتفاد من معارف وعلوم الحضارات الســـابقة عنـــه والمعاصرة لـــه » ثم ينبه على كيفية وصول العلوم إلى المسلمين من الفرس والإغريق وأوربا الغربية...»[21].

لقد شكل الإعجاب بنظام أوربا العسكري وما تميز به من إحكام وترتيب، ثابتا من ثوابت الكتابة الداعية إلى إنشـــاء «عســـكر النظام» الذي «يتأكد طلبه بل يتعين ويتحتم»[22] وهو إعجاب ممزوج في ذات الوقت بكراهية هذا الغرب، يقوم على قناعة هؤلاء العلماء بأن مواجهة الغزو الأجنبي وصد العدو يتوقفان على الأخذ بأسباب تقدمه وأسس قوته العسكرية.

إن هـــذه القناعة يعبر عنها بكل وضـــوح أحد دعاة تحديث الجيش عـــلى النمط الأوربي بقوله: «...وإن الاســـتعداد بآلة المدافع والمهاريس وعسكر النظام أمر حتم قطعا على الإمام، يجبر عليه الرعية، وبه يحصل قمـــع وقهر أعداء الملة المحمدية، ولا جـــرم أن مضادة الكفرة ومدافعة أعـــداء الدين الفجرة، فلا يحصل في هـــذا الأوان إلا بذلك دون غيرها من الحروب والمعارك، فحقيق على الإمام أن يسلك بالرعية تلك المسالك وإلا وقعـــت في الرذائل والمهالك. فإن الـــروم أذلهم الله داكت عقولهم في اســـتنباط واستخراج حرب لا تطاق محاربته، ومن قاتلهم ودافعهم دونه لم تغني مدافعه فأحدثوا عسكر النظام وأطبقوا على أن به يحصل المـــرام، ثم أضافـــوا له ما أحدثـــوا قبله من الـــرمي بالمدفع والمهراس وأجمعوا عـــلى أن بهما يحصل الفزع والرعـــب للناس فتمت حيلتهم، وأمنت بذالك هزيمتهم إلا من رام الحرب المذكور من بابه واتخذ النظام بمتعلقاته وأسبابه...»[23].

---

19 - المرجع نفسه، ص95.

20 -A. Laroui, op-cité, pp 198-199.

21 - أحمد العماري، مرجع سابق، ص109.

22 - محمد المهدي بن الطالب بن سودة في رسالته لتنظيم الجيش نقلا عن محمد المنوني، مرجع سابق، ص344.

23 - الغالي اللجائي، "مقمع الكفرة بالسنان والحسام في بيان إيجاب الاستعداد وحرب النظام"، مخطوط خ.ح.ر، رقم 965، ص26.

لا شك أن هذا الموقف المزدوج الذي طبع أغلب هذه التآليف يجد تفسيره في إدراك هؤلاء العلماء للوجه الآخر من المدنية الأوربية، وهو وجهها الاستعماري الذي تأكد بالوقائع وهو موقف لم ينفرد به المغاربة وحدهم. فقد لاحظ أحد الدارسين المهتمين بقضايا النهضة العربية الحديثة أن الاقتناع بقوة أوربا لدى طائفة من مثقفي العصر سواء كان ذلك في المجال العسكري أو غيره من المجالات، كان مقرونا بكراهية أوربا «...أخذ الوعي النهضوي العربي يضع الأنا (العرب-المسلمون-الشرق) في موقع النائم المتأخر المعتدى عليه، المهدد في وجوده المادي وكيانه الروحي، ويضع الآخر (الغرب- أوربا المسيحية) في موقف الناهض المتقدم، ولكن أيضا الغازي التوسعي المستعمر، ومن هنا ذلك الموقف المزدوج الذي اتخذه العرب من الغرب، الموقف الذي اتسم بالتناقض الوجداني. الإعجاب والكراهية في نفس الوقت الإعجاب بالغرب، بعلومه وصناعته (...)، والدعوة إلى اقتفاء أثره والأخذ بأسباب تقدمه، والكراهية لنفس الغرب الغازي التوسعي الاستعماري...»[24].

لقد استبعدنا في استقرائنا لنماذج من النصوص التي دعا أصحابها إلى تحديث الجيش المغربي، مسألة التفكير في مدى أو عدم شمولية تصوراتهم لهذا التحديث، وفيما إذا ربطوا الإصلاح العسكري بالإصلاح السياسي والاجتماعي العام، لأن اهتمامنا ينصب أساسا على ما تضمنته هذه النصوص من إشارات واقتراحات تحيل صراحة أو ضمنا، إلى التوجه إلى أوربا للحصول على مصادر قوتها العسكرية، سواء عنيت هذه الإشارات بجلب الأسلحة العصرية، أو التمرن على استعمالها، أو تدريب عناصر الجيش المغربي على الطريقة الأوربية، وهي كلها قضايا شكلت إحدى الأهداف الرئيسية للبعثات التي ستوجه إلى أوبا، والأمثلة السالفة الذكر خير معبر عما نحن بصدد إبرازه كمصدر داخلي للإصلاح موضوع الدراسة.

ومن المفيد الوقوف على مثال آخر، حيث يستفاد من جملة التوجيهات التي أوردها مؤلف إحدى الرسائل الموضوعة حول تنظيم الجيش[25]

---

24 - محمد عابد الجابري، "العرب والغرب على عتبة العصر التكنولوجي، ضمن مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 32، السنة 1984، ص ص45-44.

25 - محمد بن أحمد الخوجة، "رسالة في تنظيم الجيش"، مخطوط خ.ع.ر، رقم ك، 2733، ص1.

أن الارتقاء إلى مستوى النظام العسكري الأوربي يقتضي ضرورة معرفة وتعلم العلوم العسكرية التي يرتكز عليها هذا النظام.

إن مؤلف الرسالة احترف مهنة الجندية واطلع في «بلاد الترك، وفي بلاد الروم» على كتب تعالج موضوع القوانين والفنون العسكرية[26]، مما يفسر تنويهاته المتكررة بهذه العلوم، وخاصة الهندسة ليلمح إلى الرغبة في تعليمها وتلقينها لأطر الجيش المغربي التي لاحظ عليها جهلها لهذه العلوم حسب قوله في بداية الرسالة: «...وبعد فإني لما نظرت في أحوال العسكر السعيد (...) وجدت قلة المعرفة مع أرباب المكلفين به مع جهل القوانين الجارية فيه تذكرت البعض مما روينا، عن أربابه وشاهدناه في بلاد الترك وفي بلاد الروم ودارسناه، في كتب المهندسين من أرض مصر وجعلناه مختصرا لطيفا في خدمة العسكر وقوانينه وحروبه»[27]. ولم يفته التأكيد على ضرورة وحاجة أفراد الجيش المغربي لمثل هذه العلوم التي بدون تعلمها فإن وجود الجيش يتحول إلى عدم «...لأن صنعة العسكر إذا لم تكن لها الرياسة والمعرفة والقوانين صار وجودها كالعدم، فالواجب على العسكر التعليم والمسايسة والملاحظة فيه حتى ترسخ صنعة الحرب في عقولهم ويثبتون على القوانين والحيال اللازمة لهم عند مقابلة العدو»[28].

إن أهمية هذه الرسالة بالنسبة لموضوعنا تكمن في تميزها عن النماذج السابقة الذكر بإلحاح صاحبها على وجوب تعليم عناصر الجيش كل أصناف العلوم العسكرية، وتذكيره بوجود كتب خاصة بهذه العلوم «وصنفوا على ذلك، كتب عديدة»(29)، فضلا عن أن مؤلفها لم يقتصر على الإحالة إلى الغرب، وحده كمصدر للقوة العسكرية على غرار ما لاحظناه مع المؤلفين السابقين، بل نجده يشير أيضا إلى أسبقية تركيا ومصر، على المغرب في هذا المجال، فليس صدفة إذن أن تبدأ البعثات الدراسية بالتوجه إلى مصر ومن بعد إلى أوربا، وليس صدفة أيضا أن نجد العلوم العسكرية تتصدر قائمة المواد التي سيتلقى فيها الطلبة تكوينا في المعاهد الأوربية.

(26) المرجع نفسه، ص1.

(27) المرجع نفسه، ص1.

(28) المرجع نفسه، ص5.

(29) المرجع نفسه، ص2.

تأسيسا على ما استعراضناه من نماذج من النصوص التي عالجت موضوع الإصلاح العسكري انطلاقا من منتصف القرن التاسع عشر نخرج بالخلاصات التالية:

لا يمكن فصل هذه التآليف التي ساهمت في خلق أدب متميز عن حدث احتلال الجزائر وهزيمتي إيسلي وتطوان، وهي أحداث كشفت بما فيها الكفاية عما آلت إليه وضعية الجيش من ضعف وفساد من جهة، كما حكمت بوجوب الإصلاح؛ ومن ضمنه البعثات؛ من جهة ثانية.

إن هذه التآليف بما تضمنته من آراء وأفكار تمثل نموذجا من الإنتاج الفكري الذي عرفته المرحلة، يعكس لنا الوعي المتكون بعد صدمة الهزيمتين عند عموم المغاربة حكاما ومحكومين على السواء.

إن تبوأ الإصلاح العسكري مكانة الصدارة في كل المشاريع والمحاولات الإصلاحية، فكرية كانت أو عملية، يرجع إلى أن القطاع العسكري كان أول قطاع مغربي احتك واصطدم بالغرب، فاكتشف قوة هذا الغرب العسكرية والكامنة في نظامها المحكم، لذا وجب إنشاء مثل هذا النظام الذي «حق على هذه الأمة»[30] لأن «ما أصاب جيشه السعيد هو من عدم تنظيمه على الطراز الجديد»[31].

إن دعوة هذه الكتابات إلى إنشاء جيش نظامي على النمط الأوربي جعل جلها يسير في اتجاه تأكيد مظاهر التفوق العسكري والبحث عن أسبابه، فتولدت القناعة بأن لا مناص من اللجوء إلى أوربا لإقامة «عسكر النظام» كخطوة أولى في أفق القضاء عليها بأسباب قوتها عينها، ولم يكن إيفاد بعثات دراسية لاكتساب العلوم التي يرتكز عليها هذا النظام إلا إجراء من إجراءات هذا اللجوء الاضطراري إلى الغرب.

إن خلو هذه التآليف، من اقتراح صريح ومباشر يقضي بإيفاد بعثات دراسية إلى أوربا، لا يمنع من تصنيفها كباعث من بواعث هذا الإصلاح، ذلك أن ورود عدة اقتراحات في هذه المتون، تخص التدابير الواجب اتخاذها لتحديث الجيش المغربي على الطريقة الغربية، جعل الغرب قبلة كل إصلاح في الميدان العسكري. فالغرب هو الذي ستقصده البعثات التي كانت من ضمن التدابير المتخذة لتطوير جهاز المغرب الدفاعي.

---

30 - أحمد الكردودي، "كشف الغمة ببيان أن حرب النظام حق على الأمة"، مخطوط خ.ع.ر رقم د1281.

31 - محمد غريط، "فواصل الجمان في أبناء وزراء وكتاب الزمان"، مطبعة الجديدة، فاس 1346، ص88.

يستند تصنيفنا لهذه الكتابات كمصدر من مصادر هذه المبادرة الإصلاحية التي كانت مبادرة رسمية إلى كون أغلبها كان موجها إلى السلطان محمد بن عبد الرحمان، فضلا عن أن بعض مؤلفيها كانوا من بين عناصر الدائرة المحيطة بهذا السلطان الذي عُرِفَ عنه اهتمامه بالعلوم العقلية وتشجيعه لها[32]. ومعلوم أن البعثات بدأت على عهد هذا السلطان، وإن كانت مصادر أخرى ترجعها إلى عهد عبد الرحمان بن هشام كما سيأتي تفصيله استقبالا.

## 2) تقارير الرحلات السفارية:

يتبين مما سبق ذكره، أن المسألة العسكرية قد استأثرت بالنصيب الأوفر من المجهود الإصلاحي الفكري في المغرب، منذ منتصف القرن التاسع عشر. وسيتقوى الاهتمام الفكري بهذه المسألة بمساهمة الرحالة المغاربة الذين زاروا بعض أقطار أوربا خلال هذه الفترة، وذلك بتركيزهم أكثر في تقاريرهم الوصفية على رصد التنظيمات العسكرية الأوربية التي عاينوها بهذه الأقطار، مع ما كانت تتضمنه أوصافهم هذه من نقد باطني لتنظيمات الجيش المغربي.

فمن المعلوم أن تكاثف العلاقات مع أوربا، وما ترتب اعنها من مشاكل تحولت إلى أخطار تهدد الكيان المغربي، جعل السلاطين يبذلون جهودا متعددة ومتواصلة لدرء هذه الأخطار، ولم يكونوا على استعداد للدخول في مغامرة حربية مع إحدى الدول المتنافسة على المغرب، قد تكون عواقبها أعمق مما خلفته هزيمتا إيسلي وتطوان. وهو نهج عكسته كتابات بعض العلماء الذين آثروا تجنب كل اصطدام مباشر مع القوى الأوربية[33] على نحو ما عبر عنه أحد الحجاج المغاربة بقوله: «...ومن يحاج النصارى ويغالبهم اليوم لعلو

32 - عبد الرحمان بن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، المطبعة الوطنية، الرباط 1940، الجزء الثالث، ص367.

33 - لا ننفي وجود بعض العلماء الذين عارضوا سياسة الصلح والمهادنة مع الدول الأوربية ودعوا في كتاباتهم إلى مواصلة الجهاد. أنظر ما جاء في مخطوط ألف سنة (1280هـ/1863م) لصاحبه محمد الدرقاوي العربي المدغري عنوانه "منشور يدعوا إلى الحرب"، خ.ع.ر، رقم د3353.
راجع أيضا: لطيفة سمريس بناني، "جوانب من مواقف علماء المغرب في القرن 19 من أزمة وأحداث الفترة"، ضمن مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، عدد خاص سنة 1406-1985، ص ص228-191.
محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، ج1، ص ص357-348.

كلمتهم وقوة شـــوكتهم في البحار والمراسي وفي كل الثغور...»[34].

وهذا العجز يعلنه الناصري بكل صراحة: «فكيف يحسن في الرأي المسارعة إلى عقد الحرب مع الفرنج وما مثلنا ومثلهم إلا كمثل طائرين أحدهما ذو جناحين يطير بهما حيث شـــاء، والآخر مقصوصهما واقع على الأرض لا يســـتطيع طيرانا ولا يهتدي إليه ســـبيلا، فهل ترى لهذا المقصـــوص الجناحين الذي هو لحم عـــلى وضم أن يحارب ذلك الذي يطير حيث شاء»[35].

ومحاولة من سلاطين المغرب لتطويق الأزمة وتفادي المواجهة المباشرة نهجوا سياسة خارجية لبقة ومتحايلة اتجاه الدول الاستعمارية الكبرى المتمثلة وقتذاك في إنجلترا وإسبانيا وفرنسا المتصارعة فيما بينها في حرب باردة بهدف بسط نفوذها على المغرب[36]. وقد تبلور جانب من هذه السياسة في إيفاد سفارات مغربية تجوب أقطار أوربا لمدة محدودة قد تغطي بضعة أسابيع أو شهور، مستهدفة تسوية بعض المشاكل العالقة مع بعض هذه الأقطار، وفي نفس الآن تعميق الخلافات الســـائدة في صفوف القوى الأوربية بما يضمن سيادة ووحدة التراب المغربي.

فعلا شهد المغرب منذ ســـنة 1845 حركة دبلوماســـية مكثفة تمثلت في توجـــه عدة ســـفراء مغاربـــة إلى جل بلدان أوربا مكلفين بتســـوية قضايا خاصة قد تتعلق بتصفية بعض المشـــاكل لترابية أو لطلب تأييد مواقف المخزن أو لاقتراض.وقد يتعلق الأمر فقط بزيارة مجاملة لتوطيد العلاقات بين البلدين، وإن ظل في الغالب موضوع الســـفارة مســـكوتا عنه لأن السفراء كان يرون أن ذلك من الأسرار الدولية التي من واجب أمثالهم المحافظة عليها وكتمانها[37].

وموضوع الســـفارات المغربية إلى أوربـــا الذي لم يحظ من قبل إلا بدراســـات محدودة، بدأ يثير اهتمام الباحثـــين مغاربة وأجانب[38] نظرا

34 - محمد بن عبد الله الغيغائي: "رحلة الغيغائي"، مخطوط خ.ع.ر، رقم ج 98، ص66.

35 - الناصري أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956، الجزء التاسع، ص190.

36 - زكي مبارك، "من أدب الرحلات، تحفة الملك، العزيز بمملكة باريز للكاتب الأديب الحاج إدريس العمراوي، مجلة البحث العلمي، العدد 31، أكتوبر 1980، ص69.

37 - محمد داوود، تاريخ تطوان، المجلد الثالث، المطبعة المهدية، تطوان 1962، ص298.

38 - أنجزت الأمريكية "سوزان ميلر" دراسة عن رحلة محمد الصفار.

-Susan G. Miller, « The voyage of Faquih as. In actes du premier congrès d'histoire T.2, Tunis 1979.

لأهمية هذه السفارات كشكل من أشكال الاتصال بالأوروبيين في ظرفيه دقيقة. وبغض النظر عن الحصيلة السياسية لهذا النشاط الدبلوماسي فإن ما يستوقف الدارس هو ما نتج عن هذا النشاط من إنتاجات فكرية جاءت في شكل تقارير قد تكون من تأليف السفراء أو ممن كانوا يرافقونهم من كتاب وأدباء. وهي تقارير شكلت أدبا حضاريا جديدا، إذ أنها بالإضافة إلى ما تضمنته من معلومات حول الظروف والملابسات التي أحاطت بالسفارات، فإنها تنطوي على معطيات حول ما شاهده مدونوها أو سمعوه من مؤسسات ومآثر وعادات وتقاليد البلدان التي وُجِّهُوا إليها، لذا ليس من المبالغة اعتبارها مصدرا من المصادر التاريخية، وبمثابة دراسات مقارنة لمجتمعين أحدهما في طور التجديد والتغير والتوسع، والآخر في طور الجمود والانكماش، أي بين مجتمع عصري ومجتمع تقليدي[39].

وإذا كانت بعض تقارير هذه الرحلات في غير متناول الباحثين[40] فإن المتوفر منها كاف نسبيا لتقديم تصور عام حول رؤية ومنظور فئة من مثقفي العصر لمخترعات المدنية الأوربية، ومواقفهم إزاء مظاهر التقدم الأوربي الحديث.

على أننا سنكتفي بالوقوف على نماذج من هذه التقارير موجهين في طريقة تعاملنا معها بالسؤال التالي: ما هو دور هذه الرحلات السفارية في تعميق الوعي بضرورة الإصلاح؟ وبالتالي بأي معنى من المعاني يمكن اعتبارها باعثا محليا من بواعث التفكير في إرسال بعثات دراسية إلى أوربا؟

يستفاد مما ورد في مخطوط العربي المشرفي أن جل السفراء المغاربة الذين أرسلهم السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان عادوا يستعظمون أنظمة البلدان الأوربية التي زاروها، ويستحسنون طرق

---

39 - زكي مبارك، مرجع سابق، ص75.

40 - تتحدث المصادر عن بعض الرحلات السفارية التي لم تستغل بعد من طرف الدارسين منها:

- رحلة لأبي عبد الله محمد بن الحاج محمد بن السعيد السلاوي (ت1310هـ/1892م) إلى بلاد فرنسا حوالي سنة 1868م/1285هـ بأمر من السلطان محمد الرابع، تقع في سفر صغير توجد عند حفدته سلا.

أنظر: ابن سودة، "دليل مؤرخ المغرب الأقصى"، الجزء II، طبعة دار الكتاب، الدار البيضاء 1960، ص ص353-352.

رحلة إدريس بن محمد الجعيدي (ت 1308هـ/1891م) تحت عنوان «تحفة الأخبار بغرائب الأخبار»، ألفها عن سفارة محمد الطاهر الزبدي إلى فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وبلجيكا (1293هـ/1876م).

أنظر: كما كتبه الناصري معلقا على هذه الرحلة، الاستقصا ج9، ص151 وأيضا: عبد الله الجراري، من أعلام الفكر المعاصر، الجزء 2، دون تاريخ الطبع ومكانه، ص275.

أحكامها حسب ما يؤكده قوله: «...وكل من بعثه المولى الإمام لبر النصارى عَظَّمَ شأن الملاقاة للكفار، واستعظم النظام الكبرى وضبط الأحكام...»[41].

فلنقف على معالم التنويه هاته في بعض النماذج من الرحلات السفارية مبتدئين برحلة محمد بن عبد الله التطواني الصفار[42] الذي رافق بصفته كاتبا في سفارة الحاج عبد القادر بن محمد أشعاش عامل تطوان إلى فرنسا ابتداء من أواخر سنة 1261هـ/1845م[43]. ويتضح من خلال رسالة بعثها السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام إلى الحاج عبد القادر أشعاش يخبره فيها بتعيينه سفيرا للمغرب في فرنسا، أن الغاية من هذه السفارة هي إظهار تقرير الصلح والمهادنة[44] بعد المعارك التي جرت في شهر أغسطس من السنة الماضية[45]. وأهمية هذه الرحلة تكمن في كونها أول رحلة سجلت أحوال البلاد الغربية في العصر الحديث، فضلا عن أن صاحبها كان مسؤولا كبيرا في الجهاز المخزني حيث تولى الوزارة لثلاثة من ملوك المغرب[46]، وكان من المستشارين المقربين للسلطان المولى الحسن، فموقعه هذا يجعلنا لا نستبعد احتمال اقتراحه على السلطان باقتباس ما ارتآه إيجابيا من منجزات التقدم التقني التي عايناها بالديار الفرنسية، يؤكد ذلك ما جاء في بداية تقريره، مفسرا دواعي كتابته: «...وكان من الحزم لمن تغرب عن وطنه ونأى أن يعد كل ما سمع ورأى لما قد يوجد في ذلك، من العلوم والعبر وما حصلت جم الفوائد إلا من مخالطات البشر...»[47].

---

41 - المشرفي العربي بن علي، "الحسام المشرفي"، مخطوط خ.ع.ر ضمن مجموع بحمل رقم ك2276، ص321.

42 - وردت ترجمته في:

-ابن داوود، تاريخ تطوان، الجزء III، ص297 وأيضا:

-Georges Yver , « La question Marocaine-Revue Africaine, Année 1909, p212.

-المراكشي، «الإعلام»، الجزء 7، ص34.

43 - بخصوص هذه السفارة يمكن الرجوع إلى مجلة "الوثائق"، العدد2، المتضمنة ثمان وثائق رسمية تحت الأرقام التالية:

الوثيقة 192-191-183-182-181-180-179-178. أيضا.

44 - مجلة الوثائق المجموعة الثانية، المطبعة الملكية، الرباط، 1396هـ/1976 رقم الوثيقة 178، ص73.

45 - جاك كابي، "السفارات والبعثات المغربية إلى فرنسا"، ضمن مجلة تطوان، السنة 1961 العدد6، ص179.

46 - محمد الفاسي، "الرحلات السفارية المغربية"، ضمن مجلة البينة، السنة الأولى، العدد6، أكتوبر 1962، ص ص22-21.

47 - محمد بن عبد الله الصفار التطواني، "رحلة إلى فرنسا"، مخطوط خ.ح.ر رقم 113، ص25-24.

إن الصفـار يبـدي في كثير من فقرات تقريـره نوعا من الإعجاب ببعض التنظيمات التي شهدها، من ذلك على سـبيل المثال ما جاء في معرض وصفه لمظاهر السكن العمراني بنوعيه الحضري والبدوي «... أعلم أن هؤلاء القوم ليس عندهم في مساكنهم لا أخصاص ولا خيم ولا نواويـل، وإنما يعرفون البناء لا غير إلا أن بناء البوادي متميز عن بناء الحواضر، فقراهم في الحقيقة من جملة المدن، يوجد فيها ما يوجد في الحاضرة من الأسواق، وما يباع فيها وغير ذلك، وقد ارأينا في طريقنا هذا ما يشهد شهادة حق لأهل هذه البلاد بالاعتناء التام والتبصر العام بأمور دنياهم وإصلاح معاشهم وإتقان تدبيرهم...»[48].

ومما يستوقف الدارس في رحلة الصفار هو وصفه لنظام الصحافة ووظائف النظـام البرلماني بلهجة إيجابية تـوحي بالتبني، حيث كتب معلقا على سـير عمل نواب الأمة «...ومن وظيفتنا (أي القمرة ويقصد البرلـان) تجديد قانون مفقود وإبقـاء قانون موجود على حاله، والفرق بينهـما أن القمرة الكبيرة تحامي عن الملك، ورؤسـاء الدولة، وتعضد أمرهـا، والصغيرة تحامي عن الرعية وتنصرها وتطلب حقوقها فكأنها خصـم للأخرى...ولا يمضي قانون من قوانينهم ولا حكم من أحكامهم إلا إذا اتفـق عليه أهـل القمرة الصغيرة والقمرة الكبيرة والسـلطان ووزراءه...»[49].

ولم يكن المؤرخ ابن داوود مبالغا في استنتاجه من وصف الصفار لميزانية الدولة ومداخيلها ومصاريفها، إذ كتب معلقا على هذا الوصف «...وقد أسهب في هذا الموضـوع إسهابا ولعله كان يود لو كان شيء من ذلك، النظام المالي موجودا في بلده أيضا»[50].

إن هذه الرغبة المسكوت عنها نجدها حاضرة عند الصفار وغيره من الرحالة المغاربة، وتُسْتَشَـفُّ من خلال قراءة عميقة لمتن هذه الرحلات، فبعض التقارير لم يفصح أصحابها عن كل ما شـاهدوه وأعجبوا به، فضلا عن تفاوت مكانة هذا المؤلف عن الآخر مما يعني تفاوت إمكانيات وهامش التعبير[51].

48 - المصدر نفسه، ص29.

49 - المصدر نفسه، ص134-133.

50 - محمد داوود، تاريخ تطوان، م.س، ج3، ص308.

51 -A.Laoui, op-cité, p215.

على أننا نجد في بعض الفقرات تعبيرا صريحا عن إعجاب الصفار ببعض التنظيمات، كتعقيبه على مشاهدته لإحدى التداريب العسكرية، إذ كتب منوها «...إنهم أرونا كيفية حربهم بالمدافع في هذا المركب، إذا عرض لهم فيه حرب، بينما كل واحد من خدمته ومن يباشر ذلك، جالس أو قـائم في موضعـه الذي هو فيه (...) ومـدار ذلك، كله على الضبط والحزم والاعتناء التام وعدم الغفلة في الأمور، والله فليسـت لهم قوة في أبدانهم ليسـت لغيرهم بل ربما كانوا أضعف من غيرهم في ذلك، وإنما الذي لهم الاعتناء التام والترتيب الحسـن، ووضع الأشـياء في محلها ويبنون أمورهم كلها على أصح أسـاس ويستعدون للأمور قبل وقوعها ولا يعرف حقيقة ذلك، إلا من شاهده...»[52].

إن هـذه الرحلة بما تضمنته من أوصاف إيجابية لبعض المخترعات التقنية تدل على اسـتعداد عظيم لتفهم المدنية الحديثة من قبل الصفار الذي صار بعد ذلك، من أهم رجالات الدولة المغربية.

ومن المفيد أن نختم حديثنا عن رحلة الصفار بالوقوف على إشـارة هامـة أوردها بصدد وصفه لحضـور الوفد المغربي في القصر الملكي لتقديم التهنئة للملك الفرنسي بمناسـبة حلول السـنة الجديدة 1846، حيث ذكر أن من بين الوفود الحاضرة سـبعة من المسـلمين المصريين وبعضهم من عائلة محمد علي، ثم نحو سـتين مـن الأشخاص الذين بعثهم محمد علي المذكور إلى فرنسـا لتعلم العلوم بها[53]. إنها إشارة تحمل أكثر من دلالة صادرة عن شخصية مسؤولة ومقربة من السلطان، مما يجعلنا نرجع أن هذه التقارير ساهمت بشكل أو بآخر في الإقدام على خطوة إرسال بعثات طلابية إلى أوربا.

ومثـل هذا الإعجاب الـذي طبع وصف الصفـار لبعض تنظيمات فرنسـا نصادفـه مرة أخـرى عند إدريس بـن إدريس العمـراوي[54] في رحلته التي ألفها عن سـفارة توجهت برئاسـته إلى فرنسـا سنة

---

52 - محمد الصفار: "رحلة إلى فرنسا"، ص54-53-52.

53 - محمد داوود، تاريخ تطوان، ج3، ص307.

54 - وردت ترجمته في عدة مصادر نذكر من بينها:

* أبو عبد الله محمد بوجندار، "كتاب الاغتباط لتراجم أعلام الرباط".
* ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص32 وما بعدها.
* محمد غريط، "فواصل الجمان..."، ص142 وما بعدها.

1276هـ/1860م[55]، تحمل اسم «تحفة الملك العزيز بمملكة باريز»[56] وإذا كان مؤلف الرحلة وبعض المصادر(57) تفصح عن أهداف هذه السفارة بإشارات جد عامة، فإن الرجوع إلى بعض المضان العربية والأجنبية يفيد بتنوع مهام هذه السفارة، حيث كلف السفير ابن إدريس بإخبار نابليون الثالث بوفاة السلطان عبد الرحمان بن هشام وتوليه ابنه سيدي محمد عرش المغرب، وكذا إبلاغه برغبة السلطان المغربي في تدخل فرنسا كوسيط بين المغرب وإسبانيا بشأن قضية تطوان، فضلا عن مشكل الحدود المغربية-الجزائرية، الذي كان يثار وقتذاك، في كل لقاء مغربي فرنسي[58].

وتستمد رحلة ابن إدريس أهميتها من الوزن السياسي والفكري لشخصية مؤلفها، مما يفسر عدم تردد ابن إدريس في الإفصاح عن بعض الاقتراحات المباشرة للجهات المسؤولة بشأن جلب بعض المخترعات لما ارتأى فيها من منفعة وفائدة للمغرب، بدأ ذلك واضحا حين كتب ابن إدريس العمراوي مبديا إعجابه من إحدى مبتكرات أوربا الصناعية «...وهذه الآلة التي اتخذوها للطبع هي في كل الأمور عامة النفع معينة على تكثير الكتب والعلوم وقد اتخذوها في جميع بلاد الإسلام، واغتبط بها مشاهير العلماء الإعلام ويكفيك من شرفها وحسن موقعها رخص الكتب التي تطبع بها، وقد اعتنوا بتصحيحها، وبالغوا في تهذيبها مع جودة الخط وإيضاح الضبط»[59]، وإذ يقتنع بمزايا جهاز المطبعة فإنه لا يلبث أن يعرض على السلطان محمد الرابع (1873-1859) فكرة إنشاء هذا الجهاز بالمغرب «...ونطلب من الله بوجود مولانا أمير المؤمنين أن يكمل محاسن مغربنا بمثل هذه المطبعة، ويجعل في ميزان حسناته هذه المنفعة...»[60].

55 - عن هذه السفارة أنظر:
* ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص34-33-32 والجزء 3، ص523.
* زكي مبارك، مرجع سابق، ص82-67.

56 - إدريس بن إدريس العمراوي، تحفة الملك العزيز بمملكة باريز، الطبعة الحجرية، بدون تاريخ.

57 - المصدر نفسه، ص3. وأنظر أيضا:
* ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص33.
* العباس بن إبراهيم، الإعلام، ج3، ص34.

58 - جاك كايي، مرجع سابق، ص 181-180.

59 - إدريس بن إدريس العمراوي، مصدر سابق، ص54.

60 - المصدر نفسه، ص55.

وكما هو الشأن في معظم الرحلات السفارية، فإن العمراوي يصف بنوع من الدهشة والذهول كلما صادف بعض المخترعات الحديثة غير المعهودة في المغرب[61]، وعن سير الحياة السياسة بفرنسا يسجل العمراوي ارتسامات تفيد إعجابه بهذا النظام غير أن وصف الميدان العسكري استأثر بالقسط الأوفر من رحلة العمراوي منوها بتنظيمات وقوانين الجيش الفرنسي كقوله «...أما قاعدتهم في ضبطه فقرروا أحكاما ككل جريمة تجري على فاعلها حتما وقطعوا الطمع عن أن يتولى أحد مرتبة فيه برشوة أو شفاعة أو (...) ولم يطلقوا للمتولين اليد في العسكر بالتعدي والضرب والحيف، ولا يأخذ شيء من مرتبهم فما يحدث في قلوب العسكر حنق عليه حتى يطلعون بعزلة وولاية غيرهم، ولذلك، وقف كل عند حده فآمنوا بوائقه وفتنه»[62].

نستشف أن العمراوي، الذي لا زالت هزيمة تطوان عالقة بذهنه، يصف الجيش الفرنسي وتنظيماته بعين تستحضر في ذات الوقت وبشكل ضمني مساوئ تنظيم الجيش المغربي والفوضى السائدة في صفوفه، وما يترتب عنها، مما ينم عن رغبة دفينة في اقتباس هذه التنظيمات وإدخالها إلى المغرب.

يتبين إذن من خلال ما وقفنا عليه من إشارات واردة في رحلة العمراوي، أن هذا الأخير في نقله صورة عن أوضاع المجتمع الفرنسي وما بلغته من تقدم لا يخفي إعجابه ببعض مظاهر هذا التقدم والتلويح بإنشائها واقتباسها. لقد كان العمراوي ينطلق من وصفه «من زاوية مغربية فتأتي المقارنات هفوية ولا شعورية، وتصدر عنه الرغبات، ويلوح بالإصلاحات، ويطالب بالتغيير في الأمور النافعة، ويستنكر الأمور القبيحة بأسلوب الفقهاء ومنطق العصر»[63].

لقد أولى السفراء وكتاب التقارير اهتماما بالغا بالأمور العسكرية فزاروا معامل صنع الأسلحة ووصفوا بإسهاب صناعة «الكرطوشات» والمدافع، وعاينوا التمرينات العسكرية، وأشاروا إلى أن الفن العسكري علم يكتسب بالكتابة، وأن مدارس مختصة في تكوين أبناء الأعيان لمهنة الجندية[64].

---

61 - من ذلك وصفه لجهاز التلغراف، ص62-61.

62 - المصدر نفسه، ص106-105.

63 - زكي مبارك، المرجع المذكور، ص72.

64 -A.Laoui , op-cité, p217.

كل هذه الاهتمامات شـــكلت قاسما مشتركا عند أغلب الرحالة مما يعكـــس رغبة هؤلاء في تحصيل أســـباب التفوق العســـكري الأوربي. ويتأكد قولنا هذا من خلال الوقوف على بعض الانطباعات التي ضمنها أبـــو العباس أحمد الكـــردودي[65] في رحلته المسماة «التحفة الســـنية للحضرة الحســـنية بالمملكة الصبنيولية»[66] عن سفارة كان عضوا فيها قصدت إســـبانيا سنة 1884 برئاســـة عبد الصادق أحمد الريفي، ففي تعليقـــه على زيارة لمصنع المدافع بإشـــبيلية يقول: «...وهذه الدولة وإن اقتفت أثر غيرها في ذلك فإنها لم تبلغ بعض البعض مما استنبطوه ولا علمت من صناعتهم مثلما صنعوه ولكنها لم تهمل ذلك، إهمالا كليا، ولا جعلتـــه وراءها ظهريا بل وجدت في إدراكه فأدركت ما تيسر من ذلك، وهم جادون فيما ســـلكه غيرهم من تلك المسالك...»[67]. فالكردودي كان على وعي تام بتأخر إســـبانيا بالقياس إلى باقي الدول الأوربية، لكنه لم يفته التأكيد على محاولة الاســـبان وسعيهم الجاد في سبيل اللحاق بهذه الدول مســـتفيدة من تجاربهم بدراســـة نتائج اكتشافاتهم، وكأن الكردودي بتأكيده هذا يتمنى لو أن المغرب حذا حذو الدولة الإسبانية، مصداق ذلك تنويهه بمبادرة السلطان المتمثلة في إرسال جنود مغاربة إلى جبـــل طارق للتدرب على الطرق الحديثة، متنبئا بإقدام الســـلطان عـــلى خطوات مماثلة مســـتقبلا يقول: « ومن اعتناء ســـيدنا أيده الله بأمور الجهاد ورغبته فيما يعود نفعه على البلاد والعباد صار يوجه من أهل كل فرقة من الحرف التي هي آلة للجهاد من يســـتقصي معرفتها ويعلم صفتها وكيفيتها حتى يســـتغني به فيها عمن سواه عن الأجانب ويدرك ما يكون به كمال الاســـتعداد من المآرب وصار أيده الله يوجه على «الفابريكات» التي يستخدم بها ذلك، وقد ورد منها ما ورد ورفع من وجهته بعض من توجه لمعرفتها والاطلاع على كيفيتها وخدماتها عارفا بجملتها وجميعهم بصدد الشروع في عمل ما علمه وبذل مجهود في ما أتقنه من ذلك، وأحكمه وهي أمور تدل على ما وراءها...»[68].

لقـــد كتب الكردودي وهو مـــشرف على ختم تقريـــره «...هذا وقد

65 - أنظر ترجمته في مقدمة عبد الوهاب بن المنصور لهذه الرحلة.

66 - أبو العباس أحمد الكردودي، التحفة السنية بالمملكة الاصبنيولية، مطبوعات القصر الملكي، الرباط 1963.

67 - المصدر نفسه، ص90.

68 - أبو العباس أحمد الكردودي، مصدر سابق، ص91.

ألمحنا في هذا التقييد العجيب ببعض ما شاهدناه من الأعاجيب، واقتصرنا على ما لا بأس بذكره للعلم به، ومعرفة جملته وتفصيله قصد المزيد للاستعداد بأفضل منه، والسعي في تحصيله»[69].

واضح أن الكردودي وهو يبرر دواعي كتابة رحلته أنه قصد بها التعريف ببعض منتجات ثورة أوربا الصناعية «الأعاجيب»، حاثا على بذل المساعي الكفيلة بتحقيق مناعة المغرب والحصول على أسباب التقدم الأوربي.

وعن سفارة الحاج محمد الزبدي الذي أوفده السلطان المولى الحسن سنة 1876 إلى فرنسا وبلجيكا وإيطاليا وإنجلترا لتعديل أمر الحمايات القنصلية[70]، حيث تنقل لنا بعض التقارير الأجنبية أن هذا السفير بعد اطلاعه على مظاهر التقدم الحضاري بعواصم أوربا قد أعجب بهذه المظاهر، وأكد أنه من واجبه أن يعرف السلطان بعد عودته إلى المغرب بمزايا هذه الحضارة الأوربية وأن ينصحه باقتباس بعض تنظيماتها، وفي مقدمتها العمل على تنظيم الجيش المغربي على النمط الأوربي[71].

لقد لاحظ أكثر من دارس أن تقارير الرحلات السفارية، قد ساهمت إلى حد ما في تعميق الوعي بضرورة الإصلاح الذي أصبح مطلبا موضوعيا تقتضيه شروط الظرفية الحرجة التي كان يمر منها المغرب، «فلا شك أو وصف السفراء لمعطيات النهضة الحديثة كان يهدف -بالدرجة الأولى-إلى تعريف دولتهم بمزايا هذه الحضارة قصدا للاقتباس منها»[72].

صحيح أن هذه التقارير بما تتضمنه من آراء ومواقف متفتحة على بعض المخترعات الغربية لم تمارس تأثيرا يذكر على الرأي العام لأن مؤلفيها كانوا قلة ومنعزلين، فضلا عن أنها كانت موجهة إلى فئة

---

69 - المصدر نفسه، ص92.

70 - عن هذه السفارة أنظر:

* ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص311-279.
* مجلة الوثائق، ج5، ص10 وما بعدها.

71 -Miage (J.I) , « Une Mission Française à Marrakech en 1882 ». Publications des Annales de la Faculté des Lettres Aix-en-Provence, 1960, p360.

72 - محمد المنوني، "نماذج من تفتح القرن 19 على معطيات نهضة أوربا والشرق الإسلامي، ضمن ندوة "الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن 19"، ص195.

محدودة من القراء[73]، غير أن مما لا شك فيه أن الرحلات السفارية كان لها الأثر الواضح على ما أقدم عليه السلطان من تدابير إصلاحية، لاسيما تلك التي مست الميدان العسكري.

فالسفراء المغاربة، كانوا بالإضافة إلى بعض الأجانب والتجار المصدر الوحيد لمد السلطان بمعلومات عن أوضاع الدول الأوربية ومصادر قوتها(74)، فضلا عن كون بعض مؤلفي هذه الرحلات كانوا من كبار المسؤولين في السلك المخزني، لذا، ليس من باب المبالغة ما ذهب إليه أحد الدارسين بقوله معقبا على دور هذه الرحلات «...وبالفعل يظهر أن الحركة التي قام بها السلطان مولاي الحسن من إدخال الأساليب العصرية والمخترعات الجديدة مع توجيه عدة طلبة إلى مختلف عواصم أوربا للدراسة كان ناتجا عن التقارير التي كان يقدمها مختلف السفراء الذين يقصدون أوربا منذ أيام المولى عبد الرحمان»[75].

ومن جهة أخرى، فإن ما يؤكد على مدى ارتباط مسألة السفارات المغربية بموضوع البعثات الطلابية، هو أنها شكلت مناسبة لاطلاع المسؤولين على أحوال الطلبة وظروف إقامتهم بالديار الأجنبية، ومعاينة سير دراستهم وأعمالهم، وذلك بناء على ما أوردته بعض الدراسات الأجنبية، حيث أشار جاك كايي في معرض حديثه عن سفارة عبد المالك بن علي السعيدي التي قصدت فرنسا سنة 1885، أن هذا الأخير وهو في طريق عودته إلى المغرب توقف في مدينة مونبلييه «وباشر مقابلات طويلة مع الطلبة المتدربين وتباحث مع المسؤولين المكلفين بتعليمهم»[76].

كما كانت سفارة عبد السلام برشيد الشاوي[77] الذي زار إيطاليا سنة 1892 فرصة لتفقد أحوال البعثة الطلابية التي تتابع دراستها بإيطاليا حسبما تؤكده هذه الإشارة الواردة في مذكرة أحد أعضاء هذه البعثة «وصل إلى إيطاليا وفد يترأسه عبد السلام برشيد الشاوي

---

73 - A. Laroui, op-cité, p219.

74 - Firch (R.J) : « Le Maroc, Ernest Leroux, Paris, 1895, p45.

75 - محمد الفاسي، مرجع سابق، ص23.

76 - جاك كايي، مرجع سابق، ص186.

77 - تتحدث عنه إحدى الوثائق السلطانية كأحد كبار خدام السلطان ومن سامي رجالاته، أنظر:
- وثيقة موجهة من السلطان المولى الحسن إلى الطريس بتاريخ 1888-11-4 الخزانة العامة بتطوان، محفظة 7 رقم الوثيقة 28.

وذلك سنة 1892 بأمر من مولانا السلطان الحسن الأول (...) فلما وصل إلى مدينـــة ميلانو اتصل تليفونيا بمدير المدرســـة وطلب منه أن يأتي مصحوبـــا بكافة الطـــلاب المغاربة (...) وزودنا قبـــل الافتراق بـ «لويز» ذهبي لكل واحد منا، ورجعنا إلى أعمالنا وســـافر الســـيد عبد السلام إلى ألمانيـــا»[78]. وعـــلاوة على هذا، فإن بعض البعثـــات الطلابية كانت ترافق السفارات الموفدة إلى أوربا[79].

تأسيســـا على كل ما تقدم نســـتنتج أن تقارير السفارات المغربية شكلت مصدرا داخليا من مصادر التفكير في توجيه بعثات تعليمية إلى أوربا بهدف تحصيل العلوم التي كانت أساس ما عاينه هؤلاء السفراء ووصفوه من مخترعات ومبتكرات خاصة في صيغتها العسكرية.



78 - أحمد معنينو، "مذكرة طالب مغربي أرسل في بعثة مغربية إلى إيطاليا منذ ثمانين سنة"، (هو الحسين الزعري)، ضمن مجلة "دعوة الحق"، العدد الأول، السنة 12، نونبر 1968، ص145.

79 - CAILLE Jacques , « Les Marocains à L'école de génie de Montpellier 1885-1888 », Hesperis, vol. XLI, Année 1954, p132.

# الفصل الثاني

# مصادر خارجية

## 1) دور الحضور الأجنبي:

أكدت أغلب الدراسات التي تناولت موضوع الإصلاح في الأقطار الإسلامية عامة والمغرب خاصة، على دور القوى الأجنبية عبر ممثليها في الإقدام على مشاريع معينة، بهدف خدمة مصالحها والحفاظ على امتيازاتها، فالوثائق المغربية والأجنبية والمصادر المتنوعة لا تبخل على الباحث في هذا الصدد، لما توفره له من مادة غنية يعتمدها لإبراز الدور الأجنبي الذي اتخذ أشكالا متباينة تتراوح بين الإيعاز والمطالبة بإدخال بعض المشاريع التحديثية وأحيانا فرض بعض الإصلاحات بما كان يعنيه ذلك، من تطاول على سيادة البلاد وتجاوز لصلاحيات السلطات[1].

كما تفاوت حجم هذا الدور بتفاوت حجم العلاقة و«الصداقة» التي كانت تربط السلطان وبعض مسؤولي الجهاز المخزني بهذه الدولة الأوربية أو تلك[2]، في شخص ممثليها الذين يكمن دورهم بالأساس

1 - كأمثلة على بعض الإصلاحات يراجع:

* ابن زيدان، الإتحاف، ج3، ص544.

محمد أمين البزاز، المجلس الصحي الدولي بالمغرب (1792-1929)، رسالة دبلوم الدراسات العليا بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، أبريل 1980.

LAROUI (Abd), op.cité, pp240-262.

MEGE (J.L), op-cité, T. III.

MARCET (A), Le Maroc : Voyage d'une mission française à la cour du sultan, Librairie PLON, Paris 1885.

2 - أشار مصطفى الشابي في أطروحته أن بعض العائلات المخزنية كانت مرتبطة بدول أوربية معينة وتفضل نصائحها، فعائلة بركاش كانت مرتبطة منذ أمد طويل بإنجلترا غير أنه في أواخر القرن 19 أصبحت أكثر ارتباطا

في مـد حكوماتهـم بتقارير تطلعها على مسـتجدات الوضعية العامة بالبـلاد، وإخبارهـا بإمكانيات التغلغل وفرص كسـب مواطئ جديدة لتعزيز نفوذها بالمغرب.

غـير أن تقريـر هـذا المعطى بنوع مـن العمومية يبـقى من باب تحصيـل الحاصل، إذ الموضوع في اعتقادنا يتطلب كثيرا من التحري ومعرفـة مواقف كل القـوى التي كانت فاعلة في الأحـداث التاريخية الـتي عاشها المغرب في هذه الفترة الحاسمـة، كما يقتضي ضرورة التميـيز بين الإصلاحات التي كان الأجانب يرغبون في إدخالها قصد «تمدينه» وتغيير البنى الداخليـة التي تعرقل كل عمل تحديثي من جهة، والإصلاحات التي كان السـلطان مقتنعا بضرورة القيام بها من جهة ثانية[3]، مع ما اقترن بهذه القناعة من حرص شـديد على الحفاظ على اسـتقلال البلاد والوفاء للتقاليد والمقومات الإسـلامية، ناهيك عن عدم ثقة السـلطان بأية دولة أوربية، وإدراكه للأهـداف التي كان الممثلون الأجانـب يرومون تحقيقها من وراء الإصلاحات المزعومة التي يوصون بهـا[4]، إضافـة إلى وعره بالصراع الدائر بين الهيئات الدبلوماسـية التي كانت ترعى مصالح الدول التي تمثلها في المغرب[5].

كل هذا يفسر طابع الاحتراس والتردد الذي ميز السياسة الإصلاحية التي نهجها السـلطان الحسن الأول، إذ كان على بينة من تحفظ الأمة إزاء كل أشـكال التدخل الأجنبي، وموقف العامة الرافض للاقتراحات

---

بألمانيا تمثلت في علاقة بركاش بالممثل الألماني Mentizugen بطنجة خلال المدة التي شغل فيها منصب عامل طنجة، أما عائلة الزبدي فلم تكن تخفي ارتياحها لألمانيا، فيما مالت عائلة ابن سليمان وغريط إلى فرنسا أكثر من غيرها، في حين ارتبط المنبهي أكثر بإنجلترا وألمانيا.

Chapi (Mustapha) , « Quelques grands Familles du Makhzen marocain au XIX siècle d'après Ibn Zaidane » thèse de doctorat 3ème cycle, Rabat 5avril 1973, p99.

أنظر أيضا:

Arnaud (Louis) , « Au temps des Mehallas ou le Maroc de 1860 à 1912 éditions Atlantides, Casablanca 1952, p57 et p99.

Guilen (Pierre) , « L'allemangne elle Maroc de 1870 à 1905 », P.U.F, paris, 1967, p609 et p623.

3 - LAROUI (Abd), op.cité, p264.

4 - Leroux (Charles), « Mission diplomatique Française à Fès » in Hesperis Tome 35, Année 1948, p232.
LAOUI (Abd), op.cité, p261.

5 - Miège (J.L) , « Une mission Française à Marrakech en 1882 », p37.

الأجنبيـــة، وهو رفـــض له مشروعيته ومبرراته خلافـــا لما روجته بعض الكتابات الأجنبيـــة من كونه راجعا لتعصب المغاربة وكراهيتهم المطلقة للأجانـــب، فالمصادر الأجنبيـــة[6]، وحتى بعض النصـــوص المغربية[7] حافلة بأحكام عديدة في شأن هذه المواقف.

إن الإصلاحـــات الموصى بهـــا من قبيـــل الـــدول الأجنبية كانت ذات طابـــع اقتصـــادي ومرتبطـــة بها يضمـــن مصالحهـــا الحيوية بالبلاد، وتوســـيع اســـتثماراتها، لذا نصادق في البرامج الإصلاحية الـــتي اقترحها القناصلـــة الأوروبيون إلحاحا عـــلى بعض القطاعات بالتحديـــد، وعلى الميادين الـــتي يمكن لهذه الدول الاســـتفادة منها، كالمطالبـــة بإصلاح بعـــض الموانئ المغربية كميناء البيضاء وآســـفي وطنجـــة، وإدخال التلغـــراف لتسهيل المبادلات بينها، وتأســـيس دور ومتاجر للتجار الأوروبيين، وإلغاء قرارات منع المتاجرة ببعض المواد، وبناء الطرق وإنشـــاء سكة حديدية لتسهيل النشاط التجاري والتحكم فيـــه[8]. فغني عن البيان أن الإصلاحات كما أراد الأوربيون صياغتها وإنجازهـــا كانت تســـتهدف خلـــق شروط مواتية لضمان اســـتغلال منظـــم وعقلاني لصـــالح الرأسماليين الأوربيين. ولفائدة المؤسســـات الاســـتعمارية، وتوفير قنوات مناســـبة للربح الأجنبي.

غـــير أن إدخـــال مثل هذه الإصلاحـــات كانت تعني عنـــد المغاربة مزيـــدا من التمازج بالأجنبي وما يترتب عنه، وتعزيز مصالح الأوربيين

6 - من هذه الأحكام نذكر على سبيل المثال وصف (أوجين أوبان) لسكان المغرب بكونهم "أشد الشعوب انغلاقا في الشمال الغربي الإفريقي.

Aubin (Eugène), Le Maroc d'Aujourd'hui, Armand Collin paris 1953, p155.

وقد كتب جان درموند هاي الداعية إلى الإصلاح في رسالة خاصة معلقا على وضعية اليهود بالمغرب ما يلي: «... وسوف يؤدي التقدم التدريجي للحضارة والتجارة، وزيادة نفوذ معتمدي الحكومات الأوربية إلى تحسن أحوال اليهود في تلك البلاد أفضل مما تؤدي إليه الإصلاحات الفجائية التي تفرض على شعب جاهل ومتعصب» نقلا عن: ب.ج. روجرز، تاريخ العلاقات الأنجليزية المغربية في عام 1900، ترجمة ودراسة وتعليق د. يونان لبيب رزق، دار الثقافة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء 1401981، ص232. وانظر أيضا ما جاء في:

LUDOCV.IC ( de Campou), un empire qui croule le Maroc Contemporain, Paris, 1886, p8. ERCKMAN (Jules), « Le Maroc Moderne Paris 1885, p229.

يراجع ما كتبه عبد الله العروي معلقا على هذه الأحكام.

7 - نقرأ في "الحلل البهية في تاريخ ملوك الدولة العلوية، لمؤلفه العربي المشرفي ما يلي: "...المغرب محتو على أوباش البربر وأجلاف العرب، إلا ما قل منهم (...) وهم على غاية التوحش وشدة النفور من هذه المخترعات التي لم يألفوها ولا رأوها قط..."، مخطوط خ.ع.ر رقد د1463، ص420.

8 - Miège (J.L), op.cité, TIII, p216.

وامتيازاتهم، لهـذا واجهوها بالرفض الذي عبرت عنـه فئة العلماء[9]، باعتبارها الفئة المتحدثة باسم مصالح الأمة مثل قول الناصري «...وفي هذه المدة وفد على السـلطان أيده الله عدة باشـدورات للأجناس مثل باشدور الفرنسـيين والإصبنيول والبرتغال وغيرهم، وتكلم الفرنسيين في شأن بابور البر والتلغراف، وإجرائهما بالمغرب كما هما بسائر بلاد المعمور، وزعم أن في ذلك، نفعا كبيرا للمسـلمين والنصارى وهو والله عـين الضرر، وإنما النصارى جربوا سـائر البلاد فأرادوا أن يجربوا هذا القطر السعيد الذي طهره الله من دنسهم نسأله سبحانه أن يكبت كيدهم ويحفظ المسلمين من شرهم»[10].

إن الحديث عن هذه الإصلاحات المزعومة يدفعنا إلى التساؤل حول مـا إذا كانت فكرة إرسـال البعثات الطلابية إلى الخـارج قد تبناها السلطان الحسن الأول بإيعاز أو اقتراح من إحدى الدول الأوربية.

لا نجـد في الوثائق والنصوص التي تم اعتمادها اقتراحا مباشرا من أية جهة أجنبية على السلطان بإيفاد البعثات، باستثناء ما جاء في البرنامج الإصلاحي الذي اقترحـه القنصل البريطاني (جان دريموند

---

9 - ألف بعض العلماء خطبا وفتاوى وتآليف يدعون فيها الشعب، إلى الامتناع عن الاختلاط بالأجانب والتعامل معهم، مؤكدين على الأضرار الناتجة عن ذلك، من الوجهة الشرعية والخلقية والاقتصادية والسياسية، تكفي الإشارة على سبيل المثال لا الحصر إلى عناوين موحية لبعض المخطوطات.

* المغيلي محمد بن عبد الكريم، جواب على سؤال فيما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار، ومما جاء فيه قوله: "لا يحل للمسلم أو يوكل كافرا على سمسرة أو بيع أو شرا، أو صرف لأن لله تعالى في ذلك حقوقا أوجب علينا القيام بها...".

مخطوط خ.ع.ر ضمن مجموع يحمل رقم: د2013، صفحاته 379-365، ص371.

* محمد إبراهيم السباعي، سؤال كشف النور عن حقيقة أهل بصبور، مخطوط خ.ع.ر رقم د 1326.

يراجع ما كتبه حول هذه المواقف:

محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، ج1، ص ص334-326.

ادمون بورك، العلماء المغاربة في 1912-1860، تعريب محمد بن عبود، عبد العزيز سعود، مجلة البحث العلمي العدد 31، السنة ذو الحجة 1400هـ/أكتوبر 1980، ص132.

محمد الأخضر، الحياة الأدبية في المغرب، على عهد الدولة العلوية، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1977، ص395.

10 - الناصري، الاستقصا، ج9، ص187.

وهو نفس الموقف الذي سيعبر عنه من بعد السليماني بقوله: "...أرى دول الاستعمار في هذا الزمان مهما عمروا بلادا ونزلوا بساحتها بثوا فيها الأمنية واستنتجوا خيراتها وربطوا بين مدنها أسلاكا تلغرافية لجلب الأخبار وفتحوا طرقا جادة مرصفة للمارة والعربات والمركبات وغيرها، وبنوا على جميع الأنهار ومجاري المياه والشعاب جسورا في غاية الإتقان محكمة البناء (...) إلا أنهم مع هذا كله يشينون إلى هذه الأعمال المفيدة بنشر مفاسدهم بين العامة(...) زد على هذا منازعة الوطني في موارد رزقه ومواجهته في ساحة بيته يخاد عونه بزجرهم ويبهرونه ببهرجهم حتى يستولوا على بلاده ويعمدوا إلى إفساده".

أبو عبد الله السليماني، اللسان المغرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب، مطبعة الأمنية، الطبعة الأولى، الرباط، 1391هـ/1971م، ص171.

هاي) على الحسن الأول سنة 1875، حيث تضمن في آخر محاوره، بعد التأكيد على الإصلاحات ذات الطابع الاقتصادي اقتراحات تقضي بتكوين مجموعة من الشبان المغاربة لإعداد أطر تسند لها مهمة تطبيق إصلاح البنيات الإدارية بالمغرب[11].

بل على العكس من ذلك، يستنتج من بعض النصوص المتأخرة أن مسألة تحصيل العلوم الحديثة لم ترد قط ضمن اقتراحات و«نصائح» الدول الأجنبية، بل تغافلتها، حسبما يبرزه المشرفي في انتقاده للاقتراح الإنجليزي على السلطان مولاي عبد العزيز والقاضي بإصلاح جباية الضرائب (ترتيب 1901) حيث يقول معقبا «...ولو أرادت (يقصد إنجلترا) النصيحة الحقيقية دون دسيسة لإشارات عليها بإدخال العلوم الرياضية لوطنها وبناء المدارس لقراءتها وتدريسها، والاجتهاد في تحصيلها وبثها في المدن والقرى حتى يتأدب الجاهل ويستأنس المتوحش فتكتسب الدولة حينئذ رجالا يدافعون عنها بما علموه من العلوم الرياضية»[12].

كما يستفاد مما ورد في بعض المصادر، أن إرسال البعثات استهدف بالذات، التخلص من النفوذ الأجنبي، ومباشرة الإصلاحات اعتمادا على أطر مغربية، إذ كان السلطان الحسن الأول يعقب دوما على الاقتراحات الأجنبية بـ: «أن الحكومة المغربية مقتنعة بضرورة إدخال التنظيمات العصرية للمغرب، ولكنها مقتنعة أيضا بأنه يجب أن تكون اليد المتصرفة والمنظمة لهذه الإصلاحات هي اليد المغربية»[13] فضلا عن كل هذا فإن الأوربيين كانوا يفضلون أن يتعاملون مع مخزن ضعيف. وظلوا يعارضون طيلة القرن التاسع عشر كل إصلاح حقيقي هادف للنهوض بالشعب المغربي[14].

غير أن هذه الشهادات لا تنفي دور بعض الوقائع التي كانت مرتبطة بالحضور الأجنبي في خلق هذه المبادرة الإصلاحية. فمما

---

11 - محمد أبو طالب، "مواقف بريطانية من مغرب القرن التاسع عشر"، ضمن ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن 9، ص300.

12 - محمد المشرفي، الحلل البهية في تاريخ ملوك الدولة العلوية، مصدر سابق، ص421.

13 - محمد بن عبد السلام بن عبود، تاريخ المغرب، الجزء الأول، دار الطباعة، تطوان الطبعة الثانية 1957، ص98.

14 - علال الخديمي، مجلس الأعيان ومشروع الإصلاحات الفرنسية بالمغرب سنة 1905، ضمن ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، ص292.

لا شك فيه أن تكوين أطر مغربية على الأساليب الحديثة في الميدان الحربي وغيره، كان يندرج ضمن الإصلاحات التي رغب السلطان القيام بها، إلا أن علم الممثلين الأوربيين بهذه الرغبة جعلهم يعملون على عدم تفويت أية فرصة لاستعراض ما بلغته دولهم من تقدم في الميدان العسكري والتقني من تنظيمات حديثة وآلات عصرية، بهدف احتواء هذه الرغبة وتوجيهها وجهة تخدم مصالحها، كالاتجار في بيع الأسلحة، فضلا عما يصحب ذلك من تعزيز لموقع ونفوذ هذه الدولة أو تلك في المغرب، من هنا كان مأزق الإصلاح الرسمي في منتصف القرن التاسع عشر، الذي يجد تعبيره في الدوامة التي وجد فيها المخزن والمتمثلة في التناقض التالي: لم يكن بمقدور المخزن مقاومة الضغوط التي تمارسها الدول الأجنبية الأوربية إلا بتقوية جهازه الدفاعي وإصلاحه، ولم يكن بالإمكان تحقيق هذا الإصلاح إلا باللجوء إلى أوربا والاستعانة بخبراتها[15].

من هذه الزاوية يمكن تقدير دور التدخل الأجنبي كمصدر خارجي في الإقدام على هذا الإصلاح موضوع الدراسة.

وتمدنا بعض المصادر المغربية والأجنبية بشهادات دالة على قناعة السلطان محمد بن عبد الرحمان بإدخال إصلاحات للنهوض بالبلاد إثر هزيمة تطوان، تمثلت في تبنيه عدة مشاريع شملت ميادين مختلفة نذكر منها على الخصوص، إنشاء معمل للسكر بمراكش قرب أكدال[16] كما أمر بزراعة مساحات كبيرة لقصب السكر[17]، كما يستفاد من بعض الوثائق محاولته إنشاء مصنعين للقطن أحدهما بمراكش[18] والآخر بالرباط[19]، واهتمامه بتحصين السواحل وتزويد الموانئ بالمرافق الضرورية[20]، إضافة إلى جهوده الرامية إلى تنشيط التبادل التجاري

---

15 - JULIEN (Charles André) , « Hassan 1er et la crise marocaine au XIX siècle, in les AFRICAINS, tome III éditions J.A.P245.

يراجع ما كتبه عبد الله العروي حول أزمة الإصلاح الرسمي وتناقضاته في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

16 - ابن زيدان، الإتحاف، ج3، ص566.

17 - أكنسوس المراكشي، الجيش العرمرم الخماسي في أولاد مولانا علي الشريف السجلماسي، الجزء الثاني مخطوط خ.ع.ر رقم د965، ص80.

18 - ابن زيدان، الإتحاف، ج3، ص560.

19 - نفسه، ص564.

20 -Miège (J.L), op.cité, TIII, p114.

بتسهيل المواصلات، تمثلت في استيراد قنطرة حديد من إنجلترا قصد ربط مدينتي الدار البيضاء والجديدة عبر وادي أم الربيع[21].

غير أن السلطان محمد بن عبد الرحمان الذي خاض معركة إيسلي بصفته قائدا للجيش، والذي بدأ عهده بهزيمة تطوان، حرص أكثر على إصلاح الجيش بإعـادة هيكلته وتنظيمه على النمـط الحديث[22]، وهو عمـل كان قد شرع فيه أيام خلافته عن ولده بعد عودته من إيسـلي[23] وواصله بعد توليه مقاليد الحكم، فكان أول سلطان مغربي سباقا لهذه المبادرة[24].

وإذا كانت هذه المشاريع المتواضعة قد كلفت المخزن أموالا باهظة[25]، في وقت كانت الخزينة شـبه فارغة[26]، فإنها لم تحقق النتائج المتوخاة منها، فضلا عن إخفاق بعضها قبل إنجازه وتوقف بعضها الآخر[27].

عـلى أن أهم ما يسـتوقف الباحث في هذه المشـاريع الإصلاحية هـو الاعتماد الكلي في إنجازها على الخبرة الأوربية التقنية والبشرية وذلـك لعدم توفر المغرب على أطر وطنيـة مؤهلة للاضطلاع بمثل هذه المهام[28]، وهو الهدف الذي توخى السـلطان الحسن الأول تحقيقه من وراء إيفاد البعثات.

---

21 - ابن زيدان، الإتحاف، ج3، ص563.

- Miège (J.L), op.cité, TIII, p114

22 - محمد بن الأعرج السليماني، زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ، ج2، خ.ع.ر رقم د 3657، ص342.

Godard (ML) ; « Description et histoire du Maroc, Paris 1860, p141 et p145.

23 - الناصري، الاستقصا، ج9، ص101.

ابن زيدان، الإتحاف، ج3، ص567.

24 - Lahbabi (Mohamed), « Le Gouvernement Marocain à L'aube du XIX siècle éditions techniques Nord Africains, Rabat 1958, p164.

ويستنبط مما أورده ابن زيدان في بعض تأليفه وكذا غيره أن السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام كان أول من حاول تجديد تنظيمات الجيش المغربي وفق النمط التركي، مسندا هذه المهمة إلى عامليه أشعاش وأزطوط، لكنه أبطل العمل بذلك. أنظر:

ابن زيدان، الإتحاف، ج5، ص77 و ص ص239-238.

ابن زيدان، العز والصولة في معالم نظم الدولة، ج2، المطبعة الملكية الرباط 1962-1382، ص ص215-214.

محمد الحجوي، اختصار الابتسام، مخطوط خ.ع.ر ضمن مجموع رقم ح 144، ص417.

25 - الناصري، الاستقصا، ج9، ص127.

26 - نعيمة التوزاني، الأمناء بالمغرب في عهد السلطان المولى الحسن 1894-1873، مطبعة فضالة، الرباط 1979، ص35.

27 - ابن زيدان، الإتحاف، ج3، ص563 و ص566.

28 - Miège (J.L)n op.cité, T III, p119.

فمثـلا، فقـد تم تجهـيز معمل السـكر بالجـوز بـآلات إنجليزية وأشرف عـلى إنجازه المهندس (جون كلاركسـون غي)[29]، وفي ميدان الأشـغال العمومية ورد على المغرب مهندسون أوربيون لخدمة الطرق والمراسـي[30]، أما في مجال إصـلاح الجيش، فقد اعتمد المولى محمد بن عبـد الرحمان على خدمات بعض العلـوج وأبرزهم (عبد الرحمان السـولتي Abderhman Desaulty)[31]، الذي سـيكون ابنه أحد أعضاء البعثة الطلابية الموجهة إلى مونبولييه[32]. وفي عهد السـلطان الحسـن الأول الـذي واصل أعمال الإصـلاح التي شرع فيها أبوه ازداد حجم الاسـتعانة بالخبراء الأجانب[33] وتمشيا مع سياسته الرامية إلى حفظ التوازن بين الدول الأوربية تجنبا للوقوع تحت هيمنة دولة واحدة[34].

عمـل الحسـن الأول على اسـتقدام خبراء ومدربـين من مختلف الأجناس حيث تم الاعتماد على مدربين عسـكريين فرنسـيين وإنجليز وتقنيـين إيطاليـين ومهندسـين ألمان لتدريـب جنوده عـلى العمليات العسـكرية الحديثة وتعويدهم على استعمال الأسـلحة المستوردة من أوربا وإصلاح الشواطئ وتحصين الثغور.

وكان طبيعيا أن تتسـابق الدول الأوربيـة نحو وضع خبرة أطرها رهن إشارة السلطان بغية كسب نفوذ داخل الجهاز الحاكم والحصول عـلى معلومات سياسـية من «المصادر الموثوق بهـا»، وذلك في نطاق التنافـس التقليدي للدول الأوربية داخل المغـرب، حيث كانت كل دولة تحرص جاهدة على الحصول على ما حظيت به غيرها[35].

---

29 - ابن زيدان، الإتحاف، ج3، ص ص560-563.

فرناند وبلديرا مام تينيث، خواكين غاثيل رحالة المغرب، دار الطباعة المغربية، تطوان، 1954، ص125.

30 - محمد أبو طالب، مرجع سابق، ص ص303-304.

31 - Charmes (Gabriel) , « Une Ambassade au Maroc », Paris 1887, p217.
CAILIE (Jaques) : « La véritable histoire de l'ingénieur Abder-Rahman Des aulty », in Hesperis, T.XXXVI, 3-4e trimestre Année 1949, p460.

32 - Martinière (Henri Bela) , « Souvenirs du Maroc, voyages et missions 1882-1918 », paris 1919, pp184-196.

33 - ابن زيدان، العز والصولة...، مرجع سابق، ج2، ص207.

34 - ألبير عياش، المغرب والاستعمار حصيلة السيطرة الفرنسية، ترجمة عبد القادر الشاوي، نور الدين سعودي، منشورات دار الخطابي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، أبريل 1985، ص64.

35 - ثريا برادة، الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر مساهمة في دراسة الإصلاحات العسكرية، أطروحة نيل دكتوراه السلك الثالث، الرباط 1984، خزانة كلية الآداب بالرباط، ص323.

هكذا بدأ توظيف بعض الخبراء الأوربيين بصفة شخصية وحسب عقدة مع المخزن خلال مدة معينة، كالبلجيكي (كرينار Grinard) الذي كلف بعمل القرطوس بمراكش، وتم الاتفاق مع البريطانيين (دونالد وماك هوك Donald et Mac Hugh) ليتكلفا بمدفعية طنجة، كما تم جلب خبير من جبر طارق وهو (إدوار سيلفيا Eduard Silvia) [36].

على أن الأمر لم يعد مقتصرا على الاعتماد على خبرات فردية فحسب، بل تعداه إلى استقدام بعثات عسكرية أوربية بكاملها بدأت تفد على المغرب، وكانت أول بعثة هي البعثة الفرنسية التي شكل مجيئها سنة 1877 [37] موضوع اعتراف من طرف ممثلي حكومات لندن ومدريد وبرلين، الذين حاولوا إقناع السلطان الحسن الأول بالتراجع عن قرار موافقته على مجيء هذه البعثة وخطورة أبعاد هذا الإجراء، مع سعيهم في ذات الوقت للحصول على نفس الامتياز [38] وفعلا قبل مجيء بعثات من دورهم حفاظا على توازن القوى الأوربية بالمغرب واستغلالا لتناقضات مصالحها.

والجدير بالإشارة أنه في الوقت الذي تمكنت كل الدول الأوربية من إرسال بعثات عسكرية، وحصلت على الاعتراف بها رسميا من طرف السلطان، تفيد إحدى الوثائق استغناء المخزن عن خدمات حراب كان قد قدم من مصر في بداية العهد الحسني. وإذا كانت الوثيقة لا تفصح عن أسباب هذا الاستغناء، فالراجح أن ذلك حدث بإيعاز من المستشارين الأجانب الذين كانوا يعملون على عرقلة أي تعاون بين المغرب والأقطار الإسلامية، وفي مقدمتها خديوية مصر والإمبراطورية العثمانية [39].

---

36 - Miège (J.L) op.cité, TIII pp 226-227.

37 - Erkman (Jules), op.cité, pp200-2001.
Miège (J.L), « Une Mission Française à Marrakech », p394.
Callie (J), « Quelques renseignements sur le capitaine ERKMAN » in Hesperis, tome XLI, année 1954, 3-4 trim, p468.

38 - Guillen (P), op-cité, p80.

39 - رسالة من الوزير محمد بن العربي الجامعي إلى الأمناء محمد بن المدني بنيس بتاريخ جمادى الأولى عام 1241/29 يونيو 1874 أوردتها مجلة الوثائق، مجموعة دورية تصدرها مديرية الوثائق الملكية بالرباط، الجزء 3، ص ص411-410.

واســتنادا إلى التقارير والمصادر الأجنبيــة ذاتها[40]، لم يعد خافيا الــدور الحقيقي الــذي كان منوطا بهــذه البعثات الــتي تحولت إلى «جماعات ضغط» داخــل الجهاز الحاكم «وطابــور خامس» حيث كان أعضاء كل بعثة يحرصون على جمع معلومات تخص الحالة السياسية والعسكرية التي تمر منها البلاد من جهة، وجمع معلومات تهم تحركات ونشــاط البعثات الأخرى لمعرفة مدى نفوذها لدى الســلطان من جهة ثانية، وتبعث حصيلة هذه المعلومات في شكل تقارير شهرية إلى وزارة الدفاع في بلادها[41].

وإدراكا مــن الســلطان الحســن الأول بمحدودية النتــائج التقنية لخدمات البعثات[42] وخطورة دورها الســياسي[43] ســعى بدون نتيجة إلى التخلــص من هذه البعثات والاســتغناء عن خدماتها[44]، وهو نفس الموقــف الذي ســيعبر عنه العلمــاء بإلحاح في وقــت لاحق رادا على المشروع الفرنسي الذي قدمه الســفير الفرنسي (سان روني طاينيدي St René Taillandier إلى الســلطان المــولى عبــد العزيــز أوائل ســنة 1905[45]، حيث ندد علماء فاس بسياســة استخدام المخزن لمستشارين أوربيين في قطاع الجيش والإدارة وطالبوا بإبعاد البعثات العســكرية الأوربية وتعويضها بخبراء مصريين وأتراك[46].

---

40 - يراجع على سبيل المثال:

Doutte (Edmon) : « Des moyens pour développer l'influence française au Maroc première partie, Analyse générale d'influence paris 1909.
Taillandier (S.R), « Les origines du Maroc Française 1901-1906, paris 1903.
Miège (J.L) op.cité, TIII pp233-234 et T.IV, pp 107-109.

41 - كنموذج لهذه التقارير.

42 - Frisch (R.J) : « Le Maroc, géographie-organisation politique Ernest le Roux , PARIX 1895 1895, p195.

ثريا برادة، مرجع سابق، ص216.

43 - ابن زيدان، العز والصولة، مرجع سابق، ج2، ص207.

LAHBABI (Moh), op-cité, p169.

44 - ابن زيدان، العز والصولة، مرجع سابق، ج2، ص207.

45 -France : « Documents Politiques-Affaires du Maroc, 1901-1905, vol.1.

46 - أنظر مضامين فتوى علماء فاس، ومما جاء فيها: "...في أي شيء نفعنا هؤلاء الأجانب، وما هي العلوم الجديدة التي علموها لنا، وما هي الفائدة التي استفدناها منهم، لقد صرفنا عليهم ثرواتنا وقد خدعونا ونشروا بيننا الفساد...".

Archives Marocains, Tome3, Année 1905, pp141-143.

وانظر أيضا: ادموك بورك، مرجع سابق، ص135.

وليس من شأننا تفصيل الحديث عن ملابسات مجيء هذه البعثات وتنافسها، والأبعاد الخطيرة التي ترتبت عن مثل هذا التدبير، إنما القصد من خلال هذه الوقفة القصيرة هو تقدير الدور الأجنبي كمصدر خارجي لفكرة إرسال البعثات التعليمية إلى أوربا.

لقد كان ممثلو الدول الأوربية يحرصون كل الحرص على عدم تفويت أية فرصة من شأنها أن تكسب لدولهم حظوة لدى السلطان، وتضمن ثقته بهدف تعزيز نفوذها داخل الأوساط المخزنية، وجمع الأخبار من مراكز التقرير[47].

وعليه نعثر في بعض الوثائق الأجنبية على معلومات تتعلق بالتدابير التي يعتزم السلطان القيام بها، حيث تتحدث بعض التقارير عما يروج في أوساط المخزن من أخبار تفيد رغبة السلطان في إرسال بعض الشبان المغاربة ليخضعوا لتكوين حديث في العلوم العسكرية والتقنية وغيرها بالمعاهد المتخصصة في الدول الأوربية، ففي أحد هذه التقارير يخبر الكومندار (فالوا Vallois) حكومته أن السلطان الحسن الأول عازم على إرسال شبان مغاربة إلى مدينة صيرن Seraing ومدينة لييج Kiège ببلجيكا ليتدربوا على صنع أنواع الأسلحة، وأن ابن بركاش الذي سيغادر المغرب في اتجاه أوربا هو الذي سيتكلف بمرافقتهم، وسيعودون بعد قضاء بضعة شهور ببلجيكا، ثم يضيف معلقا أن المخزن يعتقد أن هذه المدة التي يستغرقها تكوين هؤلاء المغاربة كافية لتجعل المغرب مكتفيا بذاته، وبالتالي مستغنيا عن اعتماده على أوربا[48].

وفي تقرير موال يؤكد أن عزم السلطان قد دخل حيز التطبيق وأن بعثة ثانية على أهبة السفر إلى بلجيكا، «...لقد غادر المغرب منذ بضعة أيام خمسون شابا كنت قد أشرت إلى عزم السلطان على إرسالهم إلى بلجيكا في تقرير السابق عن هذا، ويوجد هنا (يقصد مكناس) عشرون شابا على استعداد للتوجه إلى مدينة إيس كما يشاع»[49].

47 - Miège (J.L)n op.cité, T III, p233-234.

48 - من وثائق وزارة الحربية بفانسان.

A.G.V-Rapport du C. vallois, n° Meknès, le 1er Mai 1884, p5.

49 - من وثائق وزارة الحربية بفانسان.

A.G.V-Rapport du C. vallois, n° Meknès, le 10 Juin 1884, p3.

لقد كان من أخطر المهام التي أوكلت إلى هذه البعثاتمتابعة نشاط بعثات الدول الأخرى وعرقلة نشاطها لتحظى بمكانة ؤهلها لتوطيد علاقاتها بالمخزن أكثر من غيرها. من هنا نفهم ما تضمنته الوثائق الأجنبية من إشارات ومعلومات تخص مستوى علاقة لسلطان بهذه الدولة أو تلك، ودور بعض الشخصيات المخزنية في تفسيل الارتباط بهذه الدولة الأوربية عن غيرها. ففي تقرير رفع إلى وزرة الشؤون الخارجية ببلجيكا نقرأ ما يلي: «...إن سلطان المغرب قد طلب من الحكومة الإنجليزية الإذن بإرسال مائة من خيرة جنوده إى جبل طارق ليتدربوا هناك على الحركات الحديثة واستعمال الأسلحة وذلك بهدف أن يصبحوا بعد عودتهم مدربين في الجيش المغربي»[50].

وحول البعثة التي توجهت إلى ألمانيا، يتضح ن خلال ما أوردته بعض التقارير الفرنسية أن ابن سيدي محمدبركاش الذي كانت تربطه علاقات قوية بألمانيا لا يخفى على أحد، هو الذي كان وراء إقناع السلطان بإيفاد الطلبة المغاربة للدرسة بالمدرسة العسكريةببرلين[51].

لقد كان هدف أعضاء البعثات العسكرية من حرصهم الشديد على معرفة التدابير المزمع القيام بها من طرف السلطان، بتضمينها في تقاريرهم هو حث حكوماتهم أن تبادر بتقديم خدماتها حتى لا تترك الفرصة لدولة أخرى أن تقوي بواسطة هذه الخدمات ارتباطها بالمخزن وتكسبها امتيازات جديدة.

يؤكد ذلك ما جاء في بعض المصادر الأجنبية، فند كتب إدمون دوتي ما يلي: «إن مسألة تصدير الأسلحة إلى السلطان يجب أن تستأثر باهتمام ضباط البعثة، إننا لَمْ نَبِعْ إلا قليلا من العتاد الحربي بالقياس إلى ألمانيا وإيطاليا وإنجلترا، والتي لم تكن سلحتها في مستوى تقديم فكرة عالية عن النية الحسنة لأوربا اتجاه المغرب...»[52].

---

50 - من وثائق وزارة الخارجية البلجيكية بروكسيل.

A.E.B. Rapport dı 12-8-1877, Bruxelles.

51 - من وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، باريس.

A.E.P –C.P Maroc, N° 26 Rapport. Tanger le 8 juin 1884 vol 48.

A.E.P –C.P Maroc, N° 46 Rapport. Tanger le 3 Octobre 1884 vol 49.

52 - DOUTTE (Edmond), op-cité, p57.

بناء على مجموع الإشارات التي تأتى الإطلاع عليها في بعض التقارير الأجنبية، لا يستبعد أن بعض أعضاء البعثات العسكرية الأوربية، خصوصا أولئك الذين كانت تربطهم بالسلطان علاقات شخصية مباشرة، قد اقترحوا بعد علمهم برغبة السلطان في تكوين شبان مغاربة تكوينا حديثا على النمط الأوربي، أن تكون معاهد دولتهم هي المستضيفة لهؤلاء الشبان. ولعل في مثال البعثة الطلابية الموجهة إلى إنجلترا، والجنود الذين تدربوا بجبل طارق ما يرجح صحة هذا الاستنتاج، حيث تمدنا بعض الوثائق الإنجليزية بإفادات دالة على أثر هذه البعثات العسكرية الأجنبية والممثلين الأوربيين في تزكية رغبة السلطان ونصحه بمواصلة إيفاد مغاربة ليتخصصوا في مختلف الفنون الحربية والمدنية.

فمن المعلوم، أن القنصل البريطاني جان دريموند هاي كان من أكثر القناصلة الأوربيين احتكاكا بالمخزن على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان، ومن بعده الحسن الأول، وبمجرد ما تعرف على الأوساط المغربية وخصائص وضعية البلاد، أخذ يقدم الاقتراحات تلو الأخرى بخصوص إصلاح شؤون الجهاز المخزني[53]. إد أتيحت له الفرصة أن يعرض برنامجه الإصلاحي في عدة مناسبات، يهمنا منها اللقاء الذي جمعه مع السلطان الحسن الأول في مارس، أبريل عام 1875، ومن الأهمية أن نشير إلى أن القنصل البريطاني قد كان في لقائه هذا مرفوقا بثلاثة ضباط وثلاثة مهندسين عسكريين قدموا من جبل طارق، وذلك لشرح طريقة اشتغال آلتي لبث البرقيات كان قد حملهما معه كهدية من وزارة الحربية البريطانية إلى السلطان المغربي(54)، حيث تتحدث بعض المصادر الإنجليزية أن قرار السلطان بإرسال عدد من الجنود المغاربة النظاميين إلى جبل طارق للتدريب على الطريقة الإنجليزية جاء نتيجة إعجابه وتأثره البالغ بمظهر المهندسين العسكريين الثلاثة الذين رافقوا (هاي) خلال زيارته هاته[55].

وفعلا، تؤكد الوثائق المغربية من جهتها أنه بدأ الشروع في توجيه جنود مغاربة على دفعات، وكانت أولاها قد غادرت طنجة في 13 نوفمبر

53 - محمد أبو طالب، مواقف بريطانية من مغرب القرن التاسع عشر، ص300.

54 - ب.ر.روجرز، تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية في عام 1900، ص240.

55 - نفسه، ص ص244-243.

عام 1876 كان من أعضائها شاب راغب في تعلم الطب[56] كما سيأتي تفصيله فيما بعد.

أما بخصوص البعثة الطلابية التي قصدت الديار الإنجليزية، فيستنتج أيضا من بعض الوثائق الإنجليزية ما يؤكد دور الحضور الأجنبي في الدفع بهذه المبادرة، ذلك أنه لما علم القنصل البريطاني من بعض الشخصيات المخزنية أن السلطان عازم على تحديث جيشه باتخاذ جملة من الإجراءات على رأسها إرسال طلبة مغاربة لتعلم الفنون العسكرية الحديثة[57]، بادر هذا الأخير ببعث رسالة (15 يونيو 1875) إلى وزير الخارجية البريطانية (اللورد دربي) يخبره فيها بعزم السلطان على إرسال ثلاثة من الشبان المغاربة للدراسة في ساندهرست والأكاديمية العسكرية في ولويش[58]. وكان طبيعيا أن يأتي رد الوزير إيجابيا حيث عبر في رسالته الجوابية على (هاي) عن استعداد إنجلترا لاستقبال البعثة الطلابية بكل ترحيب[59].

يتضح مما سبق، أن الدور الأجنبي وإن لم يكن وراء خلق هذه المبادرة، فقد عمل على محاولة تبنيها، لذا ليس صدفة أن تتوجه البعثات التعليمية إلى كل الدول الأوربية التي كانت ممثلة في المغرب بقناصل وخبراء وبعثات عسكرية، وبالتالي فإن تنويع معاهد تكوين الطلبة المغاربة من إنجليزية وإيطالية وفرنسية وألمانية وبلجيكية وإسبانية، جاء نتيجة لتنافس الدول الأوربية حول كسب صداقة السلطان وثقته، بالتسابق نحو وضع خبراتها وخدماتها رهن إشارته من جهة، وتماشيا مع سياسته الرامية إلى حفظ التوازن بين القوى الأجنبية بالمغرب[60]، واستغلال هذا التنافس بما يخدم مصلحة البلاد من جهة ثانية.

وتبقى الإشارة أخيرا إلى أن فكرة إرسال البعثات إلى البلدان الأوربية قصد اكتساب الخبرة العلمية والعسكرية كان من أهدافها المركزية توفير أطر مغربية بديلة للأطر الأجنبية التي كانت تمارس الوظائف الحيوية في البلاد، ومن بينها أعضاء البعثات العسكرية

---

56 - نفسه، ص. ص. 244-243.

57 - ب.ر.روجرز، مرجع سابق، ص242 وص248.

58 - نفسه، ص243.

59 - نفسه، ص243.

60 -Miège, op.cité, T.III, p221.

الأوربية، خصوصا إذا علمنا أن السلطان الحسن الأول كان قد قبل على مضض مجيء هذه البعثات[61].

كما يلاحظ أن مواصلة إيفاد البعثات الطلابية واكبت جهود السلطان ومحاولاته الساعية إلى التخلص من البعثات الأجنبية حيث ظل إلى حدود وفاته يطالب بسحبها[62].

## 2) أثر تجربة محمد علي بمصر

ما تزال التجربة الإصلاحية التي قادها محمد علي في مصر[63]، تشد اهتمام المفكرين من مختلف التخصصات والتوجهات العلمية والإيديولوجية، تمثل من منظور كل منهم ما يتغنى به، فجاءت تقويمات هذه التجربة متباينة بل ومتعارضة أحيانا إلى حد كبير، وليس من موضوعنا المساهمة بوجهة نظر حول هذه التجربة، وإنما اقتضى مسار البحث عن بواعث ومنشأ فكرة إرسال البعثات الطلابية على عهد السلطان الحسن الأول، ضرورة تخصيص وقفة للتأكد حول مدى صحة أو خطأ افتراض تجربة محمد علي كمصدر فاعل في خلق هذه المبادرة الإصلاحية[64].

ولعل ما يبرز مشروعية طرح هذا الافتراض هو ما كان لإصلاحات محمد علي من أثر بين على ظهور أو دعم العديد من الحركات الإصلاحية هنا وهناك عبر أنحاء العالم الإسلامي، فهل كان السلطان الحسن

---

61 - Guillén (P), op.cité, p80.

62 - ابن زيدان، العز والصولة، مرجع سابق، ج2، ص. ص210-209.
- ابن زيدان، الإتحاف، مرجع سابق، ج2، ص 494.
DOUTTE (Ed), op.cité, p55.

63 - راجع على سبيل المثال لا الحصر:
-عبد الرحمان الرافعي، عصر محمد علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1951.
-ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة 1939-1789، دار النهار للنشر، الطبعة الثالثة، بيروت 1977.
-أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم في عصر محمد علي دار النهضة المصرية، القاهرة 1937.

64 -أنظر ما كتبه د. معن زيادة عن إشعاعات التجربة المصرية في بلاد الشام وتونس.
-معن زيادة، معالم على طريق تحديث الفكر العربي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، يوليو 1987، ص173 وما بعدها.
وقد كتب أحد المهتمين بموضوع الإصلاحات في تونس في القرن 19 معلقا على إصلاحات أحمد باي (-1837 1855) ما يلي: "...إذا ما تساءلنا عن أسباب إصلاحات أحمد باي بتونس وجدنا أن مصدرها مزدوج فهي من ناحية تقليد لما أنجزه محمد علي بمصر ومحمود الثاني بتركيا ومن ناحية أخرى رد فعل عن الأخطار التي أخذت تحدق بالبلاد التونسية مع الوضع الجديد التي أحدثته قفزة أوربا إلى الأمام". محمد الهادي الشريف، مشكلة الإصلاحات بتونس.

الأول على علم بإصلاحات محمد علي التي كان من أبرز معالمها إيفاد مجموعة من الشبان المصريين من مختلف البيئات العلمية ومن مختلف الأعمار إلى دول أوربا ليتخصصوا في مختلف الفنون الحربية والمدنية والطبية والصناعية[65]. وإلى أي حد يمكن اعتبار إقدام الحسن الأول على خطوة مماثلة تقليدا أو استرشادا بمبادرة محمد علي؟

لقد ذهب أكثر من باحث إلى أن المغرب كان إلى حدود أواسط القرن التاسع عشر منغلقا في وجه التيارات الفكرية والحضارية الخارجية[66]، يعيش في عزلة تامة[67] فرضها على نفسه تحت ضغط عدة عوامل كان في مقدمتها حرصه الشديد على المحافظة على استقلاله. وإذا كانت سياسة الاحتراز والحذر الشديد لم تفلح في إيقاف الخطوات الأولى للتغلغل الاستعماري[68]، فإنها حالت دون مواكبة التطورات الجارية في العالم الأوربي والإفادة من علومه وتجاربه[69]، على أن المغرب -في نظر بعض الدارسين- لم يكن منعزلا؛ فحسب؛ عن أوربا التي كانت مناوراتها ومطامحها الاستعمارية غير خافية، بل كل منعزلا أيضا عن الشرق العربي الإسلامي الذي كان يشهد وقتئذ بدايات النهضة المتمثلة في بروز بعض الدعوات والحركات الإصلاحية المتباينة الاتجاهات، لقد كان المغرب «بعيدا

---

65 - أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم في عصر محمد علي، ص423.

Iskandar Assabghy : « Les Missions Scolaires au temps de Mohamed Aly, in revue des conférences Françaises en Orient, publication Mensuelle, n° 11, 9ème année, Novembre 1945, le Caire Egypte, pp651-660.

66 - كتب ليفي بروفنصال بصدد هذه العزلة ما يلي: "أن الظروف التاريخية منذ القرن السادس عشر جعلت المغرب ينغلق داخل حدود مقفلة تماما فأوقف المؤرخون وأدباؤه بدورهم نظرهم عليها ولم يتجاوزها".

ليفي بروفنصال، مؤرخو الشرفاء، تعريب عبد القادر الخلادي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1397/1977، ص277.

67 - محمد الأخضر، الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، ص464.

LUDOVIC( Decampou), op-cité, p4.

68 - تتحدث بعض المصادر المغربية عن شعور المغاربة بنوع من القلق اتجاه تصاعد نشاط الأساطيل الأوربية بالمغرب، فالضعيف ينقل لنا أن سكان الشمال أبدوا قلقهم من هذا النشاط وطالبوا علماء فاس بالتدخل لدى السلطان ليسمح لهم بحمل السلاح وشراء البارود.

محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة) تحقيق وتعليق وتقديم الأستاذ أحمد العماري، نشر دار المأثورات، الطبعة الأولى، الرباط 1406/1986، ص313.

69 - محمد زنيبر،الفكر المغربي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، ص ص 323-321.

وأنظر أيضا بصدد هذه النقطة حوار أجرته مجلة الزمان المغربي مع العلامة محمد المنوني تحت عنوان "من الذاكرة إلى التاريخ ومن التراث إلى الحداثة"، العدد7-6، السنة الثالثة ربيع 81، ص ص133-125.

عن كل تيار فكري جديد في حين أن غيره من البلاد العربية ولاسيما الشرقية لمصر والشام والعراق كانت تشهد قيام حركة علمية وأدبية نشيطة تقدح زندها أولا محمد علي في مصر وثانيا البعثات العلمية الأجنبية التي أمت هذه البلاد وأسست فيها مدارس عصرية من مختلف المستويات...»[70].

ولعل من شأن الرجوع إلى بعض الوثائق والمصادر أن يخفف من حدة الأحكام التي يذهب إليها هؤلاء بخصوص عزلة المغرب خلال هذه الفترة[71]، ذلك أن العلاقات الدبلوماسية والمبادلات التجارية ظلت قائمة وإن شهدت نوعا من التراجع[72]، كما أن قنوات التواصل مع بلاد المشرق العربي بقيت ممتدة، ولاسيما من خلال الرحلات الحجية التي لعبت دورا أساسيا في استمرارية الروابط الثقافية والروحية بين مشرق العالم الإسلامي ومغربه[73] ومعلوم أن مصر كانت من أهم الأقطار التي يمر عبرها ركب الحاج المغربي.

فالمغرب لم يكن منطويا على نفسه تماما، غير أن الذي يجب تسجيله بهذا الشأن أن المؤثرات الخارجية المتسربة عبر هذه القنوات كانت محدودة وغير قادرة على تغيير الإيديولوجية التقليدية(74)، في هذا السياق، نرى من المناسب التساؤل حول ما إذا كانت أصداء إصلاحات محمد علي في مصر قد وصلت أوساط المخزن والنخبة المغربية، وكيف تقبلت هذه الأوساط تلك الأصداء.

---

70 - عبد الله كنون، أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، دار الثقافة، الطبعة الثانية، الدار البيضاء، 1978، ص26.

71 - محمد المنوني، نماذج من تفتح مغرب القرن التاسع عشر على معطيات نهضة أوربا والشرق الإسلامي، ضمن ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن 19، ص200.

LAROUI 5Abdc), op.cité, p205.

72 - عن هذه العلاقات أنظر على سبيل المثال:

عبد الهادي التازي، الموجز في تاريخ العلاقات الدولية للمملكة المغربية، مطبعة المتعارف الجديدة، الطبعة الأولى، الجديدة 1984، ص102 وما بعدها.

BAYSSIERE (N) : « Histoire du Maroc », Librairie Hatier, Paris, p65.

73 - إبراهيم حركات، التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية، مطبعة الدار البيضاء، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 1985، ص25 و ص208.

FOUCAULD (Charles-Eugène de) :

« Reconnaissance au Maroc 1883-1884, Challamel, paris, 1888, p110 et p121.

74 -LAROUI (Abd), op.cité, p219.

إن المعلومات المتوفرة لا تفي بجواب شاف حول هذه المسألة فنصوص الرحلات الحجازية التي يمكن اعتمادها كمصدر أولي[75]، بخصوص هذا الموضوع، نجدها خالية من أي ذكر أو إشارات لما تعرفه مصر من إصلاحات سواء بصيغة الإيجاب أو السلب[76]، فكيف يمكن تفسير هذا السكوت، خصوصا وأن كتاب الرحلات كانوا عادة ما يضمنوها معلومات غنية تصف أحوال الشرق من النواحي الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية؟

لا شك أن ذلك راجع إلى انقطاع ركب الحاج المغربي أربع سنوات[77] بفعل ما خلفه الغزو الفرنسي لمصر من أثر سيء في نفوس المغاربة من جهة، ومن جهة ثانية فإن مصر التي كان يقيم بها العلماء المغاربة مدة قد تمتد شهورا أو أعواما، وقد يصبح مقامهم بها نهائيا[78]، لم تعد محطة أساسية في طريق الموكب الحجي وذلك لفقدان الطريق البري أهميته السابقة بعد أن أرست فرنسا نفوذها بالجزائر، وتعويضه بطريق بحري ينطلق من المرافئ المغربية عوض فاس أو سجلماسة كما كان سابق[79]، وأصبح يمر عن جبل طارق وبور سعيد ثم جدة، كما أن الشرق الذي يقصده المغاربة وقتذاك، كان يمر بظرفية تحول، ولا شك أن هذه التحولات كان لها أثرها في تراجع الروابط بين المغرب ومصر على المستوى الثقافي[80].

75 - عن أهمية الرحلات الحجازية كمصدر للتاريخ أنظر محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط 1983.
عبد الرحمان الموذن، الرحلة الحجية مصدرا من مصادر التاريخ الاجتماعي المغربي، نص المداخلة التي ساهم بها في ندوة "في النهضة والتراكم"، دار توبقال للنشر، مطبعة فضالة الطبعة الأولى، المحمدية 1986 ص ص 308-299.

76 - من الرحلات التي صادف قيام مدونوها بمصر عهد محمد علي أو السنوات التي أعقبته، ولم تورد أية إشارة عن أعماله وإصلاحاته نذكر منها على الخصوص:
* أحمد بن طوير الجنة الواداني، رحلة المنى والمنة، وقد استغرقت رحلته خمس سنوات (1250-1245هـ/1834-1829) وعن هذه الرحلة أنظر:
*محمد بن عبد الله بن مبارك العمري، رحلة الغيغائي، خ.ع.ر رقم ج 98.

77 - محمد المنصور، الحركة الوهابية وردود الفعل المغربية عند بداية القرن التاسع عشر، ضمن ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن 19، ص177.

78 - إبراهيم حركات، مرجع سابق، ص27.

79 - محمد المنوني، ركب الحاج المغربي، نشر معهد مولاي الحسن، تطوان 1953، ص41.

80 - LAROUI (Abd), op.cité, p213.

إلا أن استنطاق مضان أخرى أتاح إمكانية الوقوف على بعض الإشارات المتفرقة هي بمثابة شهادات دالة على أن أصداء إصلاحات محمد علي كانت قد بدأت تتردد في المغرب قبيل تولي الحسن الأول زمام السلطة بالبلاد، وأولى هذه الشهادات نجدها في وثيقة موجهة إلى السلطان عبد الرحمان بن هشان تنهض دليلا على وجود نوع من الروابط بينه وبين محمد علي، حيث تتحدث هذه الوثيقة عن تبادل الهدايا بينهما، والملفت أن هدية محمد علي كانت عبارة عن خمسة وثلاثين كتابا تعالج موضوع الفنون العسكرية أي «كتوب النظام» كما جاء في الوثيقة[81].

وثمة شهادة أخرى تضمنتها رحلة الصفار[82] حيث أورد في معرض وصفه لوقائع مشاركة الوفد الدبلوماسي المغربي في احتفالات الحكومة الفرنسية بفاتح السنة الجديدة (1846) إشارة تتعلق ببعثة طلابية تضم ستين فردا، أرسلها محمد علي إلى فرنسا لتعلم العلوم الحديثة بمعاهدها[83].

وتحتفظ الخزانة الحسنية بنسخة لمخطوط مجهول المؤلف تحت عنوان «الابتسام عن دولة ابن هشام»(84)، والذي لخصه محمد الحجوي بعنوان «اختصار الابتسام»[85]، ولهذا المخطوط أهمية بالغة بخصوص ما نحن بصدد إبرازه، إذ يعتبر المصدر المغربي الوحيد[86] الذي نقل للأوساط المغربية معلومات دقيقة ومستفيضة عن أعمال محمد علي وإصلاحاته التي عاينها بالديار المصرية، فضلا عن أن مؤلفه عمل كاتبا في البلاط الرحماني طوال مدة تسع سنوات مع الوزير أبي عبد الله محمد بن إدريس العمراوي[87]، وزير السلطان مولاي عبد

81 - رسالة من محمد الرزيني إلى السلطان عبد الرحمان بن هشام بتاريخ 10 ربيع 1264، أوردها ابن زيدان في الإتحاف، ج5، ص ص155-154.

82 - محمد بن عبد الله الصفار، مصدر سابق.

83 - نقلا عن محمد داوود، تاريخ تطوان، ج3، ص307.

84 - مخطوط خ.ح.ر، رقم ز 12490.

85 - محمد الحجوي، اختصار الابتسام، مخطوط خ.ع.ر رقم ح 144 ضمن مجموع.

86 - نستثني هنا-حسب علمنا- تاريخ الضعيف الذي اكتفى صاحبه بالحديث عن حروب محمد علي وأساسا حملته ضد الوهابيين، حيث ينقل لنا أطوار المواجهة العسكرية بين الوالي محمد علي والوهابيين بصورة يبدو معها المؤلف منحازا للوهابيين أنظر، محمد الضعيف، تاريخ الضعيف، تحقيق وتقديم وتعليق أحمد العماري، ص364 و ص378.

87 - محمد الحجوي، اختصار الابتسام، ص 355 و ص373.

الرحمان، مما يعني أن الآراء التي أدلى بها قد تكون دالة على مواقف بعض الأطراف المخزنية أو بعض خاصة فاس[88].

ويستشف من مضامين المخطوط، أن صاحبه كان متفتحا ومعجبا بالتنظيمات الأوربية الحديثة، لذا نجده لا يتردد في التعبير عن اقتراحاته صراحة على المخزن باقتباسها، ويتأسف لجهل المغاربة بهذه التنظيمات وتمسكهم بالتقاليد الموروثة واستلهامهم أمجاد الأجداد، حسبما يفيده قوله التالي: «...فإن الكل سار على منهج الانكشارية وهو نظام فسد ولم يعد صالحا. فعاد بالفوضى والوبال وكان يجب على المولى سليمان أو ينتبه لما فعله السلطان محمود بجيش الانكشارية، وإبداله بنظام أوربي حديث (...) ثم يدخل النظام تدريجيا وبلطف، ولكن جهل المغرب بأحوال غيره واكتفاؤه بالقديم وقناعته بما يسد الرمق واتكاله على المجد القديم هو الذي أود به للهلاك...»[89].

لقد صادف مقامه بمصر مرحلة إصلاحات محمد علي وما استحدثه من تنظيمات مقتبسة من أوربا، فخصص لها صفحات طويلة يصف فيها جزيئاتها، ويشيد بنتائجها الإيجابية، وقد حرص على وصف كل الميادين التي همتها هذه الإصلاحات وصفا دقيقا ينم عن رغبة في أن يباشر السلطان المغربي مثلها، فعن الإصلاحات التي مست الميدان العسكري يذكر «...ومن أعماله العظمى تنظيمه للجيش نظاما أوربيا يفوق ملوك الإسلام كلهم حتى ملوك الترك لذلك النظام، وبه أحرز النصر في الحجاز والشام وغيرهما أينما توجه برا وبحرا، كما أنه أنشأ أسطولا حربيا...»[90].

وإذا كان إيفاد بعثات طلابية إلى أوربا بهدف استيعاب فنون الحرب وتحصيل العلوم الحديثة قد شكل إحدى ركائز ومعالم نهضة محمد علي، فإن مؤلف الابتسام لم يفته أن يتحدث عن هذا الإجراء بإطراء وتزكية واضحة، إذ ينقل لنا ما يلي «...كما بعث رجالا من أهل العلم لأوربا يتعلمون الطب والهندسة والحساب وعلوم البوصلة وصناعة المجانات وغير ذلك وأجرى لهم مونة لعيالهم....»[91].

---

88 - عبد الرحمان المؤذن، بعض المواقف المغربية من المستجدات التقنية المغربية في القرن التاسع عشر، ضمن ندوة الأصلاح والمجتمع المغربي في القرن 19، ص369.

89 - محمد الحجوي، مصدر سابق، ص360.

90 - نفسه، ص ص371-370.

91 - نفسه، ص 373.

فلا شك، أن وصفا بمثل هذه اللهجة الإيجابية يوحي بالتبني والرغبة في تقليد التجربة المصرية، وهو ذات الاستنتاج الذي أكده محمد الحجوي معلقا على أوصاف صاحب الابتسام بقوله «...عجبا لرجل أراد أن يؤرخ أيام المولى سليمان فملأ تاريخه بأعمال محمد علي بمصر في المغرب والرجل كان كاتبا بدار المخزن ولكن لما لم يجد أمثال هذه النهضة المؤسسة بمصر في المغرب ملأ تاريخه بأعمال باشا مصر موعظة وذكرى واستنهاضا لهمم ملوكنا...»[92].

ويضيف الحجوي في تعليقه ما يفيد أن اقتباس بعض معالم نهضة محمد علي والأخذ بأسبابها قد حدث فعلا بعد تولي الحسن الأول سلطة البلاد، يؤكد ذلك قوله «...كيف بملوك المغرب شاهدوا على مصر من خدامهم هذه الأعمال، بل وأولادهم الذين كانوا يذهبون إلى الحج[93]، ولم ينهضوا لمثلها ولا عملوا منها شيئا وبقي المغرب في جموده هذا لمدة طويلة (...) لغاية أيام المولى الحسن الذي أدخل نوعا من النظام عليه...»[94].

إن مخطوط الابتسام بما تضمنه من آراء ومواقف منفتحة على المخترعات الحديثة التي عاينها مؤلفه بمصر، وباعتباره أحد كتاب البلاط المخزني يجعلنا لا نستبعد أن يكون من النصوص الأولى التي دعت الأوساط المخزنية إلى ضرورة الاستفادة من هذه التنظيمات[95]، والاقتداء بتجربة محمد علي.

وإلى جانب هذه المصادر تتحدث بعض الدراسات المعاصرة عما كان لإصلاحات محمد علي من أثر لا يقل أهمية عن أثر الأوضاع المستجدة التي اقتضت ضرورة الإصلاح. فالمؤرخ عبد الله العروي يرى أن إقدام المخزن على تنظيم القوات المغربية وتدريبها على النمط الأوربي لم يكن وليد مخلفات هزيمتي إيسلي وتطوان فحسب بل كان

92 - محمد الحجوي، اختصار الابتسام، مصدر سابق، ص 373.

93 - من المفيد هنا الإشارة إلى أن السلطان عبد الرحمان بن هشام أوفد وَلَدَيْهِ سليمان والرشيد للحج سنة 1265هـ/1848م، وسافرا على متن باخرة إنجليزية مصحوبان بهدية إلى عباس باشا أمير مصر، فاستضافهما وعرضا عليهما زيارة المعامل والأبنية الحديثة التي أقامها محمد علي. أنظر:
- ابن زيدان، الاتحاف، مرجع سابق، ج5، ص154.

94 - محمد الحجوي، مصدر سابق، ص373.

95 - عبد الرحمان المؤذن، مرجع سابق، ص370.

أيضـــا بتأثير من حركـــة الإصلاحات التي عرفها المـــشرق. فقد كتب دريمونـــد هاي قبل ذلك، إلى الوزير ابـــن إدريس يصف له المجهودات التحديثيـــة التي قـــام بها محمود الثـــاني في تركيا، ومحمد علي في مـــصر، كما أن بعض الحجاج المغاربة العائدين من بلاد المشرق كانوا يتحدثون عن الإصلاح الجديد، فهزيمة إيسلي -في رأي العروي- جاءت لتقنع المرتدين في إدخال الإصلاحات[96].

وقريبا من هـــذا الرأي يعبر عنه أحد الباحثـــين المغاربة مؤكدا أن الوضع الجديد الذي أصبح يعيشـــه المغرب وقتـــذاك، وتزايد الأخطار التي أخذت تحدق بالبلاد جعل بعض العلماء والمفكرين المغاربة مقتنعين أن الخطـــاب الإصلاحي التقليدي لم يعد بمقدوره وحده مواجهة ظرفية التأخر التاريخـــي، لذا بدأت تروج في أوســـاط النخبة بعض الأفكار والآراء الداعية إلى «اقتبـــاس الإصلاحات عن الغرب والأخذ بمحاولة محمد علي في مصر»[97].

أيضا من القرائن التي تثبت أن الســـلطان الحسن الأول كان على عـــلم بتجربة محمد علي، هو ما تكشـــفه بعض التقاريـــر الأجنبية عن اقتراحات بعض الممثلين الأجانب على السلطان محمد بن عبد الرحمان ومن بعده الحســـن الأول، أن يحذوا حـــذو محمد علي في مصر فلقد «نصـــح» دريموند هاي الســـلطان محمد الرابع في آخر لقاءاته ســـنة 1873 بقولـــه: «كونوا مثل الســـلطان محمد الثـــاني أو محمد علي حيث السيف في يد، ورمز العدل في اليد الأخرى»[98].

كمـــا تتحدث بعـــض التقاريـــر الأجنبية أن القنصـــل الألماني كان قد اقترح على الحســـن الأول أن يشرع في تنظـــيم قواته على النمط الأوربي، وجلب تقنيين وخبراء ألمـــان لتدريب هذه القوات وتكوين أطر مغربية بما فعله محمد علي في مصر[99].

---

96 - LAROUI (Abd), op-cité, pp 272-273.

97 - محمد زنيبر، هل هناك مصادر داخلية للإصلاح، ص ص353-351.

98 أورده العروي LAROUI (Abd), op-cité, p260.

99 - من وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، باريس

R.E.P ; C.P. Maroc Rapport : « Tanher 1 novembre 1874, vol 39.

من كل ما تقدم، يتبين أنه من الصعب التسليم بأن خطوة الحسن الأول بإيفاد بعثات تعليمية إلى أوربا جاءت كتقليد مطابق لما أقدم عليه محمد علي من قبله، غير أن الشهادات التي تم الوقوف عليها في مصادر متنوعة مغربية وأجنبية تفيد أن أصداء إصلاحات محمد علي، ومن أبرزها البعثات الطلابية كانت قد وصلت المغرب قبل بداية بلورة الأفكار الإصلاحية، وأن بعض الأوساط الفكرية والمخزنية[100] لم تكن تجهلها، وبالتالي يحق اعتبار تجربة البعثات المشرقية كمصدر فاعل ساهم في بروز فكرة البعثات في المغرب.



100 - أشار العروي نقلا عن مصادر أجنبية أن الوزير ابن ادريس كان يمتلك نسخة من "تلخيص الإبريز في تخليص باريز" لرفاعة الطهطاوي.

LAROUI (Abd), op-cité, p215.

ومعلوم أن الطهطاوي كان من أعضاء البعثة الطلابية الأولى التي أرسلها محمد علي إلى فرنسا سنة 1826 وعاد سنة 1831. أنظر: أحمد عزت عبد الكريم، «تاريخ التعليم في عصر محمد علي»، ص438.

# الباب الثاني

# البعثات التعليمية إلى الخارج

# الفصل الأول

# الجوانب التنظيمية والعلنية

## 1) الإجراءات الإعدادية:

أوضحت أغلب الأبحاث التي عالجت موضوع الحياة الفكرية بمغرب القرن التاسع عشر، أنها كانت تتسم بصفات الجمود والتقليد والاجترار، وأن النظام التعليمي لم يطله أي تغيير في مناهجه أو تجديد في مضامينه منذ ثلاثة قرون، إذ كانت البنية الفكرية جزءا من بنية عامة موسومة هي الأخرى بالضعف والتأخر[1]، لقد وصف أحد مؤرخي الأدب المغربي سمات الوضع الثقافي وقتذاك بقوله «...إن الحياة الفكرية والأدبية بقيت على حالها من تمثل الماضي واقتذاء حذوه سواء في المادة والقالب في المعنى أو الأسلوب، المؤلفون يضعون تأليفهم على غرار الذين من قبلهم والأدباء يصوغون أدبهم نفس الصياغة التي توارثوها عمن تقدمهم والإنتاج في الواقع كثير (...) ولكن عنصر التجديد وروح الابتكار كانا يعوزان هذه الأعمال، نعم كان هناك مؤلفون وأدباء لكن صلتهم بأهل العصور الخالية أقوى من صلتهم بأهل العصر الذين يعيشون فيه، فنتاجهم يعد من صميم الإنتاج القديم لا فرق بينه وبين ما وضع قبل ثلاثة قرون...»[2].

أما المواد التي كانت تدرس بالمؤسسات التعليمية وفي مقدمتها جامعة القرويين، فقد بقيت في الغالب ذات طابع ديني محض، محصورة في دائرة العلوم الشرعية والدينية، حيث كان الاهتمام منصبا بالأساس على تدريس الفقه والحديث والأصول والتفسير واللغة وما إلى ذلك، ومعلوم أن هذه العلوم كانت تؤهل محصليها لممارسة أهم الوظائف

---

1 - للمزيد من التفاصيل راجع الفصل المتعلق بالثقافة والإيديولوجية في القرن التاسع عشر من كتاب العروي.
LAROUI (Abdel), op.cité, pp191-205.

2 - عبد الله كنون، أحاديث في الأدب المغربي الحديث، صص28-25.

السائدة آنذاك كوظيفة التدريس والقضاء والكتابة، هذا بينما نجد المواد العلميــة التي كانت تدرس بجامعة القرويين في ماضيها الزاهر كالفلك والتوقيت والهندســة والجغرافيا قد سجلت تراجعا ملحوظا وأمســت دراســتها سطحية لا تعدو أن تكون وسيلة لفهم المسائل الدينية، بل لم تعد لبعض هذه المواد مكانة في البرنامج الرسمي لهذه المؤسسة[3].

ضمن هذا الإطار الفكري الموسوم بالتقليد، تتحدث بعض المصادر عن محاولات للتجديد تجلت في قيام حركة اســتهدفت تنشــيط دراسة العلوم الرياضية والعســكرية، وإضفاء الطابع الحديث على تعليمها[4]. وقد كان الســلطان محمد الرابع من أبرز الشخصيات المســاهمة في خلق هذه الحركة منذ أيام خلافته، حيث اشتهر بشغفه بالعلوم التجريبية والنقلية[5]، وكان «متشــوقا لعلم الهندســة والتنجيم والهيئة»[6] وساهم بنصيب وافر في بعث هذه العلوم، وتشجيع تدريسها ونشر كتبها، كما تذكــر عنه المصادر: «...واحيا ما اندثر بالمغرب من العلوم كالحســاب والتعديل والهندسة والنجوم، واخترع العسكر النظامي السعيد..»[7].

لقــد كان اهتمام الســلطان بهــذه العلــوم وليد قناعــة بأهميتها وضرورتها لضمان تكوين أطر عسكرية ومدنية يطعم بها أجهزة المخزن العتيقــة التي لم تعد قادرة على مســايرة الأوضاع المســتجدة، لهذا الغرض بالذات نجده يختار مدرســة جوار القصر الســلطاني بفاس كمؤسســة متخصصة في تعليم ثلة من الطلبة علوم الهندسة والحساب والتوقيت والهيئة والتنجيم[8]، تحت إشراف عدد من الأســاتذة الفلكيين

---

3 - كثيرة هي الدراسات التي استقيناها منها هذه الإفادات أنظر:

Perite (P) : « Les Medresas de Fès, i, Archives Marocains, vol.XVIII Année 1912, pp 257-232.
LAROUI (Abdel), op.cité, pp197-198.

4 - محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، ج1، ص135.

5 - محمد بن الأعرج السليماني، زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ"، ج2 خ.ع.ر رقم د3657، ص341.

6 - محمد المشرفي، الحلل البهية، ص221.

7 - أحمد بن المواز، المقالة المرضية في الدولة العلوية والتسول بالنسب الطاهر للعلي القادر، مخطوط خ.ح.ر رقم 493، ص25.

8 - ابن زيدان، "الإتحاف، ج3، ص367.
محمد الأعرج السليماني، مصدر سابق، ص341.
ويتضح من سجل نفقات مخزنية بالخزانة الحسنية رقم 331 يحمل عنوان: "بيان الداخل والخارج على أمناء السائر بدار عديل"، أن هذه المدرسة ظلت قائمة إلى حدود سنة (1297-1296هـ)، إذ نجد ضمن ما عدده من صوائر ونفقات متنوعة ذكر مصاريف طلبة الهندسة صفحات 10-9-4-3.

والحيسـوبيين نذكـر منهم على سـبيل المثال أبا العبـاس الصويري وإدريس البلغيثي[9].

ولا شـك أن هـذه المدرية والدور الإعدادي الـذي كان منوطا بها، هو ما قصدته الإشـارة الواردة في رسالة سـلطانية بخصوص بعثة كانت بصدد التوجه إلى مصر سـنة (1283هـ/1866م) لدراسـة الفنون العسـكرية[10] حيث جاء في الرسـالة «...فاقتضى نظرنا تعيين ثلاثين من الأولاد الصغار النجبـاء، وتربيتهم بحضرتنا الشريفة في تعلم ما لا بد منه من مقدمات ذلك من حسـاب وتوقيت وهندسة وشبه ذلك، ثم نوجههم بعد لمصر...»[11].

لقد كانت هذه المدرسـة «الإدارية» كما اصطلح عليها أحد الباحثين المغاربة[12] بمثابة مؤسسـة إعدادية، حيث أرسـل عـدد من خريجيها بصفتهـم «مهندسـين» في بعثات طلابيـة لإتمام وتعميق دراسـتهم بالمعاهـد الأوربية كالفقيه أبي عبد الله محمد الجباص وأبي عبد الله محمد العلمي وآخرين قصدوا فرنسا وألمانيا وإنجلترا[13].

وإذا كانت المصادر المغربية تقتصر على ذكر مدرسـة المهندسـين بفاس في عهد السلطان محمد الرابع كمركز لإعداد طلبة البعثات، فإن (ميبيج) أورد في دراسته إشـارة تفيد أن عناصر أخرى تقدر بخمسين طالبـا يحملـون أيضا لقب مهندس ألحقوا بفرقـة المدفعية التي كانت تشرف على تدريبها البعثة العسـكرية الفرنسية بقيادة جول ايركمان Jules Erkman[14]، وأضـاف أن هـؤلاء خضعوا لتكويـن إعدادي في مدارس متخصصة أسـسها السـلطان محمد الرابع في بعض المدن كالصويرة وآسفي، وبعد إخضاعهم لتكوين إعدادي بهذه المؤسسات تم

---

9 -PEREITE (A), op.cité, p285.

راجع ما كتبه المنوني حول وظيفة هذه المدرسة وأساتذتها في مظاهر يقظة المغرب الحديث، ج1، ص ص146-143.

10 - نفسه، ص157.

11 - رسالة من السلطان الحسن الأول إلى عامل سلا الحاج محمد بن سعيد السلاوي بتاريخ 5 حجة الحرام 1283، من وثائق أسرة آل بن سعيد بسلا، أوردها المنوني: صص158-157.

12 -LAHBABI (M) : « Le gouvernement Marocain..., », p135.

13 - ابن زيدان، الإتحاف، ج3، ص367.

محمد الأعرج السليماني، مصدر سابق، ص341.

14 - ERKMAN (Jules), op.cité, p230.

إيفادهم سنة 1882 إلى بعض المعاهد الأوربية لمواصلة تكوينهم بها[15].

علـى أن أهم مؤسسـة كانت تضطلـع بمهمة إعـداد لطلبة الذين سـيقصدون الديار الأجنبية لتلقي العلوم الحديثة، هي المدرسـة التي أسـسها السلطان الحسن الأول خصيصا لهذا الغرض[16]، حيث وقفنا على ثلاث رسـائل صادرة عنه غطت ثلاث سـنوات متتالية، وتضمنت إفادات هامة تخص هذه المدرسة ووظيفتها.

أولاهـا بعث بها السـلطان الحسـن الأول سـنة (1292هـ/1875) إلى الباشـا الجيلاني بن حمو باشـا مدينة طنجة تتعلق بخمسة عشر طالبا سـيتوجهون إلى أوربا لتعـلم الفنون الحربية بعد أن قضوا مدة من التأهيل وتعلم اللغات الأجنبية حسـبما يؤكده نص هذه الرسـالة: «وصيفنـا الأرضى القائد الجيلاني بن حمو، وفقك الله وسـلام وعليك ورحمـة الله، وبعد: فقد وجهنا صحبته خمسـة عشر من نجباء الطبلة بقصد التوجه لبر النصارى لتعلم طبجيت والهندسة وغير ذلك من أمور الحرب، بعد تعلم الكتابة واللسـان بطنجة ليسهل عليهم مباشرة التعلم بـبر النصارى، وأمرنا خديمنا الطالب محمد بركاش بأن يقر كل فريق منهم بالمحل الذي يناسـبه حتى يتعلمـوا ذلك، ويوجه لكل فريق منهم المـكان المعين له، كما أمرت الأمناء أن ينفذوا لهم مدة إقامتهم بطنجة، وأعلمناك لنكون على بال وتنزلهم بالمحل الذي يناسـبهم والسلام في 25 رجب عام 1292»[17].

وبعد مرور سـنة عن تاريخ صدور هذه الرسـالة، نعثر برسالة ثانية حـوت إشـارات أكثر تفصيـلا، تفيد أن هذه المدرسـة تخصصت في اسـتقبال الطلبة المرشحين للتوجه إلى أوربا، والوافدين من مدن أخرى لإعدادهم واختبار مسـتواهم المعرفي، كمـا تفصح عن الخطوات التي كانـت تمر منها عمليات الاختيار النهـائي، والمقاييس المراعاة في هذا الاختيار، وفي مقدمتها صغر السـن والنجابة حسـب ما يبرزه جواب

---

15 - Miège (I.L) : « Le Maroc et l'Europe », Tome III, p230.
Miège (I.L) : « Une mission française à Marrakech », p394.

16 - الطاهر بن الحاج الأودي، الاستبصار في عجائب الأمصار والأراضين والجبال والأنهار والبحور ومنافسين النار سطوة الواحد القهار...، مخطوط بخط المؤلف، ص83.

17 - مجلة الوثائق، الجزء الثالث، ص ص442-441. وقد أوردها ابن زيدان في "النهضة العلمية في عهد الدولة العلوية"، خ.ح.ر رقم 1377، ص80.

السلطان الحســن الأول الذي بعثه إلى نائبه بطنجة يقول فيه: «خديمنا الأرضى الطالــب محمد بركاش، وفقك الله وســلام عليك ورحمة الله وبعد: وصلنا كتابك بأنك اختبرت الطلبة الذين كانوا وجهوا لطنجة لتعلم اللســان والقلم، فألقيت فيهم من لا يقبل التعــلم أصلا وثقيل الفهم مع أجنبيته عن التمدن وبينت كلا الفريقين بطرته ومن عداهم نجيب يحصل المراد منه في المستقبل، وطلبت إبدال من لا قابلية فيه بغيره وزيادة نحو الخمســة على الاثنين المبدلين لما في زيادتهم من المصلحة التي ذكرت، ويكون الجميــع مع صغار أبناء الحاضرة النجبــاء، فقد أمرنا خديمنا الطالب عبد الســلام السوسي بانتخاب سبعة من أبناء أهل الرباط على الوصف المذكور، وتوجيههم على يدك للمحل المذكور والأمناء بأن ينفذوا لهم ما يتوقفون عليه لســفرهم اللذان لا قابلية فيهما وجههما لحضرتنا العالية بالله والسلام في 20 محرم فاتح عام 1293»[18].

وأكدت رسالة ثالثة اســتمرارية دور هذه المدرسة وتخصصها في تلقــين أفراد البعثات لغــات البلدان التي سيدرســون فيها، حيث أمر الســلطان عامله في ســلا باختيار خمسة شــبان يوفدهم إلى أوربا لدراســة فنون الملاحة بعد أن يقضوا بمدرســة طنجة فترة من التأهيل وتعلم اللغات، وفق ما جاء في نص الرســالة: «خديمنا الأرضى الحاج محمد بن سعيد الســلاوي، وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد: فنأمرك أن تعين خمســة مــن أولاد أعيان خدامنا أهل ســلا يكون منهم من الخمســة عشر سنة إلى الثمانية عشر واخترهما (كذا) مــن النجاعة والفطنة بمكان، وممن يعــرف الكتابة، وإن كانوا من الذين كانوا عينو -ســابقا- لتعلم علم البحر وكانوا يتعاطونه فهو أولى وحين تعيينهم أعلمنا لنأمــرك بتوجيههم لبر النصارى بقصد تعلم علم البحر والرياســة، وذلك بعد أن يتعلموا ما يكفيهم في ذلك من اللسان بطنجــة، وقد كتبنا لخديمنا الطالب عبد الســلام الســويسي بتعيين مثلهم من خدامنا أهل الرباط الفتح والســلام في 10 رمضان المعظم، عــام 1294»[19].

---

18 - رسالة من الحسن الأول إلى محمد بركاش، أوردها ابن زيدان في الإتحاف، ج2، ص ص470-469.

وقد نشر نسخة منها الأستاذ عبد الهادي التازي في مقال له بعنوان، حرص ملوك المغرب عبر التاريخ على تحسين نوعية الأطر، مجلة الشؤون الإدارية، العدد الأول، السنة الأولى، يناير 1983، ص26.

19 - من وثائق أسرة آب بن سعيد أوردها المنوني في كتابه مظاهر يقظة المغرب الحديث، ج1، ص148.

وإذا كانــت هذه الوثائق قد اكتفت بالحديث عن دور هذه المدرسة دون تحديد المدة الزمنية التي كان يستغرقها التكوين الإعدادي للطلبة، كما اقتصرت على ذكر مادة اللغات الأجنبية دون غيرها، فإن مذكرات بعض الطلبة تمدنا بإفادات تتكامل مع ما أوردته الوثائق السابقة، حيث يطلعنا الطالب الطاهر محمد الــودي أحد أعضاء البعثة التي توجهت إلى فرنسا، في كتابه «الاستبصار» أنه تلقى بمدرسة طنجة تكوينا دام ست سنوات، وقد شمل هذا التكوين مواد الحساب والهندسة والتنجيم والجغرافية واللغــة العربية والمبادئ الدينية الأوليــة واللغة الأجنبية[20] وهي نفس المدة الــتي ذكرها الطالب محمد الكعاب أحد أعضاء نفس البعثة بقولــه: «...وإننا كنا بعثنا من جملة الطلبــة الذين كانوا تعينوا لقراءة اللغة الرومية في منتهى رجب ســنة 1291 هـ ثم بعد الإقامة من الستة سنين ونصف بثغر طنجة كما سافرنا ....إلى مدينة باريس»[21].

وخلافــا للشهادتين الســابقتين، فإن الطالب الزبير ســكيرج أحد أعضــاء البعثة التي درســت بإنجلترا، يذكر أن مــدة التكوين الأولي الــتي قضاهــا بطنجة لم تتعد ســنتين، واقتصرت عــلى تعلم اللغات الأجنبية ومبادئ الحســاب كما جاء في مذكرته: «عينت ضمن الخمسة عــشر تلميذا الواقع عليهم الانتخاب لتهذيبهم وتدريبهم وتعليمهم ما به يصيرون من ذوي الأهلية لاســتلام زمام الخدمات الســلطانية العالية، ولســنة التعيين التي هي 1291هـ يمم جميعنا ثغر طنجة تحت رياســة الفقيــه الســيد محمد (بالفتح) الجباص حيث أخذنا مبادئ الحســاب ولغات الأجانب لحد سنة 1293»[22].

وإذا كانت الوثائق والمصادر المغربية تلوذ بالصمت حول الأســاتذة الذين كانوا مكلفين بتدريس الطلبة خلال هذه المرحلة التأهيلية، فإنه لا شك أن بعض العناصر الأجنبية كان يتم استقدامها من الدول الأوربية التي ستســتضيف البعثات المغربية خصيصا لهذه المهمة، يتضح هذا من خلال البعثة الطلابية التي توجهت للدراســة إلى ألمانيا، حيث أورد بيير كيين Pierre Guillen في دراســته حول العلاقات المغربية-الألمانية،

---

20 - الطار الأودي، الاستبصار، ص83.

21 - أحمد معنينو، ترجمة مختصرة لتلميذ من بعثة الحسن الأول 1297 محمد بن الكعاب الشركي، مجلة البحث العلمي، العدد 25 يناير، يونيو 1976، ص223.

22 - عبد الغني سكيرج، مذكرة الزبير سكيرج (1932-1850)، مجلة دار النيابة العدد8، السنة2، خريف 1985، ص30.

إشارة مفادها أنه بعد حصول الاتفاق بين النائب السلطاني محمد بركاش والقنصل الألماني ويبر Weber حول إرسال ثلاثة طلبة مغاربة إلى معاهد ألمانيا قدم أحد الألمان من برلين إلى طنجة لتلقين الشبان الثلاثة أوليات اللغة الألمانية[23].

ولا شك أن تأسيس هذه المدرسة بمدينة طنجة دون غيرها، يرجع لموقعها الجغرافي الذي جعل منها أقرب محطة إلى أوربا، ولكونها كانت مقرا لجميع قناصل الدول الأجنبية الممثلة في المغرب، ومركزا لـ «دار النيابة» حيث يقوم النائب السلطاني المكلف بالتفاوض مع رؤساء الهيئة الدبلوماسية حول القضايا التي تهم رعاياهم المقيمين بالمغرب، والعلاقات التي تربط المغرب بهذه الدول على جميع المستويات[24]، وفعلا فقد كان أول ما قام به السلطان الحسن الأول بعد قراره بإيفاد البعثات هو أن اتصل بواسطة نائبه بمختلف المفوضيات الأوربية الموجودة بطنجة، لاستفسارها حول إمكانيات قبول طلبة مغاربة في المعاهد الأوربية[25]، كما تؤكد هذه الرسالة السلطانية الموجهة إلى النائب محمد بركاش: «خديمنا الأرضى الطالب محمد بركاش وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبركاته وبعد: فقد اقتضى نظرنا الشريف تعيين أناس لتعليم ترايست والمكينة وعلم البحر وأن يفرقوا على نواب بابورات النجليز والفرنصيص والصبنيول والألمان والطليان، وعددهم ستة لكل جنس، واثنان من الستة المذكورين يحضون بتعلم ترايست والمكينة بمدارس تعلم ذلك العلم عند كل جنس ممن ذكروا وأربعة لتعلم علم البحر وهم الذين يفرقون على نواب البابورات المذكورين ويكون صائرهم على جانب المخزن إذ المقصود هو تعلمهم، وعليه فَكَلِّمْ نواب الأجناس المذكورين في ذلك، وتفاوض معهم فيه، وأعلمنا بجوابهم لك فيه، لنأمرك بما يكون عليه العمل في ذلك، وعجل ولا بد والسلام في 10 رجب 1299»[26].

هـذا وقد تنوعت طرق إعداد الطلبة المرشحين، وتمت أحيانا خارج

---

23 - Guillen (Perre), op.cité,p86.

24 - عبد العزيز التمسماني خلوق، المطامع الاسبانية في طنجة 1945-1914، مجلة دار النيابة، العدد السابع، السنة الثانية، صيف 1985، ص45.

25 -Miège (J.L), op.cité, T.III,p222.

26 - أوردها ابن زيدان في، الإتحاف، ج2، صص371-370، العز والصولة، ج2، صص149-148.

مدرسة طنجة، حيث كان السلطان يكلف ولاته بالمدن والأقاليم بانتخاب أنجـب الطلبة لتعليمهم مبـادئ العلوم الرياضيـة والطبيعية، ويحظى المتفوقون منهم بامتياز الذهاب إلى أوربا لتعميق دراسـتهم في ميدان هذه العلوم، يبين هذا من رسالة بعثها السلطان الحسن الأول إلى قائد الصويـرة الحاج عمارة ابن عبد الصـادق تتعلق بطلبة كانوا يتعلمون الحسـاب بالصويرة وأرسـلوا إلى البلاط بهدف اختبار مسـتواهم، حسب ما يؤكده نص الرسالة التالية: «...الحمد لله وحده، وصلى الله وسلم على سـيدنا ومولانا محمد وءاله (...) وصيفنا الأرضى، الحاج عمارة بن عبد الصادق (...) وبعد: فقد وصلنـا كتابك وصحبته طلبة الحساب الذين وجهت بقصد اختبارهم عملا بأمرنا الشريف، فوجد أثر النجابة لائحا على السـتة المذكوريـن بالطرة، ويليهم الثلاثة المذكورين أثرهم، حيث مرنا باختيارهم وما عداهم حشـو لا يقبل التعليم وعليه فسرحهم لحال سـبيلهم، وعين بدلهم ممن فيـه قابلية العلم، ووجدت العشرين الباقين هناك بقصد اختبارهم ولا بد والسـلام في 23 صفر الخـير عـام 129»[27].

وقد وقفنا على أسـلوب آخر اتبع في طريقـة إعداد الطلبة الواقع عليهـم الاختيار، وذلـك من خلال ما أورده (جـاك كايي J.Caille) في دراسته عن البعثة الطلابية التي ذهبت إلى مدرسة الهندسة العسكرية في مدينـة مونبلييه، حيث أشـار أنه بطلب من وزير فرنسـا بطنجة (شـارل فيرو Charles Feraud) قبل أيركمان سـنة 1888 أن يشرف على تدريب خمسة عشر من الشبان المغاربة، كان من المقرر أن يتم إرسالهم ليخضعوا لتكوين بمدينة فرسـاي في ميدان المدفعية والهندسـة، وقد عقـب (فيرو) على قبول أيركمان بقوله: «أظن أنه إذا علم السـلطان أن إعداد الشبان سيوكل إليكم فإنه سيسرع بإرسالهم»[28].

يستخلص من مجموع هذه التدابير الإعدادية، مدى الاهتمام الذي كان يوليه السلطان الحسن الأول لهذا المشروع الإصلاحي[29] وحرصه

27 - مجلة الوثائق، جزء الثالث، ص ص456-457.

28 - CAILIE (Jacques), « Les Marocains à l'école de Génie de Montpeier (1885-1888) », in Hesperis, vol. XMI. Année 1954 p143.

29 - لقد أشار مييج في دراسته أن السلطان الحسن الأول بعد تخليه عن جزء من برنامجه الاصطلاحي ظل مصرا على مواصلة إرسال البعثات الطلابية إلى أوربا.
.Miège (J.L.), op.c, T.III,p222

الشـــديد على إنجاحه وذلك بتمكين الطلبة المرشحين من تكوين بدائي يؤهلهم لمسايرة ما سيدرسونه في المعاهد الأوربية والاستفادة من ذلك.

غــير أن هذا التكوين الإعدادي بالطريقة التي تم بها، بقي شــكليا في مجملــه، وغير خاضع لتصور قبــلي تضبطه قواعد دقيقة وأهداف محددة، وفي ذلك نلمس أصل أحد عوامل فشــل هذه التجربة، كما أن مــدة التكوين الأولي كانت غير كافية لتجعل الطلبة مؤهلين بالمســتوى المطلــوب لمتابعة تكوينهم وتعميق معارفهــم في معاهد أوربا[30]، فضلا عــن أن عمليــة الاختيار ؛بما شــابها من ارتجال؛ جــاءت أحيانا غير موفقــة[31]، وهــذا يدفعنا للحديث عن الأصــول الاجتماعية والجغرافية لأفراد البعثات.

## 2) الأصول الاجتماعية لأفراد البعثات:

لا شــك أن مســتوى ووضعية الإدارة في بلد ما لا يمكن فصلهما عن مرحلة تتطــور بنياته الاقتصادية والاجتماعيــة، فلقد ظلت أجهزة المخزن المغربي إلى حدود القرن التاســع عشر تتسم ببساطة تركيبها، ومحدودية مهامها، كما أن أســاليب ممارسة العديد من المسؤوليات لم تكن تخضع لشروط مقننة وتوزيع دقيق للمهام.

لقد توصلت بعض الأبحاث التي اهتمت بجوانب من الإدارة المغربية وسير أجهزتها أن أغلب المشرفين على تأطيرها كانوا ينتمون إلى فئات تتميز بوضعية اجتماعية ومادية مرموقة، فعن أصل الأمناء الاجتماعي تذكر (نعيمة التوزاني) أن جل أمنــاء المدن من عائلات موسرة ومشهورة تنــتمي إلى مراكز حضرية معلومة[32]. ففي مغرب القرن الماضي كانت الثورة المادية والنســب العائلي وبدرجة أقل المســتوى العلمي، عوامل تلعب دورا أساســيا في ترقية الأشخاص داخل الســلم الاجتماعي، وتكاد تكــون مكانة الفــرد في المجتمع مقترنــة بالعائلة التي ينتمي

30 - علق مييج على هزالة التكوين الأولي بقوله "كان طلبة البعثات تنقصهم المعارف الأولية التي كان من الممكن أن تجعل مقامهم بأوربا مفيدا".

Miège (J.L), op.cité, T.IV,p105.

أنظر أيضا:

LAROUI (Abd), op.cité, p285.

31 - CAILLE (Jasques), op.cité, p 139.

32 - نعيمة التوزاني، الأمناء بالمغرب في عهد السلطان المولى الحسن، ص59.

إليها، وبالتالي فإن الكفاءة الفردية نادرا ما كانت تقدر حين تتاح لها إمكانيــة التعبــير[33].

لقد كان «الســلطان أعــرف بالبيــوت العتيقة والأنســاب الأنيقة والأحســاب الوثيقة، إذ له النظر في أهل الترشيح»[34]، فهل تنطبق هذه المعايير على الطلبة الذين رُشِّحوا للذهاب إلى أوربا؟

إن الأمــر يختلف بالنســبة لموضوعنا، لأننا حيــال شخصيات لم تكن مكلفــة بمهمة مخزنية أو تتولى منصبا سياســيا، بل شخصيات حظيت بامتياز عن أبناء جيلهما وهو السفر إلى بعض الأقطار الأوربية للتكوين في عدة ميادين علمية وعســكرية، وذلك في أفق أن ترتقي إلى هذه المناصب.

فمــن خلال قائمة أسماء أفراد البعثات التي أوردها ابن زيدان في مؤلفــه «العز والصولة» الجزء الثانـي[35] لا نعثر فيها على أسماء تنحدر من عائلات لها شهرتها باســتثناء بعض العنــاصر المعدودة، بل على العكــس من ذلك نجد نصا صريحا بصــدد الأصل الاجتماعي للطلبة المرشحين، إذ عقب (إيركمان) عــلى طريقة اختيار طلبة البعثات بقوله: «...لقد كان من الأفضل لو أوفد الســلطان إلى أوربا طلبة ينتسبون إلى عائلات عريقة ليتلقوا تكوينا بمعاهدها بدل أن يبعث بطلبة مغمورين»[36].

لقد كان أغلــب هؤلاء الطلبة ينتمون إلى بعــض العائلات المرتبطة تقليديا بالســلطة المركزية، وأساســا عائلات الجيــش التي كان يتقلد أفرادها بعض المهــام المخزنية، وخاصة العائــلات المنتمية إلى قبائل الأودايــة وبخــارى، إذ نصادف في أغلب البعثــات أسماء تحمل هذا النســب كعبد الســلام الودي، والمختــار الرغاي البخــاري عن البعثة

---

33 - CHAPI (Mustapha) : « Quelques Grandes Familles du Makhzen Marocain au XIX siècle d'après Ibn Zaidane, p192.

أنظر أيضا:

مصطفى الشابي، النخبة المغربية في القرن 19، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ع8، س 1982، ص304.
KERDEC : « Un boulevard de l'Islam », Tanger 1895, Madrid, p86.

34 - محمد العربي المشرفي، الحسام المشرفي، مخطوط ضمن مجموع خ.ع.ر رقم ك 2276، ص249.

35 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، صص160-150.

36 -ERHMAN (j), op. Cite, PP96-97.

نفس الملاحظة أوردها جاك كايي في مقاله عن بعثة مونبولييه.

Caille (J), op.cité, p144.

الطلابية الأولى التي قصدت إيطاليا[37]، كما نجد قاسم الودي والطاهر بن الحاج الأودي الذين شكلا إلى جانب محمد الكعاب الشركي قوام البعثة الطلابية التي أوفدها الحسن الأول إلى فرنسا[38] بل نصادف بعض البعثات التي كانت تركيبتها مشكلة في معظمها من عناصر تنتمي إلى بخارى، وهكذا نقرأ أسماء مثل إدريس البخاري والعرفاوي البخاري ومحمد حيات البخاري والجيلاني بن مبارك البخاري وغيرهم[39]، وفي تقديرنا فإن هيمنة هذا العنصر تعود إلى تغلغل الروح القبلية في نفوس بعض كبار الموظفين لاسيما قواد الجيش[40]. الذين تمكنوا من الوصول إلى شغل مناصب مخزنية هامة كالعمالة والقيادة على البوادي والمدن خصوصا إذا علمنا أن بعض هؤلاء قد كلفوا من طرف السلطان باختيار الطلبة كالقائد الحاج عمارة بن عبد الصادق البخاري(41)، فآثروا ترشيح عناصر تنتمي إلى أسرهم ونسبهم.

على أننا نصادف ضمن أفراد البعثات بعض الطلبة وهم قلة ينتمون إلى «البورجوازية» الصغرى المتمركزة بالمدن(42)، فقد وقفنا على رسالة سلطانية تنص الأوامر صراحة على اختيار الطلبة من أسر الأعيان «... وبعد فنأمرك أن تعين خمسة من أولاد أعيان خدامنا أهل سلا...» [43].

والجدير بالتسجيل أن الطلبة المنحدرين من هذه الأسر هم بالضبط الذين تمكنوا بعد عودتهم من شغل مناصب في الجهاز المخزني[44].

كذلك نصادف من جملة الشبان الذين وقع عليهم الاختيار أسماء بعض العناصر التي تنتمي إلى عائلات اشتهرت باهتمامها بالعلم وتقلد أفرادها بعض المناصب المخزنية، فالمصادر تذكر عن الطالب العربي حركات أحد أعضاء البعثة التي قصدت إيطاليا عام (1295هـ/1878)

37 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص150.

38 - نفسه، ص151.

39 - نفسه، ص155.

40 - مجلة الوثائق، الجزء الثالث، ص300.

41 - مجلة الوثائق، الجزء الثالث، ص456.

42 - LAROUI (Abd), op.cité, p289.

43 - رسالة من الحسن الأول إلى الحاج محمد بن سعيد السلاوي بتاريخ 10 رمضان المعظم عام 1294. من وثائق آل بن سعيد، أوردها المنوني، مرجع سابق، ص148.

44 - LAROUI (Abd), op.cité, p289.

(45) أن هـذا الأخـير ينحدر مـن إحدى أسر أعيان مدينة سـلا التي اشتهرت بتعاطيها العلوم والآداب، وخلف بعض أفرادها تآليف متنوعة من نوازل وأراجيز وغيرها، كما تولى بعضهم مسـؤوليات في الجهاز المخزني في العهد الحسني والعزيزي كعامل لمدينة سلا أو خليفة لأمين المستفاد وغيرها من المناصب[46]. ومن نفس المدينة نذكر الطالب محمد النجـار أحد أفراد البعثـة التي أوفدها السـلطان إلى ألمانيا ودرس بمدينـة (أولم ULM) سـنة 1302هـ/1884) حيث كان ينحـدر هو الآخر من أسرة علم[47]، وإن كانت أقل شهرة من الأسرة السابقة الذكر.

أما عن مواطن الاختيار، فأقول ما نلاحظه هو غياب العنصر البدوي، ذلك أن جل أفراد البعثات تم اختيارهم من مراكز حضرية معلومة كسلا والرباط ومكناس وفـاس والعرائش، ولذلك تفسـيره الواضح بالنظر إلى أن سـكان المدن كانـت حظوظهم أوفر بكثير من حظوظ سـكان البوادي لتحصيل المعرفة والثقافة، ولا شـك أن اختيار الطلبة من المدن الداخليـة المذكورة راجع إلى تردد السـلطان باسـتمرار عليها، وإلى نشاط حركة تدريس العلوم الرياضية والعسكرية بهذه المدن كالحساب والفلك والهندسة[48]، فضلا عن قدم العلاقات التقليدية التي كانت تربط المخزن بفـئات اجتماعية تنتمي إلى هذه المدن[49]. أما بخصوص المدن الشـاطئية فيمكن أن يعزى ذلك إلى التطور الفكري التي شهدته هذه المـدن بالقياس إلى باقي المدن المغربية، ولكونها كانت أكثر تفتحا على العالم الخارجي عـن غيرها[50]. وذلك بحكم تمركـز الأقليات الأجنبية بها، وهـي مميزات تفسر لنا - كما أشـار العروي - كون دعاة الأفكار الجديدة في مغرب القرن التاسع قد برزوا من هذه المدن.

---

45 - ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص468.

46 - عبد الله بن العباس الجراري، من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين: الرباط وسلا، الجزء الثاني، طبعة الرباط بدون تاريخ، ص368.

محمد بن علي الدكالي، الإتحاف الوجيز (تاريخ العدوتين)، تحقيق مصطفى بوشعراء، من منشورات الخزانة الصبيحية بسلا 1406/1986، ص159.

47 - نفسه، ص173.

48 - أنظر تفاصيل هذا النشاط العلمي عند محمد المنوني، مرجع سابق، ص ص141-137.

49 - مصطفى الشابي، النخبة المغربية في القرن التاسع عشر، ص 302.

50 - عبد العزيز التمسماني خلوق، الإصلاحات، الحضرية الأوربية بطنجة وردود الفعل المغربية، مجلة دار النيابة، العدد الأول السنة الأولى، يناير 1984، ص59.

### 3) النفقات المالية:

من المعلوم أن مشروع إيفاد بعثات طلابية إلى الأقطار الأوربية بقصد التعليم والتكوين، قد تطلب بالضرورة نفقات مالية لإنجازه، غير أن المصادر المتوفرة تلوذ بالصمت بخصوص هذا الجانب، باستثناء بعض الإشارات المقتضبة التي لا تسعف الدارس في تقديم صورة واضحة ومفصلة حول التغطية المالية للبعثات الطلابية.

فبناء على إشارات وردت في بعض الوثائق بصيغة جد عامة مثل «...ويكون صائرهم على جانب المخزن»[51] أو «...فقد أمرنا الأمناء بأن ينفذوا لهم ما يتوقفون عليهم لسفرهم...» [52]، نعلم أن المخزن هو الذي كان يتكلف بنفقات السفر ومستلزماته، ومصاريف إقامة الطلبة بالديار الأجنبية.

ولا يمدنا المؤرخ ابن زيدان بأية إفادة حول الموضوع، إذ اكتفى بقوله «...وأجرى عليهن النفقات الكافية»[53]، وبنفس العمومية أكد ذلك الطالب الحسين الزعري في مذكرته «...وسنة 1293 وعلى نفقة المخزن السعيد وعن أمره سافرت إلى الديار الإنجليزية»[54].

وبالنظر إلى حجم الإصلاحات التي كان السلطان الحسن الأول يروم إدخالها للنهوض بالبلاد، يتبين أن الأهداف كانت طموحة في الوقت الذي كانت فيه الإمكانيات محدودة[55]، إذ إلى جانب اقتناء الأسلحة من بلدان أوربية بأثمان باهظة، وتأدية رواتب الخبراء الأجانب وإصلاح الموانئ وغيرها من المشاريع كان على السلطان أن يغطي نفقات البعثات الطلابية إلى الخارج[56]، ولعل تحمل المخزن نفقات بهذه الضخامة هو ما يفسر لنا شكوى السلطان الحسن الأول إلى

---

51 - من رسالة بعثها السلطان الحسن الأول إلى النائب محمد بركاش بتاريخ 10 رجب 1299، أوردها ابن زيدان في الإتحاف، ج2، ص ص471-470.

52 - من رسائلها بعثها الحسن الأول إلى محمد بركاش بتاريخ 20 محرم فاتح عام 1293، نفس المصدر، نفس الصفحة.

53 - نفسه، ص 465.

54 - عبد الغني سكيرج، مذكرة الزبير سكيرج، ص29.

55 - نعيمة التوازاني، مرجع سابق، ص295.

56 - Miège (J.L), op.cité, T.III,p238.

ويمكن أخذ فكرة عن قيمة المصاريف المالية التي أنفقت على شراء الأسلحة بالاطلاع على بعض الوثائق التي وقفنا عليها بالخزانة العامة بتطوان نذكر منها محفظة -8/23محفظة -7/89محفظة 8/61، وكذا بعض الكنانيش والسجلات المخزنية الخاصة بشؤون الجيش ومصاريفه المحفوظة بالخزانة الحسنية بالرباط وكمثال كناش رقم -302كناش 303 – كناش رقم 327 وغيرها، فضلا عن الوثائق الأجنبية.

ممثله بطنجة في الرسالة التالية «...المخزن اليوم واجب أن يصان، ولا يخفاك ما نخرجه كل شهر من مشـــاهرات النجليز والصبنيول والآلات الجهادية والبناء لها»[57].

لقــد وقفنا على وثيقة واحــدة في هذا الصــدد تفصح بمعلومات وافية نســبيا وغير دقيقة بخصوص البعثة الــتي كانت تتابع تكوينها بمدينــة باريس، والتي يمكن اعتمادها كمثال لتوضيح هذا الجانب من موضوعنا، وهذا نص الوثيقة: «خديمنا الأرضى الطالب محمد بركاش وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد: وصلنا كتابك بــأن نائب الفرنصيص طلب منك مشــاهرة المتعلمين الذين بباريز عن تســعة أشهر وقدرها خمــس عشرة مائة ريال وأربعة وســتون ريالا، وطلبــت تنفيذ ذلك له، وإصــدار أمرنا الشريف للأمناء بدفع واجب كل ثلاثة أشهر في المســتقبل، فقد أمرناهم بتنفيذ العدد المذكور له، وبأن يكونوا يدفعون واجب كل ثلاثة أشهر في المســتقبل، وكتابنا الشريف لهم بذلك يصل طيه، والسلام في 11 رمضان عام 1297»[58].

إن أول مــا يستشــف من الوثيقة الســابقة، هو عــدم انتظام أداء المنحــة[59]، حيث تراكمت عــلى البعثة نفقات مدة تســعة أشهر جعلت ممثل فرنسا بالمغرب يطالب المخزن في شخص نائب السلطان بواجب تســديدها، مؤكــدا على ضرورة احترام موعــد إيفائها على رأس كل ثلاثة أشهر اســتقبالا كما يســتفاد من الوثيقة أن مصدر هذه النفقات كان يأتي من مداخيل أمانة المراسي، حيث كان الأمناء مكلفين بصرف النفقــات الضرورية للدولة، ومــن بينها المنح الدراســية لفائدة أفراد البعثات الطلابية[60].

أما عن قيمة المنحة التي كانت تسلم للطلبة، فمن الصعب تحديدها[61]،

57 - من رسالة السلطان الحسن الأول إلى النائب محمد بركاش بتاريخ 14 ربيع الأول، عام 1297، أوردها ابن زيدان في "الإتحاف" ج2، ص ص407-406.

58 - رسالة من السلطان الحسن الأول إلى النائب محمد بركاش أوردها ابن زيدان في الإتحاف، ج2، ص470.

59 - يؤكد هذا الاستنتاج ما أورده جاك كايي بخصوص التأخر الحاصل في أداء المصاريف التي تطلبتها إقامة البعثة المغربية التي توجهت إل مونبولييه.

CAILLE )Jacques), op.cité,pp. 134-135.

60 - نعيمة التوزاني، مرجع سابق، ص107 و ص285.

61 - ذكر كايي في مقاله عن بعثة مونبولييه أن الطلبة كانوا يتقاضون فرنكين اثنين في اليوم لكل طالب يؤدى منها فرنكا يوميا للأكل.

CAILLE )Jacques), op.cité,p. 134.

لعـدم معرفتنا فيما إذا كانوا يتقاضونها خلال كل شهر أو ثلاثة أشهر أو أكثر وبشكل منتظم، فضلا عن صعوبة تحديد معادلة العملة المغربية بالعملة الأجنبية، إذ في الوقت الذي كانت قيمة المثقال المغربي تساوي قيمـة الريـال الأجنبي سـنة (1238هـ/1822م)، أصبح نفـس الريال يسـاوي سـنة (1306هـ/1888) سـوى اثني عشر مثقال[62]. وإذا كانت الوثيقـة تطلعنا على قيمة مبلغ النفقات التي اسـتلزمتها إقامة البعثة الطلابية مدة ثلاثة أشهر، فإنه لا يمكن الجزم بأن هذا المبلغ كان قارا، ويمكن تعميمـه على باقي البعثات المقيمة بالبلـدان الأوربية الأخرى، ويتأكـد هذا التحفظ بناء على ما وقفنا عليه في مراسـلات أحد أفراد نفس البعثة التي صدرت بشأنها هذه الرسالة، وهي مراسلات الطالب محمد الكعاب مع بعض أفراد عائلته وبعض المسـؤولين المخزنيين، فقد وردت في رسالة جوابية من أخيه تفيد أن الطلبة كانوا يتقاضون منحة تقـدر بثلاثين مثقال دون أي تحديد زمـني: «...وقلت أنكم ببلد باريس منذ سـنتين وثلاث أشهر، وتقبضون ثلاثـون مثقالا 30، وكل ما ذكرت من أكل وشرب...»[63].

إن هـذه الإشـارات المقتضية تبقى في حـدود أرقام بدون دلالات دقيقـة تسمح بإعطـاء صورة واضحـة ومفصلة عـن الجانب المالي وانعكاسـه السلبي أو الإيجابي على وضعية الطلبة وظروف دراستهم بالديار الأجنبية.

ولحسن الحظ نستطيع استنادا إلى ما توفر لنا من مقيدات خاصة أن نؤكـد على صعوبة الوضعية المادية التي كان يعيشها الطلبة المغاربة من خلال نموذج البعثة الطلابية التي كانت تدرس بباريس ومن بعد ببلجيكا.

لقد بعث الطالب محمد الكعاب رسـالة على شكل تقرير إلى النائب السـلطاني محمد بـركاش بتـاريخ 18 يونيو 1884 أثنـاء تواجد هذا الأخـير بمدينة صـيرن (Seraing) البلجيكيـة، وهي المدينة التي كانت تقيم فيها هذه البعثة، وقد هدف من وراء هذه الرسالة أن يطلع المسؤول المغـربي على وضعية البعثة الطلابيـة التي كانت تضم عشرين طالبا، كلف الطالب الكعاب بالإشراف عليها بأمر من النائب السـلطاني، وقد

62 - آفا عمر، مشكلة النقود ومحاولات الإصلاح في مغرب القرن التاسع عشر، ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، ص83.

63 - من، م.ط.ك.

ضمن رسـالته هاته توضيحـات مفصلة حول مسـتلزمات إقامة هذه البعثـة، والمصاريف التي سـيتطلبها تكوين الطلبة مـن حيث الملبس ورواتب الأسـتاذة المشرفين عـلى تدريسهم ومقاديـر المنحة الواجب تسليمها لهم[64].

وتكمل هذه الرسـالة، رسالة ثانية في نفس الموضوع بعثها الطالب محمد الكعـاب إلى الوزير الحاجب أحمد بن موسى، تكشـف لنا عن معاناة الطلبة، والمصاعب التي صادفوها، وذلك من جراء عدم توصلهم منـذ مدة طويلة بما يحتاجونه من نفقات ماليـة لمواصلة تكوينهم، وما ترتب عـن تراكم الديون عليهم من المسـؤولين البلجيكيين الذين كانوا ينفقون عليهم، حيث أصبحوا موضع إهانة واحتقار، مما جعلهم يأملون في الحصول على أمر السـلطان بالرجـوع إلى وطنهم كما يفيد نص رسـالة الكعاب «...والآن فلتفهم سيادتك أن هذه سبعة أعوام ونصف مفقوديـن على الأهل والوطن، والأعداء لا ينظـرون إلا بعين الاحتقار (...) وعليه فالمرجـو من كمال فضل سـيدي علينا وعلـو همته أن يكون شـفيعا لنا عند سيدنا نصره الله، لينظر من حالنا ويجود علينا بطلق سراحنا لصلة الرحم...»[65].

يتبين لنا من خلال نموذج هذه البعثة التي توفر لنا بشـأنها بعض المعلومـات مدى الفـرق الكبير بين نوايا السـلطة العليا من وراء هذه المبادرة وطرق تنفيذها من طرف المسـؤولين المخزنيين[66] وفي ذلك نقف عـلى أصل عامل آخر كان وراء إخفاق هـذه التجربة الإصلاحية كما سيأتي تفصيله في فصل لاحق.



64 - من، م.ط.ك (بالفرنسية) أنظر الملحق.

65 - أحمد معنينو، ترجمة مختصرة لتلميذ من بعثة الحسن الأول، ص225.

66 - إبراهيم حركات، مرجع سابق، ص39.

# الفصل الثاني

# مقاصد البعثات

## 1) توضيحات أولية:

قد تكون من باب المبالغة القول إن السلطان الحسن الأول قد توخى من وراء إيفـــاده البعثات التعليمية إلى أوربا، بلوغ أهداف مرســـومة وفق برنامج موضوع بكل دقة وتكامل، واســـتراتيجية مبنية على تصور واضح للـــشروط الموضوعية والإمكانيات المتوفـــرة، وإذا جاز الحديث عـــن أهداف لهذه المبـــادرة، يمكن القول إن هـــذه الخطوة الإصلاحية اســـتهدفت توفير الكفاءات الوطنية اللازمة لتنفيذ المشاريع التي تبناها الســـلطان أو فكر في إنجازها، ذلـــك أن اللجوء إلى الخبراء والتقنيين والأجانب، والاستعانة بهم في الإشراف على هذه المشاريع لا يمكن إلا أن يكون ظرفيا، بالنظر لما يترتب عنه من عواقب ســـلبية على مستقبل البلاد، لاســـيما تصاعد التنافس بين القوى الأوربية التي يمثلها هؤلاء الخـــبراء، وتوســـيع النفوذ الأجنـــبي عن طريق ممارســـتهم للوظائف الحيوية بالبلاد، من هنا فإن العمل على تهيء شبان مغاربة للاضطلاع بالمهـــام التقنية المختلفة[1]، وتكوين أطر مغربيـــة تكوينا عصريا[2]، بغية الاعتماد عليها بعد عودتها للنهوض بالمرافق الحيوية من أشغال عمومية ودفاع وغيرها[3]، كان الهدف الرئيس من وراء إرسال البعثات للدراسة والتكوين الحديث بمختلف المعاهد الأوربية.

---

1 - Miège (J.L), op.cité, T.III,p222.

2 - LAROUI (Abd), op.cité, p285.

3 - A.G.V. « Rapport du c. Vallois n°4, Meknès, le 1 mai 1884, p5.

أنظر أيضا:

- قاسم الزهيري، اتصال المغرب بالتعليم العصري، مجلة دعوة الحق، العدد الثامن، السنة الثانية، ص23.

- نعيمة التوزاني، مرجع سابق، ص44.

إذا مــا تأملنــا في المواد التي تخص طلبة البعثات في دراســتها بأوربــا، يتبين لنا أن مــادة الهندســة[4] وغيرها من العلــوم المرتبطة بالمجال العســكري كانت تتصدر قائمة هــذه المواد والملفت للانتباه أن أغلــب الحركات الإصلاحية الرسمية التي شهدتها بعض أقطار العالم الإســلامي في القرن الماضي، جعلت بحق من مادة الهندســة تحديدا المــادة المطلوب تعلمها والتوســع في تحصيل فروعها أكثر من غيرها، فالســلطان العثماني ســليم الثالث (1789-1807) كانــت أولى خطواته الإصلاحية هي تأســيس مدارس جديدة لتدريس الهندسة وغيرها من المواد العلمية تكون خارج ســلطة وتأثير المدرســة التقليدية[5]. ولما كان هم محمد علي في المقام الأول هو إصلاح الجيش، فإن أولى مبادراته في هذا الاتجاه تمثلت في إنشــاءه مدرســة الهندسة أو المهند سخانة في القلعة ســنة 1816 لتمد الجيش ومؤسســاته بالفنيين والمهندســين الأرميين[6]، أيضا نجد في تونس أن أول ما افتتح به الباي أحمد باشا (1837-1855) حركته الإصلاحية هو تأســيس مدرســة عسكرية (مدرسة باردو الحربية) ســنة 1804 تدرس بها أساســا الهندسة والرياضيات والجغرافيا واللغات الأجنبية[7].

فكيف يمكن تفســير هذه الأولوية التي حظيت بها هذه المواد ضمن العلوم المبتغى تحصيلها واقتباسها من الغرب كما هو الشــأن بالنسبة للبعثات التعليمية في عهد السلطان الحسن الأول؟

لا شــك أن ذلك يكمن في أن معاينــة ووعي العرب والمغاربة لتقدم الغرب كان وعيا بتفوقهم العسكري، ولم يكتشفوا في البداية المبتكرات الغربيــة الحديثة إلا في صيغتها العســكرية، لذا جــاءت بداية القبول

4 - كتب العربي المشرفي مبرزا -وجهة نظره- دور الهندسة في ظهور بعض المخترعات الحديثة ما يلي: "...وبكثرة تصرف الروم والترك في علم الهندسة أدركوا ما لم تدركه الأمم الماضية، خفي حدود الأربعين من هذا القرن اخترعوا البابوات البحرية...".
أبي حامد العربي المشرفي، نزهة الأبصار لدى المعرفة والاستبصار، مخطوط خ.ع.ر، رقم ك 579، ص527.
وحول تزايد إقبال الطلبة المغاربة على دراسة الهندسة أنظر ما كتبه/
محمد بن سعيد الصديقي، إيقاظ السريرة لتاريخ الصويرة الجزء الأول، مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، دون تاريخ، ص 24.

5 - د.خالد زيادة، اكتشاف التقدم الأوربي، دراسة المؤثرات العربية على العثمانيين في القرن الثامن عشر، دار الطبيعة بيروت، يونيو 1981، ص108.

6 - د.معن زيادة، معالم على طريق تحديث الفكر العربي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، يوليو 1987، ص108.

7 - الطاهر عبد الله، الحركة الوطنية التونسية.

بالأخذ عن التجربة الأوربية الحديثة بداية عسكرية صرفة[8]، وبالنظر إلى أن الهزيمة كانت في مظهرها هزيمة عسكرية، فمن الطبيعي وفق الوعي الحاصل لدى الجهات المسؤولة والمثقفة أن يكون التدارك عسكريا[9]، من هنا يمكن إدراك هاجس التطلع لاكتساب تلك القوة العسكرية بالتركيز على تدريب الجنود على أساليب الحرب الحديثة، واللجوء إلى الغرب ومعاهده المتخصصة لاكتساب العلوم التي كانت وراء تفوقه العسكري، وفي طليعتها الهندسة العسكرية والرياضيات والجغرافيا وغيرها من العلوم اللازمة لتحديث المؤسسة العسكرية وتطويرها تلك كانت حدود الوعي الموجه للإصلاحات الرسمية التي جعلت من مسألة تحديث الجيش منطلق وبؤرة وغاية كل إصلاح[10]، لذا ليس غريبا بخصوص البعثات التعليمية التي قصدت أوربا للدراسة بمعاهدها العسكرية أن يتم التركيز على تحصيل العلوم ذات الارتباط بالمجال العسكري.

غالبا ما تمت الإشارة إلى البعثات التعليمية إلى أوربا بصيغة عامة دون تمييز بين طبيعتها وعناصرها وأهدافها[11]، ولعل مرد ذلك إلى صعوبة استخلاص هذا التمييز[12] من المادة المتوفرة والمتمثلة أساسا في السجل الإجمالي الذي أورده ابن زيدان في مؤلفه «العز والصولة»[13]، وهي المادة التي شكلت قوام كل حديث من قريب أو بعيد عن موضوع البعثات، غير أن توظيف هذه المادة وحدها لا يخلو من إشكالات نتج عنها أحيانا خلط في تواريخ توجيه هذه البعثات

8 - د. معن زيادة، المرجع السابق، ص90.

9 - د.مهن زيادة، الحل السياسي عند رواد النهضة، ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، ص117.

10 - عبد الله العروي، تاريخ المغرب محاولة في التركيب، ترجمة ذوقان قرقوط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1977، ص379.

وأنظر ما كتبه نفس المؤلف بصدد الإصلاح الرسمي في كتابه مفهوم الدولة، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء 1981 ص ص133-130.

11 - كنماذج من هذه الأعمال نحيل على:

عبد العزيز بنعبد الله، تاريخ المغرب، العصر الحديث والفترة المعاصرة، الجزء الثاني مكتبة المعارف، الرباط بدون تاريخ ص ص88-86.

الحسن السائح، الحضارة الإسلامية في المغرب، دار الثقافة الطبعة الثانية، الدار البيضاء 1986، صفحات: 393-404-405.

12 - لقد أشار العروي في دراسته إلى صعوبة هذا التمييز.

LAROUI (Abd), op.cité, p286.

13 - ابن زيدان، العز والصولة، الجزء الثاني، ص162-148.

وأصنافها، ولم يتم التمييز بين البعثات التي كانت بهدف تدريب الجنود على أساليب الحرب الحديثة وتعويدهم على استعمال الأسلحة الجديدة، وغالبا مـا كانت وجهة هذه البعثات الأكثر عـددا هي جبل طارق، ثم البعثات المكونة من عناصر قليلة بالقياس إلى السابقة الذكر، وهي التي قصـدت مختلف الأقطار الأوربية لتلـقي تكوينا عاما في بعض العلوم العصريـة ومن ضمنها طبعا العلوم العسـكرية[14]، كما تم إيفاد بعثات تتشـكل من بعض الصناع والحرفيين قصـد تلقي تعليم أولي وصقل مهنتهم، هذا فضلا من البعثات التي كان السلطان الحسن الأول يكلف أعضاءها باقتناء الأسـلحة من الشركات والمعامـل المختصة كشركة كـروب krupp بإيسـن Essen[15]، وقد كان مـن أعضائها بعض الطلبة الذين درسـوا بأوربا[16] وبعض الشخصيات المخزنية التي تخصصت في مثل هذا النوع من التجارة خاصة عائلة بركاش كما يسـتفاد من الوثائق الأجنبية[17].

وباسـتثناء دراسـة الأسـتاذ محمد المنوني التي اهتمت أساسا بالتعريف وعرض مادة ومضان موضوع البعثات، فإن بعض الدارسين الذين تطرقوا عرضا لجوانب من هذا الموضوع في سياق أبحاثهم، قد وقعوا في بعض الأخطاء نستدل بأمثلة منها:

لقد أشـار أحد الباحثين أن سـنة (1299هـ/1881م) سجلت تشكيل بعثة تخصص عشرة من أعضائها للدراسة في قيادة السفن والميكانيك، وأربعـة لتعلم العلوم البحرية، بينما وزع ثلاثون تقنيا في البحرية على بواخر الإنجليز والفرنسـيين والألمان والإسـبان والإيطاليين [18]. وهو تأويل خاطئ لما ورد في الرسالة السلطانية الخاصة بهذه البعثة[19]، إذ

14 - A.G.V « Rapport du stholl et C Maurois, Alger juin 1877, p50.
Miège (J.L), op.cité, T.IV, p97.

15 - ثريا برادة، مرجع سابق، ص227.

16 - عبد الغني سكيرج، مذكرة الزبير سكيرج، ص30.
أحمد معنينو، مذكرة طالب مغربي أرسل في بعثة مغربية إلى إيطاليا منذ ثمانين سنة، مجلة دعوة الحق، العدد الأول السنة الثانية عشرة، نوفبر 1968، ص145.

17 - A.E.P.C.P Maroc, n°26, Rapport : Tanger le 8 juin 1884 vol 48.
.E.P.C.P Maroc, n°26, Rapport : Tanger le 11 septembre 1881.

18 - إبراهيم حركات، مرجع سابق، ص38.

19 - رسالة من الحسن الأول إلى محمد بركاش بتاريخ 10 رجب عام 1299، أوردها ابن زيدان في العز والصولة، ج2، ص ص149-148 الإتحاف، ج2، ص ص471-470.

لم يتعد عدد أفراد هذه البعثة ثلاثون طالبا عوض خمسة وأربعون كما يستخلص من التأويل السابق.

كما ذكر أحد الدارسين أن السلطان الحسن الأول «وجه عددا من الشبان المغاربة لدراسة الطب في أوربا»[20]، واستنادا إلى ما توفر لنا من مادة، لا نعلم أن بعض طلبة البعثات قد تخصصوا في دراسة الطب[21]، بل الأمر كان يتعلق فعلا بمحاولة تكوين وإعداد طلبة في الميدان الطبي بالمستشفى الاسباني بمدينة طنجة وليس بأوربا، حيث يستفاد من بعض الوثائق الرسمية أن إسبانيا كلفت سفيرها بالمغرب بفتح مدرسة بطنجة، بهدف تدريس الطب الجراحي لمن ابتغى تعلمه كما تفصح عنه الرسالة السلطانية التالية: «الحمد الله وحده وصلى الله على سيدنا وولانا محمد وءاله، خديمنا الأرضى الحاج محمد بن العربي الطريس وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد، وصلنا كتابك وبطيه ما كتب لك به باشدور إسبانيا من أن دولتهم كلفت الحكيم الرسمي بفتح مدرسة بطنجة بقصد تعلم علم الطب الجراحي بها لمن أراد تعلمه وإمرته بإعلام حضرتنا الشريفة لنأمر بتوجيه من يتعلم بها ذلك في غير هذا صحبته والسلام 22 جمادى الثانية عام 1304»[22]. وفعلا سيتم الاهتمام بتكوين ستة طلبة مغاربة لا تفصح الوثائق عن أسمائهم بهذا المستشفى، على يد طبيب إسباني تحت نفقة المخزن وتأمينه لهم حاجاتهم ولوازمهم المختلفة من مؤنة وكسوة وغيرها[23]. وقد استمر تكوين هؤلاء إلى حدود عهد السلطان مولاي عبد العزيز[24]، تلك كانت بعض التوضيحات الأولية التي ارتأينا الوقوف عندها قبل التعريف بأهم البعثات التعليمية.

---

20 - عبد العزيز بنعبد الله، الموسوعة المغربية، الجزء الرابع مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المحمدية، 1401/1981، ص247.

21 - نستثني هنا حالتين، تتعلق أولاهما بأحد أولاد السقاط الذي رغب في تعلم علم الطب ورافق إحدى البعثات الموفدة إلى جبل طارق سنة (1293هـ/1876م)، أنظر بهذا الصدد:
رسالة من الحاجب الوزير موسى بن أحمد البخاري إلى باشا فاس تتعلق بطلبة مغاربة يتعلمون بجبل طارق مؤرخة بـ 3 رجب عام 1293/25 يوليوز سنة 1876م.
عن مجلة الوثائق: الجزء الثالث، ص ص460-459. والحالة الثانية تخص الطالب أحمد بن عبد الرحمان بن محمد بن قاسم التمسماني (ت عام 1928-1347م) الذي أحرز على شهادة في علم الطب بأوربا حسب ما أورده محمد المنوني نقلا عن مصادر خاصة أنظر: محمد المنوني، مرجع سابق، ص256.

22 - من وثائق خ.ع.ت، محفظة 5/55.

23 - من وثائق خ.ع.ت، محفظة 11/131.

24 - من وثائق خ.ع.ت، محفظة 15/107، محفظة 13/130، محفظة 18/94.

## 2) البعثات إلى مصر:

أول ما تجدر الإشـــارة إليه بخصوص هذه البعثـــات التي لا نتوفر بشـــأنها على معلومات كافية، أنها خلفت على قلة أعدادها نتائج فكرية تفوق بكثير تلك التي وصلتنا عن البعثات التي توجهت إلى مختلف الأقطار الأوربية، إذ يمكن اعتبار عبد الســـلام العلمي (ت عـــام 1323هـ/1905م)[25] أحـــد أعضاء هذه البعثات من أبـــرز مثقفي عصره[26] بالنظر إلى ما خلفه من تآليف عديدة في مواضيع علمية متنوعة[27].

ومـــن الملاحظ أيضا أنه إذا كانت أغلب البعثات التي أرســـلت إلى أوربا كانت في الغالب بقصد تحصيل مختلف أنواع العلوم العســـكرية وغيرها، فإننا نجد بعض البعثات[28] التي قصدت مصر قد ارتبط هدف إرســـالها بالحاجة إلى توفير الكفاءة المحلية اللازمة لتسيير مؤسسة المطبعة التي كان من المنتظر من إدخالها أن تساهم في تحديث البلاد وأن تعمل على توسيع دائرة وحجم النشاط الفكري[29].

ومـــن أول وأهم هـــذه البعثات التي توجهـــت إلى مصر على عهد الخديوي محمد سعيد باشـــا لتلقي العلوم الرياضية[30]، تلك التي كان

---

25 - عن ترجمته وأعماله أنظر:

محمد الأخضر، الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، ص ص460-456.

محمد المنوني، مرجع سابق، ص ص244-240.

Marthe et Edmond Couvion/ Kitab haayane al Mahrib Aksa-esquise générale des Maghreb de la Genèse à nos jours et livre des grands du Maroc, librairie orientaliste, Paul Guethner, paris 1939, pp474-475.

26 - عبد الله كنون، أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، ص20

27 - له تآليف قبل ذهابه إلى مصر، وأخرى بعد عودته شملت ميدان الطب ثم الفلك والرياضيات، وقد وقفنا على نماذج منها بالخزانة الصبيحية بسلا.

28 - تضمن العدد الثاني من مجلة "الوثائق" أربع مراسلات بخصوص هذه البعثة (1285-1283هـ/1868-1866م) تبودلت بين أمين الأمناء الحاج محمد بن المدني بنيس ووكيل المغرب بمصر محمد فروخ، وتكشف هذه المراسلات عن مجموع المصاريف التي أنفقت على المتدربين أنظر:

مجلة الوثائق، العدد الثاني صفحات 435-434-433-432-431-420.

29 - جرمان عياش، دراسات في تاريخ المغرب، ص142.

30 - يلاحظ بصدد هذه البعثة اضطراب معلومات ابن زيدان عنها في مؤلفاته، فبينما ذكر في "النهضة العلمية على عهد الدولة العلوية"، أن إيفاد البعثة قد صادف فترة حكم محمد علي، نجده يشير في "الدرر الفاخرة" أن ذلك تزامن مع فترة محمد سعيد باشا، كما يدرج خطأ اسم عبد السلام العلمي ضمن أفرادها في حين يتبين من المصادر أن هذا الأخير قد أوفده السلطان الحسن الأول سنة (1291هـ/1874م) لدراسة الطب بمصر. أنظر ابن زيدان، النهضة العلمية على عهد الدولة العلوية، (أوراق منها) خ.ح. رقم 3177، ص71.

- ابن زيدان، الدرر الفاخرة، ص95. GOUVION (M.E), op.cité, pp 574-575.

من أعضائها محمد بن كيران وأحمد شهبون الذي رسم مجموعة من الخرائط ضمنها في كتاب عنوانه «كتاب الجغرافية العامة»[31] إضافة إلى طلبة آخرون حسب ما أورده ابن زيدان[32]، دون أن يفصح عن المصادر التي استقى منها معلوماته، ولا تاريخ إرسالها بالتحديد[33].

ومن بعد هذه البعثة الأولى أوفد السلطان محمد بن عبد الرحمان بعثتين، إحداهما تتعلق بثلاث صناع رغب في تعليمهم بعض الفنون العسكرية[34]، والأخرى كانت تخص طالبا وهو عبد القادر الشفشاوني ليتلقى تكوينا في فن الطباعة حسب ما يفيده نص الرسالة التالية:

«الحمد لله: محبنا الأعز الأرضى السيد الحاج محمد بن المدني بنيس، أمنك الله وسلام عليك ورحمة الله عن خير مولانا نصره الله وبعد، فإن طالبا من أهل الشاون وجهه سيدنا أيده لمصر بقصد تعلم كتابة المطبعة وكتب لوكيل المغاربة بمصر بأن تقوم بمؤنته وقال أيده الله أن الحاج محمد بن المدني بنيس ينفذ له ما يعيره في مؤونته من عند شريكه بمصر أو أحد أصحابه وعليه فلا بد أكتب لوكيل المغاربة بذلك وبين له من عند من يقبض ذلك ولا بد عن أمر سيدنا أيده الله وعلى المحبة والسلام في 11 صفر عام 1283، الطيب بن اليماني أمنه الله»[35].

وبموازاة تطور العلاقات الودية مع مصر على عهد الخديوي إسماعيل باشا[36] واصل السلطان محمد الرابع سياسة إيفاد البعثات التعليمية إلى مصر التي كانت متقدمة عن المغرب في أكثر من مجال[37]، وهكذا شهدت سنة (1283هـ/1866م) تعيين وإعداد بعثة رابعة تضم ثلاثين فردا أوفدهم السلطان إلى مصر ليتلقوا تكوينا في ميدان الفنون الحربية[38]، حسب ما تفصح عنه الرسالة السلطانية التالية:

31 - أحمد شهبون، كتاب الجغرافية المغربية وصورة الفلك خ.ح.ر رقم 11654.

32 - ابن زيدان، الدرر الفاخرة، ص95.

33 - وقد حدد المنوني تاريخ ذهاب هذه البعثة ما بين عام 1276هـ/1859م إلى عام 1280هـ/1863م).
محمد المنوني، مرجع سابق، ص156.

34 - نفسه، ص157.

35 - مجلة الوثائق، العدد الثاني، ص. ص421-420.

36 - راجع تفاصيل هذه العلاقات عند:
محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، ج1، ص ص66-61.

37 - إبراهيم حركات، التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية ، ص28 وص35.

38 - محمد المنوني، مرجع سابق، ص157.

«خديمنا الأرضى الحاج محمد بن سعيد السلاوي، وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبركاته، وبعد، فإن هذه الخطط الجهادية من علم البحر وتطبجيت ضعفت في الغرب حتى كادت أن تفقد، وقد اعتنى بها ملوك الإسلام في هذا الوقت فانتفعوا بها نتفاعل بينا، وأدركوا منها ما لم يدركه غيرهم، وق بلغ إسماعيل باشا اهتمامنا بالأمور الجهادية حيث وجهنا له من يتعلم عمل البارود وغيره على الكيفية المعلوفة عندهم، فأجاب بأنه اعتنى بأمرهم (...)، فاقتضى نظرنا تعيين ثلاثين من الأولاد الصغار النجباء، وتربيتهم بحضرتنا الشريفة في تعلم ما لا بد منه من مقدمات ذلك، من حساب وتوقيت وهندسة وشبه ذلك ثم نوجههم بعد لمصر، وأردنا انتخابهم من أولاد الجيش البخاري وأهل فاس وأهل العدوتين وأهل الصويرة فنأمرك أن تنتخب أولاد خدامنا أهل سلا الصغار ثلاثة[39]، وقد أمرنا عامل الرباط بانتخاب ثلاثة من أولاد الرباط ليكون ثلاث طبجية وثلاثة بحرية (...) وحين تعيينهم وجهوهم لحضرتنا الشريفة، بعد أن يدفع لهم الأمناء ما يتزودون به، ويكثروا لهم ما يركبون عليه واصلين لحضرتنا العالية بالله فأطلعهم على كتابنا هذا ليعلموا بمقتضاه والسلام في 5 حجة الحرام عام 1283م»[40].

أما السلطان الحسن الأول فقد اكتفى بإيفاد بعثتين فقط إلى مصر، وذلك في بداية عهده، ضمت إحداهما مجموعة من الطلبة مع اثنين من رجال الصناعة[41]، بينما كان قوام البعثة الثانية الطالب أحمد عبد السلام العلمي الذي قصد الديار المصرية لدراسة علم الطب كما يستفاد من أعماله[42].

---

39 - لقد عرف الباحث الحاج أحمد معنينو في مقال له عن البعثات بأسماء الطلبة الثلاثة المختارين من مدينة سلا وهم: المكي الزواوي ومحمد بلمعطي السفياني، ومحمد بن المختار معنينو.
الحاج أحمد معنينو، تكوين الأطر في عهد الحسن الأول، مجلة دعوة الحق، العدد الرابع، السنة الثانية عشرة، ذو الحجة 1388هـ/مارس 1969، ص179.

40 - من وثائق أسرة آل بن سعيد، أوردها المنوني في كتابه: مظاهر يقظة المغرب الحديث، ج1، ص ص158-157 وأنظر أيضا الحاج أحمد معنينو، المرجع السابق، ص179.

41 - محمد المنوني، مرجع سابق، ص158.

42 - أنظر نص الإجازة التي جاز عليها والمنشورة في كتاب COUVION(M et E), op.cité, p574.
أحمد العلمي، ضياء النبراس في حل مفردات الإنطاكي بلغة أهل فاس، المطبعة الحجرية، فاس 1318، ص59.

### 3) البعثات التعليمية إلى أوربا:

يقترن حدث إرسال البعثات التعليمية بعهد السلطان الحسن الأول إلى حد أصبحت تعرف عند الأوساط العامة بالبعثات الحسنية، غير أن هذا لا يعني أن مبادرة هذا السلطان بإيفاد طلبة للدراسة بمعاهد أوربا كانت الأولى من نوعها، بل نجد بعض المصادر تتحدث عن مبادرات مماثلة سابقة عن هذه الفترة، وإن لم تكن بنفس الكثافة والانتظام اللذين ميز البعثات الحسنية.

ويمكن تأريخ البدايات الأولى لإرسال البعثات التعليمية إلى أوربا بتجربة السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1205-1171هـ/-1757 1790م) الذي أرسل بعض الشبان المغاربة للدراسة بأوربا، حسب إشارة غير مؤكدة أوردها المؤرخ الصديقي في مؤلفه بقوله: «...فمنهم ثلاثة يقال أن سيدي محمد بن عبد الله كان وجههم لأوربا لتلقي علم الهندسة، ولم نتصل بتفصيل ذلك...»[43].

وإذا علمنا أن هذا السلطان قد أولى عناية فائقة لشؤون البحر وحرص على بناء أسطول قوي من حيث العدة والتأطير[44]، فإننا لا نستبعد صحة هذه الواقعة خصوصا وأن بعض الكتابات الأجنبية تثبت ذلك، وإن بصيغة مغايرة نسبيا «...وجه السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى كل من السويد وإنجلترا شبانا من مدينة الرباط للتدريب على بناء السفن والمراكب»[45].

ومن هذه التجارب الأولى تذكر بعض المصادر أن السلطان عبد الرحمان بن هشام قد وجه بعثة طلابية مكونة من أربعة أفراد إلى أوربا لدراسة الهندسة[46]، كما نعثر على إشارة أخرى تفيد أن السلطان

---

43 - محمد بن سعيد الصديقي، إيقاظ السريرة في تاريخ الصويرة، صص 25-24.

44 - عن هذا الاهتمام يراجع:
محمد الضعيف، تاريخ الضعيف، ص ص170-169.
ابن زيدان، الإتحاف، ج3، ص ص265-256.

45 - CAILIE (J) : « La petite histoire de Rabat, chérifienne d'éditions et de publicité, Casablanca, p132.

وعن هذه البعثة كتب عبد الهادي التازي منوها: «...وهل ننسى المبادرة الرائدة التي قامت بها الدولة منذ عهد الملك محمد الثالث بإرسال بعثة دراسية للخارج في سبيل تكوين أطرها».
عبد الهادي التازي، حرص ملوك المغرب عبر التاريخ على تحسين نوعية الأطر، ص27.

46 - أبي عبد الله العبدي الكانوني، جواهر الكمال في تراجم الرجال، الجزء الأول، المطبعة العربية، الطبعة الأولى

محمد بن عبد الرحمان قد أرسل بعثة طلابية إلى إحدى الدول الأوربية لدراسة وتعلم فن الحرب حسب قول محمد المشرفي: «...ووجه لتعلم الهندسة والحرب عددا من الطلبة أبناء المسلمين لبلاد الروم، فتعلموا ما يكفي من ذلك وما يحتاج إليه من علم الهندسة وكيفية حرب النظام...»[47].

وإذا كانت هذه المبادرات الأولى قد تمت في نطاق محدود جدا، ولم تخلف أي أثر يذكر، فإن سياسة إيفاد البعثات قد شهدت نشاطا مكثفا ومتواصلا، وشملت عدة بلدان أوربية على عهد السلطان الحسن الأول، وقد كانت أول وجهة قصدتها البعثات هي جبل طارق.

### البعثات العسكرية إلى جبل طارق

تبين فيما سبق أن المسألة العسكرية قد حظيت بعد هزيمتي إيسلي وتطوان باهتمام واسع من أغلب الأوساط المغربية، من مخزن وعلماء وسفراء وكتاب وشعراء[48]، وأصبح تحديث مؤسسة الجيش، والعمل على تأسيس قوة مسلحة ومدربة على النمط الحديث، مطلبا موضوعيا تقتضيه الوضعية المتردية التي آلت إليها هذه المؤسسة.

لقد كان انعدام تدريب القوات العسكرية، وجهلها لفنون وأساليب الحرب الحديثة، من أبرز مواطن ضعف الجيش المغربي كما كشفت عنه المواجهتان والكتابات المغربية والأجنبية، التي ظهرت عقبهما في شكل انتقادات للقوات المغربية من حيث تنظيمها وتعليمها وتدريبها[49]، وتأكد أن الحفاظ على الأسلوب العربي القديم والمتمثل في طريقة الكر والفر لم يعد مجديا[50]، ولا قادرا على مواجهة قوات منظمة تتحرك وفق إستراتيجية وطرق درستها بالمعاهد المختصة. من هنا ستولى

---

الدار البيضاء 1356، ص ص14-13.

وقد اكتفى بذكر اسم أحد طلبة هذه البعثة وهو أحمد بن حيدة بن المهدي بن عبد السلام كراو والاسفي (ت1293)، ص13.

47 - محمد المشرفي، الحلل البهية، ص223.

48 - أنظر الفصل الأول من هذه الدراسة.

49 - كأمثلة نحيل على:

Xavier Dumieu : « Le maroc en 1844 la sitiation, les mœurs, les ressources de l'empire », in R.K.M. 1er octobre 1844 pp 249-660.

Charles de Mazude : « la guerre du maroc, in R.M.M Juillet 1860, pp427-457.

50 - الناصري، الاستقصا، الجزء التاسع، ص ص88-87.

لمسألة تدريب القوات المغربية داخل المغرب وخارجه الأولوية[51] ضمن التدابير المتخذة من طرف المخزن بهدف تحديث النظام العسكري وتطويره، وقد كان السلطان الحسن الأول نفسه ميالا منذ صغره إلى الفن العسكري حسب ما تؤكده بعض المصادر[52]، لذا نجده بموازاة استقدامه البعثات العسكرية الأجنبية لتدريب الجنود الرسميين على النمط الحديث قد حرص على مواصلة إرسال بعثات من الجنود إلى جبل طارق التي شرع فيها أبوه[53]، حيث أوفد هذا الأخير ما بين سنتي (1870-1873م/1287-1290هـ) حوالي مائتي جندي إلى جبل طارق للتدريب العسكري[54].

وتتميز هذه البعثات عن غيرها التي قصدت المعاهد الأوربية بطبيعة أهدافها العسكرية المحضة، باعتبار أن المخزن هدف من إرسالها تدريب عناصرها على الحركات والطرق الحديثة، واستعمال الأسلحة العصرية، في أفق أن يتولوا بعد إنهاء فترة تكوينهم مهمة وتأطير وتدريب قوات الجيش المغربي[55]، ويصدق هذا الهدف العسكري المحض أيضا على الطلبة الذين كانوا يرافقون أحيانا بعض هذه البعثات لتلقي المعارف الأولية في ميدان الطب العسكري.

وقد كانت هذه البعثات تقصد جبل طارق في أفواج متفاوتة العدد، وتخضع خلال مدة قد تستغرق سنة أو سنتين لتداريب عسكرية مكثفة ومتنوعة على النسق البريطاني خاصة في ميدان المدفعية، وكان كلما أنهت بعثة مدة تدريبها تعود إلى المغرب لتعوضها بعثة أخرى[56]،

51 - برادة ثريا، مرجع سابق، ص231.

52 - تحفل الوثائق والكتابات الأجنبية بشهادات دالة على مدى اهتمام السلطان الأول ورغبته في تطوير فعالية قواته خاصة في ميدان المدفعية، من هذه المظان نذكر:

A.G.V. Rapport du C. Stgollel c Maurois, Alger juin 1837, p37.

CHARMES (Gabriel), « une ambassade au Maroc, ed, CALMAN Levy paris, 1877, pp220-221.

COUFOURIER (l) : « Chronique de la vie de My Hassan, archives Marocains volume8, année 1908, p355.

53 - LAROUI (Abd), op.cité, p282.

54 -Miége (J.L), op.cité T.III, p222.

55 - A.E.B. Rapport, Bruxelles 12-8-1877.
Armand (L) ; « Au temps des Mehallas ou le Maroc de 1860, à 1912 et Atlantique, Casablanca, 1952, pp53-54.

56 - Miége (J.L), op.cité T.III, p222. Et p225.

ومن أهم هذه البعثات نذكر بالخصوص ثلاثة بعثات رئيسية، أولاها أوفدها الحسن الأول سنة 1293هـ/1876م، وكانت تتركب من أربعة وعشرين جنديا برئاسة قائد المائة الأول علال بن بلا المراكشي[57]، وقد رافقهم شاب مغربي من فاس لتعلم الطب في المستشفى العسكري بجبل طارق[58]، كما تفصح عنه الوثيقة التالية:

«الحمد الله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وله وصحبه وسلم أخانا الأعز الأرض الفقيه النبيه الأحضى الباشا المرتضى سيدي عبد الله بن أحمد رعاك الله وسلام عليك ورحمة الله عن خير مولانا نصره الله، وبعد فإن ولد السقاط تعلق بالله بتعلم علم الطب فوجهناه زائدا على العدد 24، الذي توجه بقصد السفر لجبل طارق، فيصير جميعهم خمسة وعشرين عسكريا، وأعلمناك لتجري مجراهم وتلحقه بهم وتأمر الأمناء أن يصنعوا له من الكسوة والفراش ما جعلوه لا حد الأنظار المذكورين عن أمر سيدنا أيده الله وعلى المحبة والأخوة والسلام في 3 رجب عام 1293 موسى بن أحمد لطف الله به»[59].

وبعد إنهاء هذه البعثة فترة تكوينها، وبناء على طلب الكولونيل كامرون الذي كان مكلفا بمهمة تدريب أعضائها والإشراف عليهم[60]، تم إيفاد بعثة ثانية في السنة الموالية تضم خمسة وثمانين فردا من بينهم خمسة طلبة لتعلم الطب العسكري وعشرة جندي لتطوير معارفهم في ميدان المدفعية[61]، وبعد أن قضى هؤلاء سنة في التكوين بجبل طارق، تم تعويضهم ببعثة ثالثة مكونة من مائة وسبعين جنديا، تخصص خمسة وأربعون منهم أيضا في تعلم فن المدفعية[62]، وبذلك بلغ مجموع

---

57 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص ص152-151.
ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص467.

58 - ب.ج. روجرز، تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية في عام 1900، ص. 244.

59 - مجلة الوثائق، العدد الثالث، ص ص460-459.

60 - ب.ج.روجرز، مرجع سابق، ص244.
محمد أبو طالب، مواقف بريطانية من مغرب القرن التاسع عشر، ص300.

61 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص152.
ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص467.
ب.ج.روجرز، مرجع سابق، ص244.

62 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص153.
ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص467.

الجنود المغاربة الذين تدربوا على أساليب الحرب البريطانية بجبل طارق حوالي مائتين وثمانين خلال السنوات الأولى من عهد السلطان الحسن الأول.

## البعثات إلى إنجلترا:

لقد كان توجيه البعثات التعليمية إلى أهم البلدان الأوربية من الإجراءات التحديثية التي أولاها السلطان الحسن الأول اهتماما كبيرا منذ بداية حكمه، حيث تكشف لنا الوثائق الإنجليزية عن رغبة في إيفاد ثلاثة من الشبان المغاربة للدراسة في معهد ساند هرست والأكاديمية العسكرية في ولويش[63]، وما أن علم القنصل البريطاني دريموند هاي بذلك حتى بادر ببعث رسالة بتاريخ 15 يوليوز 1875، يبلغ فيها اللورد دربي وزير الخارجية البريطانية وقتذاك برغبة السلطان[64]، مبديا تزكيته لهذه الرغبة بقوله: «تبدو بوضوح رغبة السلطان الشاب في إصلاح وتطوير بلاده (...) وأعتقد بضرورة تقديم كل تسيير معقول من جانب حكومة جلالتها للعاهل الشاب لتمكينه من التحرك تجاه طريق الإصلاح»[65].

وقد كان من المنتظر أن يأتي الرد البريطاني إيجابيا، خصوصا إذا علمنا أن إنجلترا كانت في مقدمة الدول الأوربية التي تطالب المخزن بإصلاح بنياته وتحديث مؤسساته التقليدية، حتى وإن كان هذا الإصلاح موضوع المراسلة يختلف بكثير عن نوعية الإصلاحات التي كان القنصل البريطاني يلح في أكثر من مناسبة على إدخالها[66] والتي كانت بطبيعة الحال ترمي إلى خدمة مصالح بريطانيا بالمغرب وفعلا فقد عبر اللورد دربي في رسالته الجوابية على استعداد المسؤولين الإنجليز لاستقبال الشبان المغاربة بالمعاهد المذكورة[67].

63 - ب.ج.روجرز، مرجع سابق، ص243.

64 - نفسه، نفس الصفحة.

65 - نفسه، نفس الصفحة.

66 - LAROUI (Abd), op.cité, p255.256.
Miége (J.L), op.cité T.III, p216.

67 - ب.ج.روجرز، مرجع سابق، ص243.

وتتكامل الوثائق المغربية من جهتها مع ما أوردته الوثائق البريطانية، حيث نعلم منها أنه تم تعيين خمسة عشر طالبا سنة (1291هـ/1874م) بهدف توجيهم إلى عدة بلدان أوربية من بينها إنجلترا[68]، وفي السنة الموالية قصدوا مدينة طنجة ليخضعوا كمرحلة أولى إلى تكوين أولي في لغات هذه البلدان كما تفصح عنه إحدى الرسائل السلطانية[69]، وقد وقع الاختيار ضمن الخمسة عشر طالبا على ثلاثة منهم للتوجه إلى إنجلترا وهم السيد محمد الجباص الفاسي[70] والسيد زبير سكيرج[71]، والسيد إدريس بن عبد الواحد[72]، وبعد تلقيهم تكوينا مكثفا لتعلم اللغة الأنجليزية بطنجة[73]، تم إرسالهم سنة (1293هـ/1876م) إلى إنجلترا، حيث قضوا زهاء أربع سنوات من الدراسة بمدرسة المهندسين العسكريين في شاتهام Chatham[74].

ويستخلص من الوثائق المغربية والإنجليزية على السواء أن أفراد هذه البعثة قد استفادوا من مقامهم بالديار الإنجليزية وعادوا منها بخبرة علمية لا تقل شأنا، فالتقارير البريطانية تؤكد على اجتهادهم وتقدمهم السريع في أعمالهم[75]، وهو نفس التنويه الذي تفصح عنه الرسالة التالية التي بعثها النائب محمد بركاش إلى السلطان الحسن الأول يخبره فيها برجوع الطلبة الثلاثة من إنجلترا «الحمد الله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه، أدام الله العز والنصر والتمكين والظفر والتأييد والفتح المبين لسيدنا ومولانا أمير

---

68 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص465.
ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص150.

69 - رسالة من السلطان الحسن الأول إلى باشا طنجة الجيلاني بن حمو البخاري بتاريخ 25 رجب عام 1292هـ مجلة الوثائق، العدد الثالث، ص442.

70 - وردت ترجمته في فهرست أبي العباس المد سكيرج: "قدم الرسوخ فيما لمؤلفه من الشيوخ، خ.ع.ر رقم د 3844، ص ص162-165.

71 - أنظر ترجمته في المصدر السابق، ص ص165-167.

72 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص150.
ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص466.

73 - ب.ج.روجرز، مرجع سابق، ص248.

74 - ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص 466.
عبد الغني سكيرج، مذكرة الزبير سكيرج، ص29.
Miége (J.L), op.cité T.III, p222.

75 - ب.ج.روجرز، مرجع سابق، ص248.

المؤمنين ابن سيدنا ومولانا أمير المؤمنين، بعد تقبيل حاشية البساط الشريف وأداء ما يجب لمولانا من الإجلال والتشريف، ينهي لكريم علم سيدنا أيده الله ونصره أن الطلبة الثلاثة الذين كان أمر سيدنا أيده الله بتوجيههم للوندريز بقصد التعلم، فقد تعلموا واستوفوا المقصود، سعادة مولانا أعـزه الله في هذه المدة القريبة التي غيرهم يستحق ضعفها وقد مدحوهم لا في القابلية والفهم والنجابة، ولا في المروءة ومقابلة ما كانوا بصدده، وقد وردوا الآن وهم المذكورون بالطرة وأخبرنا سيدنا أيده الله بذلك ليأمرنا بما يقتضيه نظره السديد في شأنهم طالبا من مولانا رضاة، والسلام في 1 ربيع الأول 1297 خديم سيدنا أعزه الله محمد بركاش لطف الله به»[76].

ولما كان السلطان الحسن الأول عازما على بناء أسطول بحري وإنشاء قوة بحرية[77]، أرسل عددا من الشبان المغاربة إلى مختلف الدول الأوربية للتدريب في ميدان البحرية، ومن بينها إنجلترا[78] التي قصدها أربعة طلبة ليتخصصوا تفي دراسة الفنون الحربية واثنان في فن بناء السفن[79].

وبالإضافة إلى هذه البعثات الطلابية، تتحدث بعض الدراسات عن توجه مجموعة من المغاربة سنة 1302هـ/1884م على دفعات إلى بريطانيا بهدف تعلم صناعة الأسلحة[80]، كما أشار المنوني من جهته أن بعض الأفراد قد درسوا بإنجلترا كالمهندس إدريس الشرادي[81]، ومحمد بن لحبيب الفيلالي المكناسي الذي درس الميكانيك وخلف عدة آثار تشهد على تكوينه في هذا الميدان[82].

76 - عن مجلة الوثائق، الجزء الثالث، ص494.

77 - ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص ص 508-503.

78 - ب.ج.روجرز، مرجع سابق، ص248.

79 - من رسالة من الحسن الأول إلى محمد بركاش بتاريخ 10 رجب 1299 أوردها ابن زيدان في : العز والصولة، ج2، صص149-148.
-الإتحاف/ ج2، ص ص471-470.

80 - Miège (J.L), op.cité, T.IV, p97.

81 - محمد المنوني، مرجع سابق، ص256.

82 - نفسه، وللمزيد من التفاصيل، أنظر صفحات 253-252.

## البعثات إلى ألمانيا:

على غرار باقي الدول الأوربية، حرصت ألمانيا بدورها على اغتنام أية فرصة أو وسيلة لتوطيد علاقتها بالمخزن، وكسب ود صداقة السلطان، بغرض عقد معاهدات تكسبها امتيازات اقتصادية داخل البلاد.

واستنادا إلى ما أوردته الوثائق المغربية والأجنبية، وبعض الدراسات الحديثة التي عالجت موضوع العلاقات المغربية الألمانية في الربع الأخير من القرن الماضي[83]، يتضح أن ألمانيا التي دخلت متأخرة ميدان التناقض الأوربي على المغرب قد تمكنت فعلا من تحقيق نفوذ واسع في فترة وجيزة داخل الأوساط المخزنية[84]، وكانت حصيلة المساعي التي بذلها ممثلو ألمانيا بالمغرب، أن توطدت روابط البلدين خلال الفترة الممتدة بين سنتي (1894-1885) [85]، كما تشهد عليها اللهجة المميزة للمراسلات بين الطرفين[86]، ونشاط التبادل الدبلوماسي بين البلدين[87]، كما أصبحت ألمانيا تشكل قوة ذات وزن، يراعيه السلطان الحسن الأول في تصريف توجهه السياسي المرتكز على استغلال تضارب مطامع الدول المتنافسة على المغرب، للحفاظ على استقلال البلاد[88].

ولعل خير معبر عن تزايد النفوذ الألماني هو ما حققته معامل وشركات السلاح الألمانية من تقدم واضح على حساب غيرها من الشركات الأوربية خاصة قطاع المدفعية[89]، حيث استطاعت شركة كروب Krupp بعد فشل عدة محاولات، أن تتصدر قائمة الشركات

---

83 - GUILEN (PIERRE), op.cité.

جرمان عياش، دراسات في تاريخ المغرب، ص ص242-223. و ص ص288-242.

84 - جرمان عياش، نفس المرجع، ص288.

85 - نفسه، ص224 و ص243.

86 - تحتفظ الخزانة العامة بتطوان بنماذج من هذه المراسلات التي تبودلت بين كل من السلطان الحسن الأول وممثله في طنجة والمفوضية الألمانية بنفس المدينة.

يمكن الرجوع إلى: محفظة -10/74 محفظة -51/26 محفظة -7/18 مح -7/28 مح10/133.

87 - GUILEN (PIERRE), op.cit, pp70-74.

- ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص469.

-عبد الهادي التازي، لثغور المغربية المحتلة بين المواجهة المسلحة والتدخل الدبلوماسي، مجلة البحث العلمي، ع27 يناير-يوليوز 1977، ص16.

88 - جرمان عياش، دراسات في تاريخ المغرب، ص ص242-223. و ص ص240-237.

89 - ثريا برادة، مرجع سابق، ص276.

التي تبيع للمغرب أسـلحتها[90]، وذلك بتأثير من ابن النائب السلطاني محمد بركاش الذي تخصص في عقد هـذه الصفقات[91]، وأمام تزايد هـذا النفوذ وبداية الاعتمـاد على الخبرة التقنيـة الألمانية في إنجاز بعض المشاريع الإصلاحية[92]، كان من الطبيعي أن تكون ألمانيا إحدى الدول الأوربية التي ستسـتضيف دوريـا بعثات مغربية، والتي يلاحظ بخصوصها غلبة الطابع العسـكري أكثر من غيره على تعليمها، حيث تم إيفاد عدة مدفعيين مغاربة إلى ألمانيا بهدف تلقيهم تدريبا في ميدان الرماية بمدينة إيسن[93].

وقبل التعريف بهذه البعثات العسـكرية، يبدو من المناسب الوقوف عنـد أهم بعثة طلابية-في نظرنا قصـدت ألمانيا، حيث تلقى أعضاؤها تكوينـا معمقا إلى حد ما في اختصاصـات متنوعة كانت مفقودة في نظام التعليم المغربي وقتذاك، وقد تشكلت هذه البعثة من ثلاثة طلبة هم الميلودي الرباطي والحسـين الودي وعبد السـلام الدسولي[94]، وهؤلاء كان قـد وقع الاختيار عليهم من بين الخمسـة عـشر طالبا الذين تم تعيينهم سـنة 1291هـ/1874م بهدف تلقيهم تكوينـا إعداديا في طنجة، ليـتم توزيعهم من بعد على بلدان أوربية مختلفة[95]، فكان نصيب الثلاثة المذكورين أن توجهوا إلى ألمانيا.

وعن هذه البعثة وتاريخ إرسـالها أشار أحد الباحثين اعتمادا على الوثائق الألمانية أن النائب السـلطاني محمد بركاش قد استفسر سنة 1975م الممثـل الألماني (ويـبر Z.H.Weber) لمعرفة مـا إذا كانت حكومة

90 - GUILEN (PIERRE), op.cit, p85.

91 - من وثائق وزارة الخارجية الفرنسية باريس.
A.E.P.C.P.Maroc, n°46, Rapport, Tanger 3 octobre 1885, vol.49.
A.E.P.C.P.Maroc, n°48, Rapport, Tanger 8 juin vol.48.

92 - من وثائق وزارة الحربية الفرنسية بفانسان.
A.G.V.Rapport du C. Thomad, Fez 31 décembre 1889, p4.
من وثائق خ.ع.ت، محفظة 6/26.
.Miège, (J.L), op.cité, T.III, p101

93 -GUILIEN (P), op.cité, p85.

94 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص151.
ابن زيدان،الإتحاف، ج2، ص466.
ويستفاد من م.ط.ك أن أحد الطلبة الثلاث قد تخصص في دراسة علم الكيمياء والمعادن.

95 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص150.
مجلة الوثائق، العدد الثالث، ص ص142-141.

ألمانيا مستعدة لاستقبال طلبة مغاربة ليدرسوا بإحدى معاهدها، ومنذ ذلك التاريخ لم يفاتحه في شأن هذا الموضوع حتى حدود سنة 1881م، حيث عبر النائب محمد بركاش من جديد لوبير عن نية السلطان في إيفاد ثلاثة شبان مغاربة إلى ألمانيا[96]، وفعلا تم تنفيذ المشروع بعد أن تلقى هؤلاء الشبان بعض المبادئ الأولية في اللغة الألمانية على يد الألماني (وينخ Weng) الذي قدم إلى مدينة طنجة خصيصا للقيام بهذه المهمة[97]، وبعد إنهائهم فترة التأهيل الأولي توجهوا إلى ألمانيا، حيث تابع عبد السلام الدسولي دراسته بمدرسة المناجم بـ Klaus-thal والحسين الودي بمدرسة ضباط الهندسة، والميلودي الرباطي بالأكاديمية العسكرية ببرلين[98].

عدا هذه البعثة الرئيسية، فإن باقي البعثات[99] قد أرسلت على دفعات إلى ألمانيا خلال سنتي (1303-1302هـ/1885-1884م) وهي المدة التي تؤرخ لبداية فترة متطورة من العلاقات المغربية-الألمانية، ففي خريف سنة (1302هـ/1884م) أوفد السلطان خمسة عشر جنديا إلى ألمانيا[100] وهم السباعي البرطاعي وأحمد الرحماني، ومحمد القصري، وابن ميلود المكناسي، ومحمد العوني، وأحمد العمري، ومبارك العبدي، ومحمد الدودي والعربي المكناسي، ومحمد السوسي، ومحمد المسفيوي، وسعيد الحمري ومحمد بن الحاج الهشتوكي، ومحمد الوعدودي، وابن أبي شعيب الدكالي[101].

وبعد أن مكث هؤلاء قرابة ثمانية أشهر قضوها في التجريب على التمارين العسكرية داخل الحرس الألماني(102)، عادوا إلى المغرب،

---

96 - GUILIEN (P), op.cité, p86.

97 - GUILIEN (P), op.cité, p86.

98 -Ibid,p86.

99 - يستعصي على الباحث، استنادا إلى السجل الذي أورده ابن زيدان في مؤلفه "العز والصولة" تقديم صورة واضحة ودقيقة حول البعثات الموفدة إلى ألمانيا، فضلا عن أن حديثه عنها في مؤلفه "الاتحاف ج2"، جاء غير مطابق أحيانا لما ورد في السجل، ويشوبه نوعا من الارتباك، لذا حاولنا مقابلة وتكميل هذه المادة بما أوردته بعض الوثائق الأجنبية معتمدين أساسا على دراسة بيير كين P.GUILLEN.

100 - Quedenfedt : Mitteillungen aus Maroko und dem nord Westtichen Sahara Gebet, in –Jahresbrebricht der gerg, ges, ZU, Greifs wald, 1888, p3.

101 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص153.

102 - Quedenfedt : op.cité, p3.

وأسندت إليهم مهمة تأطير وتدريب القوات المغربية بمدينتي آسفي والصويرة[103].

وقد أورد ابن زيدان بشأن هذه البعثة رسالة بعثها السلطان الحسن الأول إلى الإمبراطور غليوم الثاني عاهل ألمانيا على يد محمد بركاش ابن النائب السلطاني الذي أوفده في مهمة دبلوماسية[104]، وتبرز هذه الرسالة مدى الاهتمام الفائق الذي كان يوليه الحسن الأول لموضوع البعثات وحرصه على إنجاح هذه التجربة كما يتضح من نص الرسالة:

«...أما بعد فإن المحبة والصحبة والصداقة والثقة وحسن الظن والاعتقاد الجميل، أوجبت توجيه أشخاص نجباء أخيار من هذه الآيالة لبلادكم الرفيعة المصونة بقصد الريادة في تنقيح ذكائهم، وتهذيب أخلاقهم بآداب السياسات العالمية، من العلوم العسكرية والطبجية، وما في معناهما التي فقتم بها، وانفردتهم بتحرير علومها وتدقيقها ومعرفتها على حقيقتها، وانتخبنا من يتوجه معهم وهو خديمنا الأرضى، الأنجح، الحاج محمد، ابن خديمنا الأرضى، الأنصح الأرشد، الخير، النائب محمد بركاش ونحن على يقين من أنكم تقابلونه بزائد القبول، وتبلغونه من الاعتناء والمبرة غاية المأمول، ويحظى من معه من المتعلمين المشار إليه من جانبكم الرفيع بتمام القبول، والبر والاعتناء حتى يحصلوا في أقرب مدة -على المراد- كما ينبغي ويراد...وحرر في 24 محرم فاتح 1302»[105].

وفي نفس السنة توجهت بعثة أخرى تتركب من اثني عشر جنديا لدراسة الفنون الحربية بالمدرسة العسكرية بألمانيا[106]، وبعد عودتهم في أكتوبر من السنة الموالية حسب ما تؤكده الوثائق الأجنبية[107]، تم إلحاقهم كضباط في الجيش السلطاني[108].

---

103 - Quedenfedt : op.cité, p4.

ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص154.

104 - ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص358، وص468.

105 - أوردها ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص154.
ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص468، وص469.

106 - GUILIEN (P), op.cité, p85.

107 - من وثائق وزارة الخارجية الفرنسية

A.E.P.C.P. Maroc, n°46, Rapport, Tanger 3octobre 1885, vol.49.

108 - GUILIEN (P), op.cité, p85.

وقـد اقتضى شراء مدافع من شركة كـروب Krupp لتحصين قلعة الربـاط[109]، ضرورة إيفاد بعثة أخرى في نفس السـنة (1302هـ/1884) ضمت اثني عشر طالبا بقصد تدريبهم على كيفية استعمال نماذج من المدافـع المقتنـاة[110]، وكان قوام آخر بعثة قصـدت ألمانيا هو الطبجي الحاج محمد زنيبر الذي أرسـله السـلطان بقصد تطوير معارفه في ميدان المدفعية كما يسـتفاد من الرسـالة التاليـة: «خديمنا الأرضى، القائد محمد بن سعيد السلاوي، وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله، وبعد: فقد كلفنا الخديم الطالب عبد الرحمان بركاش، بتوجيه الطبجي الحاج محمد زنيبر السلاوي لبلد الألمان ليتعلم بها طبجيت، فنأمرك أن تدفعه له ليتوجه لذلك على يده، والسلام في 15 شوال عام 1306»[111].

## البعثات إلى فرنسا

اهتمت فرنسـا منذ البدايـات الأولى لتغلغلها بالمغرب بالعمل على خلـق أجهزة قارة داخل البـلاد، كأدوات تضطلع بمهمة تنفيذ خطوات هـذا التغلغل[112]. وقـد وجدت في اهتمام السـلطان الحسـن الأول بالشـؤون العسكرية أحسـن وسـيلة للتسرب داخل أهم مؤسسة[113] موكول إليها مهمة الحفاظ على استقلال البلاد، وتقوية السلطة المركزية، وفعلا انتهزت أول فرصة أتيحت لها. وذلك عندما توقف السـلطان في إحدى حركاته بوجدة، حيث اسـتقبل بها بعض الضباط الفرنسيين من جيش وهـران بقيادة اسمونت[114] ولم يفت هذه الوحدات القيام ببعض المناورات العسكرية، واستعراض بعض الحركات أمام أنظار السلطان

---

109 - Ibid, p85.
ثريا برادة، مرجع سابق، ص228.

110 - GUILIEN (P), op.cité, p86.

111 - من وثائق أسرة آل بن سعيد، أوردها محمد المنوني، مرجع سابق، ص178.

112 - لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى الدراسات العامة المتداولة التي تتحدث عن أطوار ووسائل هذا التغلغل وكأمثلة نذكر.
BRIGNON (J) et autres : »Histoire du Maroc, Paris ; Hatier, Casablanca, Lib.nat.1967.
ألبير عياش، المغرب والاستعمار حصيلة السيطرة الفرنسية.

113 - ثريا برادة، مرجع سابق، ص325.

114 - محمد بن إبراهيم السباعي، البستان الجامع لكل نوع تحسن وفن مستحسن عند بعض مآثر السلطان مولاي الحسن خ.ع.ر رقم د 1346، ص112. ERKMAN (J), op.cité, p199.

الـذي لم يخـف رغبته في أن تكون قواته منظمـة على طراز الجيوش الفرنسـية، خصوصا وأن هذه القوات كانت قد تلقت هزيمة في حركة ضد قبيلة غياثة[115] ومنذ ذلك اللقاء، ظلت فرنسـا متشبثة بفكرة إرسال بعثة عسـكرية إلى المغـرب لتدريب الجنود المغاربـة، وقد نجحت في مساعيها بأن قدمت هذه البعثة سنة 1817 وحصلت على الاعتراف بها رسميا من طرف السلطان[116].

وغـير خاف الدور الحقيـقي الذي كان منوطا بأفـراد هذه البعثة العسـكرية، إذ تكشـف تقاريرها السرية[117] بما فيه الكفاية، أن الأمر كان يتعلق بجمع الأخبار ومزاولة أعمال الجاسوسـية[118] وتتميم العمل السياسي الذي كان يقوم بهم مثلوا فرنسا بمدينة طنجة[119].

يتأسـس على ما سـبق، واسـتنادا إلى ما ورد في بعض الوثائق الفرنسية بشـأن البعثات الطلابية المغربية، أن فرنسا كانت تفضل أن يـتم تدريب القوات المغربية على يد ضباط البعثة العسـكرية المتواجدة بالمغـرب، بدل إيفاد بعثات من الشـبان المغاربة للتكوين بمعاهدها[120]، ولعـل ذلك ما يفـسر قلة البعثات التعليمية الموفدة إلى فرنسـا إذا ما قيسـت مع عـدد البعثات التي قصـدت بلدانا أخـرى، إذ لم يتجاوز مجموعها أكثر من بعثتين[121].

---

115 -ARNAUD (L), op.cité, pp53-54.
TAILLANDIER (St René), op.cité, p19.

116 - ثريا برادة، مرجع سابق، ص214.

117 - لقد وقفنا على عدة نماذج من هذه التقارير، نذكر منها على سبيل المثال:
A.G.V.Rapport, n°29, Fez le 28avril 1880.
A.G.V.Rapport, n°13, Maroc le 1 Fevrier1879.
A.G.V.Rapport, n°4 Meknès le 1 Mai1884.

118 -LAHBABI (N), op.cité, p169.
Miège (J.L), op.cité, T.IV, pp107-109.

119 -DOUTEE (ED), op.cité, p53.
ثريا برادة، مرجع سابق، ص ص325-324.

120 - من وثائق وزارة الحربية الفرنسية (أنظر نص الوثيقة في الملحق).

121 - عدا هاتين البعثتين فإن بعض الوثائق الفرنسية تتحدثا عن مجموعة من صانعي الأسلحة كانوا يرافقون السفارات المغربية الموفدة إلى باريز، وذلك بهدف تعلم صناعة الأسلحة.
A.G.V.Rapport du (Marroi et du C.St Rohll-Alger le 1 Juin.
وأنظر أيضا .Miège (J.L), op.cité, T.IV, p97

أولى هـــذه البعثات ضمت ثلاثة طلبـــة هم قاسم الودي، والطاهري بـــن الحـــاج الأودي، ومحمد بن الكعـــاب الـــشركي[122]، فبعد إنهائهم ست ســـنوات من التكوين الإعدادي بمدينة طنجة، توجهوا أواخر عام (1297هـــ/1879م) صـــوب باريس[123]، ويســـتفاد من مراســـلات الطالب محمد الكعاب أن تكوينهم طال مواد متنوعة كاللغة الفرنسية والهندسة وفنـــون الملاحة والتاريخ وفن التصوير وغيرها[124]. كما تفصح مذكراته عـــن الرغبة التي كانت تحذو أعضاء هـــذه البعثة في تطوير معارفهم، والعودة إلى المغرب بوضع خبرتهم في خدمة مصالح البلاد[125].

وبعد مضي أربع سنوات من مقامهم بمدينة باريس، تلقوا أمرا من المخـــزن بمغادرة باريـــس والاتجاه إلى بلجيكا ســـنة (1301هـ/1884م) قصد الوقوف على البعثة التي كان أوفدها السـلطان في هذه الســـنة إلى مدينة صيرن (Sering) بهدف تعلم صناعة الأسلحة[126].

ويســـتخلص من مذكرة الطالب الكعاب أنه ظل مقيما ببلجيكا حتى حدود ســـنة (1304هـ/1886م) صحبـــة باقي أعضـــاء البعثة، في ظروف صعبـــة ثاقوا معها للعـــودة إلى وطنهم، وذلك من جـــراء الديون التي تراكمت عليهم من الجهات البلجيكية، وعدم موافاة المسؤولين المخزنيين بأجوبة على رسائلهم التي كانوا يبعثونها إلى الممثل السلطاني بطنجة ليأذن لهم بالرجوع إلى المغرب[127].

أما بخصوص البعثة الثانية، فإن الباحث يتوفر بشأنها على معطيات تسعف في تقديم صورة أكثر تفصيلا عن أغلب جوانبها ذلك أنه فضلا عـــن المعلومات المحدودة التي تضمنها السجـــل الخاص بالبعثات[128]، فـــإن الوثائق الأجنبية التي اعتمدها جاك كايي في دراســـته عن هذه البعثة تكمل ما ورد في هذا السجل وتســـد ثغراته إلى حد كبير، كما

---

122 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص151.
ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص66.

123 - أحمد معنينو، ترجمة مختصرة لتلميذ من بعثة الحسن الأول، محمد بن الكعاب الشركي، ص223.

124 - من: م.ط.ك. (مؤرخة ب 7 رجب عام 1299).

125 - من: م.ط.م.

126 - أحمد معنينو، نفس المرجع، ص223.

127 - نفسه، ص225.
إبراهيم حركات، مرجع سابق، ص39.

128 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص155-154.

تضمنت إشــارات تعكس شــعور الغرب (فرنســا) بالتفوق الحضاري الــذي عبر عنه الوزير الفرنسي المفــوض بالمغرب بتمنيه في أن تنطبع عقول طلبة البعثات بعظمة الحضارة الفرنسية على حد قوله[129].

وقــد توجهت هــذه البعثــة إلى مونبولييــه Montpellier بتاريخ 24 يونيــو 1885م (1303هــ) عــلى مــتن باخــرة حربيــة L'arethusé تحت إشراف (ميكيــل دي كاســترو Miguel de Castro)، وهــو ديبلوماسي برتغالي ســابق كان قد أسلم ودخل في خدمة السلطان[130]، وقد رافق هذه البعثة في نفس الباخرة وفد دبلوماسي برئاسة عبد المالك بن علي العبدي عامل وجدة، مصحوبا بقاضي فاس وخمســة قواد والســفير الفرنــسي في المغرب، وذلك للتفــاوض مع الحكومة الفرنســية حول قضايا الحدود الجزائرية[131].

وقد شملت تركيبة هذه البعثة خمسة طلبة وسبعة صناع، «فالطلبة هم الســيد محمد بن عبد الرحمان العلج»[132]، والســيد عبد الله بن العربي الودي، والسيد صالح التدلاوي، والسيد علال بن محمد البخاري، والسيد محمد بن سعيد القرقوري الفاسي، والصناع هم: محمد بن عبد الرحمان التطواني، وأحمد بن عبد الرحمان التطواني ومحمد بن أحمد الأصيلي، والعربي بن عبد السلام الجديدي، ومحمد بن الهواري المسفيوي، وعمر بن محمد المسفيوي، ومحمد بن عبد الرحمان المسفيوي[133].

وبعد مضي ســنتين من مقام البعثة بمونبولييه، عاد البرتغالي (دو كاســترو) لاســتغناء أعضائها عن دور الترجمان بحــكم تعلمهم اللغة

---

129 - CAILLE (Jacques) : « Les Marocains à l'école de Genie de Montellier (1885-1888), p142.

130 - Ibid , pp131-132.
Matinière (Henri de la), Souvenirs du Maroc, pp186-196.

131 - CAILLE (Jacques), op.citép132.

132 - هو ابن عبد الرحمان العلج الفرنسي الذي قدم إلى المغرب منذ عهد عبد الرحمان بن هشام وبقي في خدمة المخزن إلى عهد السلطان الحسن الأول وساهم في نشر الرياضية والعسكرية الحديثة أنظر:
CAILLE (Jacques) : « La véritable histoire de l'ingénieur Abderhman Desaulty, in Hesperis, Tome XXXVI, Année 1949, 3-4 trimestre pp. 459-460.
محمد المنوني، مرجع سابق، ص145.
أما ابنه أحد أفراد هذه البعثة فقد تكلف بعد عودته بالمدفعية وصار من جواسيس البعثة الفرنسية أنظر:
DOUTEE (Edmond) ; op.cité, p71.
Martinière (Henri de la), op.cité, p184 et p196.

133 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص ص155-154.

الفرنسية، كما كان قد عاد من قبله اثنان من أفراد البعثة لعدم أهليتهم وقدرتهم على استيعاب الدروس[134].

أما عن سير مراحل التكوين فقد تبين بعد تبقي أفراد البعثة تدريبات ميدانية، ضرورة مواكبتها بتلقينهم بعض المواد الضرورية كالحساب والهندسة فضلا عن اللغة الفرنسية لتسهيل عملية التواصل بين المؤطرين والمتدربين.

وهكذا أصبح الطلبة يتلقوا دروسا نظرية في الصباح، وأخرى عملية في المساء طيلة أيام الأسبوع عدا يومي الجمعة والأحد[135].

وقد شمل البرنامج النظري عدة مواد علمية كالهندسة التطبيقية والرياضيات والفيزياء والكيمياء وفروع الجغرافية، إضافة إلى تعليمهم كيفية ستعمال مختلف آلات البصر[136].

بينما انصب التكوين العملي على تمرينهم إلى جانب الجنود الفرنسيين على بناء الخنادق والتحصينات وطرق حفر الألغام وإقامة الخيام وتحضير آلات الحصار وغيرها من الحركات العسكرية[137].

ويستخلص من التقارير التقويمية التي كان يبعثها مؤطر هذه البعثة (ريوندبل Riondel) إلى الوزير الفرنسي بالمغرب، أن سوء اختيار بعض عناصرها، وخاصة الصناع جعلهم غير مؤهلين لاستيعاب ما كانوا يدرسونه، مما جعله يطالب-دون جدوى- بتعويض هؤلاء بطلبة أكثر قابلية للتعلم[138].

وقد كان من المقرر أن تعود البعثة إلى المغرب في خريف 1884، غير أنه بإيعاز من وزير فرنسا فضل السلطان الحسن الأول تمديد فترة التدريب حتى يحصل الطلبة على تكوين تام، ومع حلول سنة 1888، تم استقبال أفراد البعثة من طرف النائب السلطاني محمد بركاش الذي عبر لمثل فرنسا عن إعجابه بمستواهم الفكري[139].

134 - CAILLE (Jacques) : « Les Marocains à l'école de Grénie de Montpellier, pp130-140.

135 - CAILLE (Jacques), op.cité, p136.

136 - Ibid, p137.

137 - Ibid, p136.

138 - Ibid, p139.

139 - Ibid, p143.

وتفيد بعض المصادر أنه بعد عودة هذه البعثة، تم الاتفاق بين المسؤولين المغاربة والوزير الفرنسي على تعويضها ببعثة أخرى مكونة من خمسة عشر طالبا، كان من المتوقع أن تقصد فرساي لدراسة الهندسة والتخصص في فنون المدفعية، وفعلا تبودلت بشأن تهيء أعضاء هذه البعثة، مراسلة بين الوزير الفرنسي (فيرو Feraud و) إيركمان Erkman) الذي كان قد التحق بوطنه، وأبدى هذا الأخير موافقته على تولي مهمة إعداد الطلبة شريطة أن يقع اختيارهم من أسر مرموقة[140]، غير أن تنفيذ هذا المشروع لم يتحقق لأسباب تسكت عنها المصادر[141].

## البعثات إلى إيطاليا:

كانت إيطاليا إحدى الدول الرئيسية التي استضافت معاهدها وأكاديمياتها العسكرية مجموعة من الشبان المغاربة للدراسة فيها، وقد ارتبط إرسال بعضهم بمحاولة السلطان الحسن الأول إنشاء صناعة حربية محلية، وذلك بهدف الاستغناء عن شراء الأسلحة من أوربا[142]، لما كانت تكلف المخزن من أموال باهظة[143]، فضلا عن عدم جودة أغلبها واستغناء الأوربيين عنها[144]، وفي هذا الإطار تم الاتفاق بين المخزن وسفير إيطاليا سنة 1887 على تكليف بعثة إيطالية من خبراء متخصصين بتأسيس معمل لصناعة الأسلحة بفاس[145].

---

140 - Ibid, pp143-144.

وأنظر أيضا:

CAILLE (J) : « Quelques Renseignements sur le capitaine Erkman, p471.
Miège (J.L), op.cité, T.IV, p96.
Martinière (Henri de la), op.cité, p190.

141 - لقد فسر هنري لامارتنيه سبب عدم تنفيذ هذا المشروع بموت الوزير الفرنسي بطنجة Feraud وهو تفسير غير مقنع في اعتقادنا. Ibid, p19.

142 - Miège (J.L), op.cité, T.III, p226.

143 - لقد وقفنا في الخزانة الحسنية بالرباط والخزانة العامة بتطوان على كنانيش ومراسلات مخزنية تخص عقود اقتناء الأسلحة من البلدان الأوربية، تعطي فكرة عن كلفتها الباهظة واستنزافها ميزانية المخزن:

144 - أنظر بهذا الصدد تعليق الناصري، الاستقصا، الجزء التاسع، ص ص185-184.

145 - لمزيد من التفاصيل أنظر نص رسالة الوزير محمد المفضل بن محمد غريط إلى سفير إيطاليا بتاريخ 10 رمضان 1305هـ وقد تضمنت إشارة تهم أحد الطلبة الذين درسوا بإيطاليا ورافقوا أعضاء البعثة الإيطالية بصفته مترجما: ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص ص497-495. وتستبعد من اهتمامنا تقويم الحصيلة السلبية هذه المحاولة أنظر بصددها: ثريا برادة، مرجع سابق، ص ص270-269.

ARNAUD(L), op.cité, p60. Kerdec, op.cité, p300.

وقد اقتضى تشغيل هذا المعمل إرسال بعض المغاربة إلى إيطاليا وغيرها من الدول الأوربية، بقصد اكتسابهم خبرة تقنية في هذا الميدان، تؤهلهم للعمل في هذا المعمل بعد عودتهم.

ومن الملاحظ بخصوص البعثات الموفدة إلى إيطاليا هو تنوع تركيباتها، وتنوع تخصصات أفرادها من فنون عسكرية، ورياضيات، وعلوم بحرية، وتجارة ولغات أجنبية وغيرها، بل جرى التفكير -حسب ما أورده (مييج) استنادا إلى الوثائق الإيطالية- في دراسة علم الاقتصاد السياسي[146].

ولا نتوفر بشأن أولى هذه البعثات على معطيات كافية، وكل ما نعمله بخصوصها أنها تشكلت من ثلاثة طلبة هم المختار الرغاي البخاري، ومحمد بناني الفاسي، وعبد السلام الودي[147]، وهؤلاء كانوا ضمن الخمسة عشر طالبا الذين كان قد تم تعيينهم سنة 1291هـ/1874م لتوزيعهم على مختلف أقطار أوربا، بعد تعلمهم لغات هذه الأقطار[148]، وقد استغرقت مدة تكوين هؤلاء الثلاثة بإيطاليا تسع سنوات حسب ما ذكره ابن زيدان[149].

على أن أهم هذه البعثات، كانت قد أرسلت سنة 1306هـ/1888م مركبة من أربعة وعشرين طالبا[150] تم اختيارهم من طرف السفير الإيطالي جنتيلي Gentilé من مدن مختلفة كفاس وطنجة وسلا والرباط والعرائش[151]، وهؤلاء هم: أحمد الجبلي العيدوني، محمد الحريري، علي السوسي، الحسين الزعري، محمد الوزاع، محمد التدلاوي، محمد طجة، محمد بن سالم، محمد الشرقاوي البهالي، محمد ولد

---

146 - Miège (J.L), op.cité, T.IV, p125.

147 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص150.
ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص 466.

148 - مجلة الوثائق، العدد الثالث، ص441.

149 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص150.

150 - تختلف المصادر حول تاريخ توجه هذه البعثة إلى إيطاليا وحول عدد أفرادها أنظر بصددها:
ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص ص468-467.

أحمد معنينو، مذكرة طالب مغربي أرسل في بعثة مغربية إلى إيطاليا منذ ثمانين سنة، مجلة دعوة الحق، ص143.
Ray (Jauny), « Les Marocains en France, Institut des hautes études marocains collections des centres d'études juiridiques, paris, 1938,p42.

151 - أحمد معنينو، مرجع سابق، ص44.

الباشــا التهامي امبيركو، فضول ابن صالح، مصطفى الأودي، محمد البرجالي، محمد بن إسماعيــل، أحمد حرضان، العربي حركات، عبد الله التيال، محمد القجيري، مصطفى لحلو، محمد القباج[152].

وقد تلقى هــؤلاء كمرحلة أولى تكوينا أوليا بالمعهد الدولي بتوران، حيث كانت تــدرس بعثات طلابية أخرى قدمت من دول مختلفة كمصر واليابــان وأرمينيا وبلغاريا وغيرها[153]، وبعد مضي ثلاث ســنوات من دراستهم بهذا المعهد، تم نقل بعضهم إلى الأكاديمية العسكرية بتوران، والبعــض الآخر إلى أكاديميات مودين-وليفــورن[154]، وذلك طبقا لرغبة المخزن القاضيــة بتوزيعهم إلى ثلاث فئات، تتخصص كل واحدة منها في ميدان معين، حيث تخصصت فئة في دراسة فنون الملاحة، وأخرى في التدرب على الفنون العسكرية، وثالثة في تعلم صناعة الأسلحة[155].

وقــد تراوحت مدة تكويــن أعضاء هذه البعثة بين خمس ســنوات وعشر ســنوات، ويمكن الوقوف على مســتوى هذا التكوين من خلال مــا ذكرتــه بعض المصادر عن أطوار الدراســة التي مــر بها الطالب الجيلي العيــدوني أحد أفراد هذه البعثة، فبعد إنهاء دراســته الأولية بمعهد توران، التحق بمدرسة الضباط المشاة بأكاديمية كودين، وبحكم نبوغــه في مادة الرياضيات، تفوق في امتحان الولوج إلى الأكاديمية العســكرية بتوران، وهي مؤسســة متخصصة في تلقــين فن المدفعية وتدريس الهندســة، ومنها تخرج ســنة 1892 برتبة ضابط[156]، مما يدل على أن بعض أفراد البعثات عادوا إلى المغرب بمستوى يؤهلهم لشغل مناصب كان أغلبها محتكرا من طرف الأجانب.

ويتبين من رسالة ســلطانية موجهة إلى النائب محمد بركاش سنة (1291هــ/1888م)[157]، أن إيطاليا كانت ضمــن الدول الأوربية الخمس

152 - أحمد معنينو، مرجع سابق، ص145.

153 -« Un homme du Maroc d'hier », in la vigie Marocaine n° du 21-30-1936.

154 - Miège (J.L), op.cité, T.III, p222.

155 - أحمد معنينو، مرجع سابق، ص145.

156 - « Un homme du Maroc d'hier », op.cité,
RAY(J), op.cité, p42.

157 - أوردها ابن زيدان في العز والصولة، ج2، ص148.
-الإتحاف، ج2، ص ص471-470.

التي أوفد إليها السـلطان ثلاثين طالبا، أربعة لكل دولة لدراسة العلوم البحرية، واثنان للتدرب على قيادة السفن.

واسـتنادا إلى الوثائـق الإيطالية، يتضح أن السـلطان الحسـن الأول رغم مـا صادفه مـن عراقيل في وجه سياسـة الإصلاحية فقد ظل متشـبثا بقناعته في تكوين أطر مغربية في مختلف التخصصات. وهكـذا نجده يفصح للممثل الإيطالي سوكوفاسـو Socovasso خلال لقـاء لهما بالصويرة في أواخر مارس من سـنة 1886، عن رغبته في توجيه طالبين إلى إيطاليا للتخصص في هندسة بناء القناطر والطرق، وآخرين لدراسة الاقتصاد السـياسي[158]، وكخطوة إعدادية، تم تعيين اثني عشر من الشـبان تتراوح أعمارهم ما بين أربعة عشر سنة وستة عشر سنة، قضوا أكثر من سنتين في طنجة يتعلمون اللغة الإيطالية[159]، غير أن تنفيذ هذا المشروع لم يتحقق لأسباب لم تفصح عنها المصادر.

وكان قوام آخـر بعثه إلى إيطاليا، الطالب محمد بن عمر الرباطي الذي أرسـل إليها من طرف السلطان سنة 1208هـ/1891م وبعد قضاء خمس سـنوات من التعليم بالمدرسـة الدولية في مدينة توران، التحق بالأكاديمية الإيطالية للخيالة العصرية، حيث تخرج منها بشهادة تثبت أهليته في هذا الميدان[160].

أما عن باقي الدول الأوربية التي قصدتها البعثات الطلابية، نشـير إلى توجه بعثة واحدة إلى إسـبانيا حوالي سنة 1294هـ/1877م، ضمت ثلاثة طلبة هم أحمد بن الحاج العباس ابن شقرون الفاسي وعبد السلام الرباطي، ومحمد الشرادي الرباطي، وقد تابع هؤلاء تكوينهم مدة تسع سنوات[161] بأكاديمية الهندسة بكواد لاخارا Guadalajara[162].

---

158 - Miège, op.cité, T.IV, p125.

159 - Miège, op.cité, T.IV, p125.

ويتأكد ذلك من خلال وثيقتين وقفنا عليهما بالخزانة العامة بتطوان، يستفاد من أولها أن بعض الطلبة كانوا يتعلمون اللغة الأجنبية خلال هذه الفترة، كما يتبين من الرسالة الثانية أن هؤلاء الطلبة كانوا لا يزالون إلى حدود سنة (1313هـ/1895م) يتعلمون اللغة الإيطالية.

رسالة موجهة من محمد التازي إلى الحاج محمد بن العربي الطريس بتاريخ 19 جمادى 1304/13 فبراير 1887، خ.ع.ت محفظة 35/36.

رسالة موجهة من السلطان عبد العزيز إلى الحاج محمد بن العربي الطريس بتاريخ 13 صفر 1313/5 غشت 1895 خ.ع.ت محفظة 14/26.

160 - محمد المنوني، مرجع سابق، ص189.

161 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص151. ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص 466.

162 - Miège, op.cité, T.III, p223, T.IV, p96.

وفي اعتقادنا، لعل من الأسباب التي جعلت المخزن يكتفي بتوجيه بعثة فريدة، هو إدراكه لمكانة إسبانيا ضمن مجموع التطور الأوربي، وهو إدراك عبر عنه الكرودودي في رحلته بقوله: «...وهذه الدولة (أي إسبانيا) وإن اقتفت أثر غيرها في ذلك، فإنها لم تبلغ بعض البعض مما استنبطوه، ولا علمت من صناعتهم مثل ما صنعوه، ولكنها لم تهمل ذلك إهمالا كليا، ولا جعلته وراءها ظهريا، بل جدت في إدراكه فأدركت ما تيسر من ذلك...»[163].

ويتأكد اعتقادنا هذا، برفض المخزن إسناد أية مهمة للبعثة العسكرية الإسبانية بالمغرب، رغم أنها كانت مكلفة مبدئيا بتكوين تقنيين في ميدان بناء وترميم الجسور[164].

واستضافت بلجيكا بدورها بعثات مغربية تتركب كلها من صناع وذلك بهدف تدريبهم على استعمال مختلف أنواع الأسلحة (تركيب الآلات والمكينات، بطاريات المدافع، صناعة الخراطيش...) ولم تكن مدة تكوينهم تتعدى سنة أو سنتين على أبعد تقدير.

ويستخلص من المعلومات المتوفرة لدينا، أن مجموع المغاربة الذين تدربوا بمعامل السلاح بمدينتي لييج وصيرن Liège-Serring قد تجاوز خمسين فردا، أرسلوا في بعثتين، تم اختيار أغلبهم من مدينتي فاس ومكناس.

واستنادا إلى الوثائق الأجنبية ومذكرة الطالب الكعاب الذي كان مشرفا على هذه البعثات، نعلم أن البعثة الأولى توجهت في يونيو سنة 1884 على يد محمد بركاش[165]، وعاد بعض أفرادها في السنة الموالية[166]، وهي نفس السنة التي توجهت خلالها بعثة ثانية إلى مدينة

163 - أبو العباس الكردودي، التحفة السنية للحضرة الحسنية بالمملكة الأصبنيولية، ص90.

164 - ثريا برادة، مرجع سابق، ص220.

165 - في تقرير بعثه Ordega إلى وزير فرنسا في الشؤون الخارجية جول فيري Jules Ferry يؤكد له صحة الأخبار التي أبلغه إياها نائب القنصل الفرين بالدار البيضاء، والمتعلقة بإرسال صناع مغاربة لدراسة صناعة الأسلحة، ويضيف في تقريره أن أربعين من المغاربة سافروا عبر سفينة إنجليزية Steamer في اتجاه مدينة لييج وإيسن.
A.E.P.C.P.Marocn Rapport n°26, Tanger, 8Juin, vol 48.
وحسب م.ط.ك فإن البعثة الأولى كانت تضم عشرون فردا، وهو نفس العدد الذي ذكره رئيس البعثة العسكرية الفرنسية (فالو Vallois) في تقريره عن أحداث ماي ويونيو من سنة 1884.
.A.G.U.Rapport n° 5 du C.Vammois, Meknès, le 10 juin 1884, p3

166 - أحمد معنينو، ترجمة مختصرة لتلميذ من بعثة الحسن الأول 1297 محمد بن الكعاب الشرقي، ص227.

لييج[167]، وهذه أسماء أفراد هذه البعثات: محمد بن علي الفاسي، محمد المنظري الفاسي، الحسن الجندي، محمد الودغيري، عبد الرحمان البغدادي، حمان بن التهامي، علي بن قدور الحياني، محمد بن ميمون، إدريس بن وجود، محمد الحمدي الصفريوي حمان المراكشي المعطي بن إبراهيم، إدريس زولو، الجيلاني بن مبارك، المختار المكناسي، العرفاوي بن الطاهر، محمد حيات، المكي بريطل، الحاج عبد القادر الركاني، أحمد بن موسى المحجوب البزيوي، الوعدودي البيضاوي، أحمد بن الحسن، محمد بن الحفيان، أحمد بن علي العلج، محمد بن الموذن، عبد الله الزموري، أمان العباس، سالم بن إبراهيم، عباس بن المصطفى العرفاوي بن الحاج محمد بن زروق، ابن عيسى بوراوين، أحمد المراكشي، الحسن الخلطي، عبد السلام الودي، المعلم محمد المكناسي، العباس بن قاسم، عبد القادر بن الميلودي محمد بن العربي، ابن عيسى بن محمد، محمد بن الرامي، عبد النبي البوحلي، أحمد بن صالح، بوسلهام بن حمر، إدريس الحداد محمد بن العباس، الحاج محمد التاغروتي، الحاج محمد لفيتة، محمد بن ميمون، عبد السلام العلمي، إدريس بن الحاج العربي الفيلالي الجعايبي، إدريس الحيسي الزنايدي، أحمد بن العربي الفيلالي الجعايبي[168].

بقي أن نشير اعتمادا على ما أوردته بعض المصادر أن السلطان الحسن الأول أوقد بعثة من الشبان المغاربة سنة (1303هـ/1885) تحت قيادة إدوار كارلطون Edwart Carleton قصد تدريبهم في معمل السلاح بونسشتير Wenchester بالولايات الأمريكية[169].

167 - نفسه، ص227.

168 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص ص157-160.

169 - CHARMES (Gabriel) : « Une Ambassade au Maroc », p218.

Miège, (J.L), op.cité, T.IV, p96.

عبد الهادي التازي، تاريخ الولايات المتحدة في المصادر المغربية، مجلة المناهل، العدد 12، السنة الخامسة، شعبان 1389، يوليوز 1978، ص200.

# الباب الثالث

# حصيلة التجربة الإصلاحية

من المعلوم أن جل المحاولات الإصلاحية سـواء تلك التي قامت في شـكل حركات أو دعوات، لم يكتب لهـا النجاح الكامل في أي بلد من البلدان العربية، أو الإسـلامية[1]. وسواء كانت هذه المحاولات صادرة عن جهات رسمية أو غير رسمية، أو همت هذا الميدان أو ذاك.

وإذا كانت بعض أسـباب فشـل هذه المحاولات قد شكلت قواسم مشـتركة بين سـائر هذه البلدان، فـإن بعضها الآخـر كان مرتبطا بالظرفيـة التي يمر بها كل بلد، وبـشروط أوضاعه الخاصة من جهة، وبطبيعة الميدان الذي شمله الإصلاح من جهة ثانية[2].

ولم يكن مصير التجربة الإصلاحية موضوع دراسـتنا مختلفا، ذلك أن معظم مبادرات السلطان الحسن الأول لم تؤد إلى حدوث أي تغيير يذكر لأسـباب متعددة، وقد اكتفت أغلب المقالات الهامة[3] التي تطرقت عرضـا لموضوع البعثات الطلابيـة، بالتأكيد على الفشـل التام لهذه التجربـة، وفي تقديرنا فقد فات هذه الأحـكام الإطلاقية أن تنظر إلى هذه التجربة في إطارها المناسب وحجمها الحقيقي، وبالتالي تقويمها بالنظـر إلى تواضع الأهداف المتوخاة منهـا، إذا لم يكن منتظرا -كما تدفـع مثل هذه الأحكام إلى الاعتقاد بذلك- أن تتمخض عن تحول تقني وفكري ، من شأنه أن يغير من واقع البنيات الفكرية الجامدة، والهياكل المخزنية المتهالكة، ولم تتجاوز هذه الآراء مسـتوى الإقرار العام بفشل التجربة، والتأسـف على ضياع هذه الفرصة، دون التعريف بنتائجها المتواضعة حقا، وتحليل أسباب فشلها. وهذا ما نتوخى إبرازه في هذا الباب بتخصيص الفصل الأول منه لرصد أهم المجالات التي اشـتغل فيها بعض المتخرجـين والتعريف بنماذج من أعمالهم، بينما سـيهتم الفصل الثاني بمحاولة تقصي عوامل الإخفاق.

---

1 - عبد الله العروي، مفهوم الدولة، ص131.

2 - عن نماذج من هذه التجارب راجع أعمال ندوة "الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر".

3 - كأمثلة لهذه المقالات نذكر:

محمد التهامي الوكيلي، جلالة السلطان مولاي الحسن الأول، مجلة دعوة الحق، العدد 27، السنة جمادى الأولى 1403، مارس 1983.

-عبد الحق المريني، الإصلاحات العسكرية في عهد الملك المصلح مولاي الحسن، مجلة دعوة الحق، العدد4، السنة 12 صفر 1388/ مارس 1969.

-المهدي البرجالي، نظرة على الأحوال المغربية في القرن التاسع عشر، دعوة الحق العدد6، السنة 12 صفر 1389/ ماس 1969.

# الفصل الأول

# النتائج العملية والعلمية

## النتائج العملية:

يرتكز تقويمنا لمصير هذا الإصلاح ونتائجه على المقدمات التالية:

- إن توجيه بعثات تعليمية إلى مختلف معاهد أوربا المتقدمة، بهدف اكتساب الخبرة التقنية وتعلم اللغات الأجنبية ودراسة بعض العلوم الحديثة، تقنية وعسكرية، يشكل في اعتقادنا محاولة جادة وخطوة متقدمة بالقياس إلى شروط وسمات وضعية مغرب منتصف القرن التاسع عشر.

- لا يمكن النظر إلى هذا الإجراء بمعزل عن باقي الإجراءات المتخذة والتي شكلت ما يمكن أن نسميه تجاوزا ببرنامج إصلاحي، نلمس في منطلقاته وأهدافه مؤشرات تنم عن إدراك السلطان الحسن الأول لمخاطر المخطط الاستعماري، وسعيه لمقاولة هذه المخاطر، عن طريق تقوية وسائل الدفاع، ومحاولة تحديث بعض المؤسسات والقطاعات الهامة، وتزويدها بأطر كفأة ذات تكوين حديث[1].

- من المعلوم أن هذا المجهودات التحديثية ظلت منذ بداية انطلاقها، محاصرة بالتدخل المتزايد للأوربيين في شؤون المغرب بوسائط متعددة، وبتوالي الضغوطات الأجنبية المعرقلة لكل المبادرات الداخلية التي استهدفت النهوض بالبلاد[2].

---

1 - ألبير عباش، مرجع سابق، ص4.
ابن الأعرج السليماني، مصدر سابق، ج2، ص347.

2 - Charles André Julien, Hassan I et la crise marocaine au XIX siècle in les AFRICAINS ? tome III éditions, J.A, p245.
Miège, op.cité, T.IV, p142.

نعيمة التوزاني، مرجع سابق، ص304.
ألبير عباش، مرجع سابق، ص 68.
محمد المنوني، مرجع سابق، ص387.

وأخيرا نرى أن أي تقدير حقيقي لهذه المبادرة يستدعي الأخذ بعين الاعتبار أن حدث توجيه البعثات التعليمية وعودة أفرادها إلى المغرب قد تم في ظرفية موسومة بتأخر تاريخي شامل[3]، ترتبت عنه عوائق متعددة حالت دون تحقيق أي انبعاث حقيقي.

لقد علق كاتب السجل الذي أورده ابن زيدان على عودة أفراد أول بعثة بلغة تبعث على التشكيك في كفاءتهم «وهؤلاء الخمسة عشر يدعون بخطوط أيديهم أنهم بعد تحصيل اللسان، حصلوا جل العلوم الحربية والهندسة، وحيث أنهم ما زالوا لم يستخدموا في شيء مما تعلموه لم يتحقق عندنا صدق ما يدعون، وإنما تظهر ثمرة الأعمال بتطبيق القواعد على الأعمال»[4].

ولقد لاحظ العروي على هذا التعليق أنه يعكس نظرة ذرائعية ضيقة الأفق لهذه التجربة، لا تدعو للاستغراب إذا أخذنا بعين الاعتبار الوضعية الصعبة التي كان يمر منها المخزن على المستوى العسكري والمالي[5].

وبدورنا لا يسعنا إلا أن نتساءل بمنطق مغاير حول مدى تأكد «ثمرة هذه الأعمال» وإلى أي حد تم فعلا استثمار تكوين هؤلاء، وتوظيف معارفهم التي حصلوها على الوجه الصحيح.

تجيبنا أغلب المصادر أن استفادة البلاد من خريجي المعاهد الأوربية كانت جد محدودة، ولم يحصل الانتفاع بخبرتهم إلا في نطاقات ضيقة تبقيت مقصورة على بعض الميادين دون غيرها، وإذا كان بعض هؤلاء لم توكل إليهم أية مهمة، وبقوا في حيز الإهمال[6]، فإن الذين تم تشغيلهم قد أنيطوا بمهام بعيدة عن نطاق تخصصهم[7].

---

3 - جرمان عياش، حول الإصلاح بالمغرب في القرن التاسع عشر، مجلة دار النيابة، العدد 1، السنة1، يناير 1984، ص14.
LAROUI( Abdellah), op.cité, p289.

4 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص151.

5 - LAROUI(A), op.cité, p287.

6 - Ch René Leclerc : « L'armé MAROCCAINE, IN Bulletin de la Société de géographie d'Alger et le L'Afrique du Nora, 4è trim. Neuvième Année 1904, p79.
Charles André Julien, op.cité, p242.

7 - Miège, op.cité, T.IV, p105.
Brignon et Collab, Histoire du Maroc, p319.

وأسـندت إليهم في الغالب مناصب لم تتـح لهم فرصة التعبير عن كفاءتهم[8]، وفي أحسـن الأحوال لم تسمح سـوى بتوظيف قدر ضئيل مما خـبروه وتعلموه بالديـار الأجنبية. فقط قلة قليلـة من الخريجين بـرزوا على الصعيد الوطني[9]، وتمكنوا مـن تقلد مناصب ذات أهمية بل اسـتطاع أحدهم وهو محمد الجباص الذي درس بانجلترا أن ينفذ إلى أحـد مراكز القرار بتوليه منصب وزير الحرب في عهد السـلطان عبد العزيز[10].

لقد كان المجال العسكري والدبلوماسي والإداري من أهم المجالات الـتي تم فيها توظيف هذه الأطر، وقبـل التعريف بمختلف المهام التي أسـندت إلى هـذه العناصر لا بد من الإشـارة إلى ملاحظين، أولهما تخص طريقـة عرضنا لهذه المهـام حيث تعمدنا تفاديـا للابتعاد عن الموضوع، أن نعددهـا دون الخوض في القضايا التي يثيرها التطرق إلى هذه المجالات، وثانيها تخص نوعية وقيمة هذه المهام إذ لا شك أن بعضها قد تبدو في غاية البسـاطة، غير أنه ينبغي ألا يغرب عن بالنا أن هذه البساطة تستمد أساسها من طبيعة دواليب إدارة مخزن القرن التاسع عشر، حيث كانت تتميز ببساطة تركيبها[11]. ومحدودية وإدماج مهامها بعضها في بعض باسـتثناء بعض الأجهـزة المخزنية كجهاز الأمانة الذي أصبح في العقود الأخيرة من القرن الماضي يتسم بضبط نسبي لاختصاصاته وتعقد في وظائفه[12].

## الـمجال العسكري:

لقد تبين من عرضنا لأهم المواد التي كان يدرسها طلبة البعثات، غلبة الطابع العسكري على هذه المواد، لذا كان من الطبيعي أن يتم توظيف أغلبهـم عند رجوعهـم في قطاع الجيش بمختلـف خدماته من تأطير

8 - CHAPI( Mustapha), op.cité, p86.

9 - إبراهيم حركات، مرجع سابق، ص39.

10 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص150.
Taillandier st René, op.cité, p158.

11 - أنظر ما كتبه عبد الوهاب منصور مبرزا بساطة خصائص الإدارة المغربية في القرن الماضي، مجلة الوثائق، المجلد الثالث، ص485.

12 - نعيمة التوزاني، مرجع سابق، ص295.

وتنظيم وتجهيز. فعلى مستوى التأطير، أوردت بعض المصادر إشارات تفيد أن بعض الخريجين تولوا مهمة تدريب وتعليم الفرق العسكرية بمختلف المدن، حيث تذكر المصادر الألمانية أن الطلبة الخمسة عشر الذين تدربوا بألمانيا، قد كلفوا بعد عودتهم بتدريب فرق المدفعية في آسفي والصويرة[13]، كما أشار الطالب الحسين الزعري في مذكرته أن أحد أفراد هذه البعثة التي درست بألمانيا وهو محمد سباطة كان يدرب الجنود في الرباط على «كيفية تسيير حركة المدافع مع فنون الرماية»[14]. كذلك من المهام العديدة التي اضطلع بها الزبير سكيرج نذكر إشرافه رفقة إدريس الشاوي على تنظيم طابورين من الجنود لحراسة طنجة، وهي مهمة قاما بها مدة ثلاث سنوات 1323هـ/1905م-1326هـ/1908م [15].

ومن الأعمال ذات الطابع العسكري التي كلف بعض الطلبة المهندسين القيام بها إلى جانب الميقاتين، إعدادهم تقارير حول المسالك التي ستمر منها المحلة السلطانية[16]، وهي تقارير كانوا يضمنونها معلومات دقيقة حول عدد المراحل التي ستمر منها المحلة، وعدد الساعات التي سيستغرقها سيرها، وتحديد مواقع تخييم المحلة، ووصف العوائق الطبيعية التي تعترض مسلكها، فضلا عن معلومات أخرى تخص المعطيات البشرية والمادية لمناطق هذا المسلك[17].

أما على مستوى التجهيز، نشير بالخصوص إلى أن عدد من الطلبة الذين درسوا بإيطاليا وفرنسا وبلجيكا قد تم استخدامهم في بعض الوظائف التقنية بمعمل السلاح بفاس ومن بينهم محمد الصغير،

---

13 - Quedenfeldt , op.cité, p3.
GUILLEN (P), op.cité, p85.

14 - أحمد معنينو، مذكرة طالب مغربي، ص147.

15 - عبد الغني سكيرج، مذكرة الزبير سكيرج، ص30
ويستفاد من ترجمة مروية من ابن الطالب محمد بن الحاج النجار أحد أعضاء البعثة الموفدة إلى ألمانيا أنه عند رجوعه عين برتبة مقدم للطبجية حيث قضى نحوا من اثني عشر سنة، انظر: محمد بن علي الدكالي، الإتحاف الوجيز، تحقيق مصطفى بوشعراء، من منشورات الخزانة العلمية الصبحية بسلا 1406/1986، ص173.

16 - J. Erkman, op.cité, p256.
Leclerc (ch René), op.cité, p797.
Weisberger, op.cité, p83.

17 - أنظر أمثلة لهذه التقارير عند ابن زيدان، العز والصولة، ج1، ص192.
أيضا كناش رقم 12059 خ.ح.ر.

المختار الرغاي، محمد بن الكعاب، إدريس الفاسي والطاهر بن الحاج الأودي، ومحمد المنقـري، وعباس بن قاسم، وقد كان مجموع العاملين في دار السلاح يقدر بـ ثلاثمائة عامل يخضعون لنظام عسكري[18].

ومن الخدمـات المرتبطة أيضا بهذا المجـال، تكليف المخزن بعض الخريجين بحكم تخصصهم بتشكيل لجن عسكرية، كانت تقصد بعض الأقطار الأوربية خاصة ألمانيا، وذلك بهدف التفاوض ومعاينة الأسلحة الـتي كان يتم اقتناؤها من شركات ومعامل السـلاح، ويمكن الوقوف على مثال لهذه المهمة من خلال ما أورده الزبير السـكيرج في مذكرته «وسـنة 1307، وعن الأمر العالي توجهت صحبة الأمين السـيد الحاج محمد الـزكاري والمهنـدس الألمـاني لمعمـل (كـروب Krupp) بألمانيا للمفاوضة في شراء المدفعين السـابقة المشـارة إليهما، وسنة 1308هـ توجهنـا ثانية صحبة أعيان الطبجية السـادات: الحاج إدريس بن عبد الواحـد والقائد محمد الشـديد والقائد محمد سـباطة الرباطيين إلى مدينة (مبين) بألمانيا لحضـور اختيار المدفعين العظيمين وأبنا بالنتيجة التي طرحت على البساط العالي، كتابة وهيأة»[19].

وأخيرا نشـير إلى أن بعض الطلبة الذيـن تدربوا على فن الملاحة بإيطاليا عملوا كبحارة ضمن طاقم باخرة «البشير» على عهد السلطان عبد العزيز[20].

18 - ابن زيدان، الإتحاف»، ج2، ص468، ص499.
وحول استخدام الكعاب في معمل السلاح بفاس أنظر:
Edmond Ficard : « El Maghreb al Aksa Une mission belge au Maroc, Bruxelles, 1889, p370.

19 - عبد الغني سكيرج، مذكرة الزبير سكيرج، ص30. وقد أشار الحسين الزعري في مذكرته إلى توجه لجنة عسكرية سنة 1900 إلى ألمانيا لشراء المدافع من شركة كروب وكان أعضاؤها من الطلبة الذين درسوا بإيطاليا وهم: أحمد الجبلي، محمد بن عمر، محمد التدلاوي، أنظر:
أحمد معنينو، مذكرة طالب مغربي، ص145.

20 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، وص162.
ثريا برادة، مرجع سابق، ص225.

## المجالان الدبلوماسي والإداري:

غني عن البيان ما اتسمت به السنوات الأولى من القرن العشرين من تصاعد في حدة المطامع الأوربية، وفي مقدمتها المطامع الفرنسية التي كانت تروم الانفراد بالمغرب والحصول على اعتراف الدول الأخرى بهذا الانفراد عن طريق تسوية سياسة بين المصالح الامبريالية المتعارضة.

ولمواجهة هذه الأطماع التي هزت بصورة عميقة الكيان المغربي، سلك المخزن من موقع ضعف، سياسة دبلوماسية دفاعية تمثلت في إرسال سفارات وعقد اتفاقيات تمخضت عنها نتائج وخيمة، شكلت خطوات على طريق تفويت سيادة البلاد للأجنبي.

وليس من موضوعنا التطرق إلى الوقائع التي أحاطت بهذا التحرك ونتائجه، وهي وقائع أصبح من الميسر اليوم الرجوع إليها في مظان عديدة، بل ما نود الإشارة إليه هو مشاركة بعض الأطر التي درست بالخارج في هذا التحرك، وأبرزها محمد الجباص ومحمد الكعاب، والزبير سكيرج، والجبلي العيدوني، والطاهر بن الحاج الأودي.

فلقد شارك الجباص بصفته عضوا رئيسا والكعاب بصفته ترجمانا في السفارة التي توجهت إلى باريس وبطرسبورغ خلال سنة 1319هـ/1901[21]، كما شارك الزبير سكيرج بصفته ترجمانا في السفارة التي قصدت في نفس السنة لندن وبرلين[22].

وعكس ما توخته السفارة الموفدة إلى فرنسا من تسوية للقضايا العالقة بين البلدين، فإن فرنسا استطاعت أن تضفي صفة «شرعية» على اقتطاعها لإقليم توات وبعض واحة فجيج، وذلك بتوقيع لاتفاقية 3 ربيع الثاني/ 20 يونيو 1901 بيت الوزير عبد الكريم بن سليمان وديلكاس Delcassé وزير خارجية فرنسا واتفاقية 12 محرم 1320هـ/ 20 أبريل 1902 بين محمد الجباص والجنرال كوشميز (Gauchemez)

21 - Bulletin A.F.R.C.N°7 –Année, 1901,p. 237.

22 - عبد الغني سكيرج، مذكرة الزبير سكيرج، ص30.

وقد كان من بين أغراض هاتين السفارتين الوقوف على نوازع القوى الأوربية والتفاهم في أمر «الإصلاحات التي كانت تلح على المخزن بإدخالها، راجع:

أبي عبد الله السليماني، اللسان المغرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب، ص142.

LAROUI (Abd), op.cité, p344.

حاكم المناطق الشرقية الجزائرية[23]. وقد كان الزبير سكيرج والجبلي العيدوني ومحمد الجباص من أهم أعضاء اللجنة التي عينت لتحديد الحدود الشرقية[24].

ويستفاد من كتاب الاستبصار[25] أن صاحبه الطاهر بن الحاج الأودي قد شارك بصفته ترجمانا في سفارتين إلى فرنسا، أولاهما برئاسة الوزير علي بن محمد المسفيوي سنة 1880، وثانيهما برئاسة القائد الحاج المعطي الكبير المزامري سنة 1324هـ/1906م كما رشح الطاهر بن الحاج الأودي لترجمة مقررات مؤتمر الجزيرة الخضراء[26].

وبصدد الترجمة، تجدر الإشارة إلى أن السلطان الحسن الأول قد عمل على خلق نواة مصلحة إعلامية بتشكيل «مكتب للترجمة» يعهد إلى أعضائه بترجمة أهم مقالات الصحف الأجنبية الصادرة بطنجة، وقد كان كل أعضاء هذا المكتب من الطلبة الذين درسوا بأوربا(27).

أما بخصوص المجال الإداري، تؤكد المصادر أن الخريجين الذين تم تشغيلهم لم تكن تتجاوز مهامهم القيام ببعض الأعمال الجامدة في

---

23 - أنظر ما كتبه شارل أندري جوليان بصدد هذه الأوفاق.
JULIEN (Charles-André) : « Le Maroc face aux impérialismes-Editions J-A. Paris, 1978, p141.

24 - عبد الغني سكيرج، مذكرة الزبير سكيرج، ص30.
RAY (J), op.cité, p42.

25 - الطاهر الأودي، الاستبصار، ص ص96-95.

26 - الطاهر الأودي، الاستبصار، ص95.
لمزيد من التفاصيل راجع المنوني، مرجع سابق، ج1، ص255، وج2، ص200-199.
ويستفاد من رسالة موجهة من أحمد الطريس إلى الزبير ابن سليمان وردت في «كناش مكاتب المندوبة السعيدة بطنجة «خ.ع.ك2720 أن المفوضية الألمانية اقترحت استقدام ترجمانا يعمل معلما في مدرسة اللغة الشرقية ببرلين، وتسميه الرسالة ب عبد الوهاب بن بوبكر بن علي، وقد تبين لنا استنادا إلى الوثائق الألمانية أن هذا الأخير كان أحد الطلبة الثلاثة الذين شكلوا أول بعثة طلابية أرسلت إلى ألمانيا وهو الحسن الميلودي الرباطي الذي عمل بعد عودته ترجمانا سنة 1886 لفكنر Wagner، ثم ما لبث أن عاد إلى ألمانيا لمتابعة دراسته، ومكث بها مدة ثمان سنوات. وبعد عودته الثانية سنة 1895 كلف من طرف المفوضية الألمانية بعدة مهام لدى السلطان، وفي سنة 1903، عين كمدرس للعربية بمعهد اللغات الشرقية برلين، أنظر: المنوني، مرجع سابق، ج2، ص200.
Guillen (Pierre), op.cité, p86.

27 - GAGNE (Jacques) Presse et salafisme au Maroc au début du XXème siècle in Revue Dar Al Niaba, 2éme Année, n°7, eu 1985, p4.
Miège (J.L), op.cité, T.IV, p330.
Julien (CH.A), op.cité, p238.

المكاتب الجمركية بمدينتي الرباط وطنجة[28]، غير أن إحدى الدراسات الأخيرة لا تستبعد أن يكون تهيء وإعداد «ترتيب 1884» كأهم إصلاح إداري وجبائي شهده مغرب القرن التاسع عشر قد تم على يد الأطر المغربية التي درست بأوربا[29]، حيث تم تعيين محمد الجباص بعد عودته من إنجلترا للإشراف على تطبيق هذا الترتيب[30].

تبقى الإشارة أنه إذا كان اهتمام السلطان الحسن الأول بإصلاح المراسي وتحصين الثغور وبناء الأبراج قد اقتضى الاعتماد على الخبرة الأجنبية تأطيرا وتجهيزا[31]. فإن عودة بعض أفراد البعثات قد سجلت البدايات الأولى للاعتماد على الخبرة المحلية في إنجاز مثل هذه الأعمال، وذلك استنادا إلى بعض المذكرات التي تفيد أن أصحابها كلفوا من طرف المخزن بالعمل إلى جانب الخبراء الأجانب[32].

ومن المفيد أن نختم حديثنا عن النتائج العملية لتجربة البعثات بإيراد فقرات من مذكرة الزبير سكيرج[33]. تعرفنا من جهة بالمهام وبعض الخدمات الحديثة العهد التي قام بها، كما تطلعنا من جهة ثانية على مثال لبعض الحالات النادرة جدا التي تبرز حدود الاستفادة من خبرة ومعارف هذه الأطر.

فبعد التذكير بتاريخ ذهابه إلى إنجلترا ومدة دراسته بها كتب ما يلي: «...وسنة 1297 رشحت لمساعدة المهندس الأنجليزي المكلف بتشييد أبراج طنجة، وتركيب المدافع[34] (...) وسنة 1299 طوقت بتركيب موازين ديوانات المراسي الثمانية بجميع ما تحتاج إليه وسنة 1301 خصصت بالوقوف على تتميم أبراج طنجة لاستغناء المخزن

28 - عبد العزيز بنعبد الله، تاريخ المغرب، ج2، ص87، وتذكر المصادر الأجنبية من جهتها أن بعض الطلبة الذين تلقوا دراستهم في الخارج قد استخدموا في الموانئ المغربية المفتوحة في وجه النشاط التجاري الأوربي.
FRISCH(R.K) : « Le Maroc, édit. Ernest Leroux, Paris 1895, p59.
RAY (J), op.cité, p42.

29 - نعيمة التوزاني، مرجع سابق، ص152.

30 - نفسه، ص45.

31 - راجع الفصل الثاني من هذه الدراسة.

32 - عبد الغني سكيرج، مرجع سابق.
أحمد معنينو، مرجع سابق.

33 - لم ندرج المهام التي سبق التعرض إليها.

34 - عن هذه المهام راجع:
ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص471.

الشريف عن المهندس السالف الذكر، فقمت بهذا المهم الشامل لتركيب المدافع ببرج باب المرسى أتم قيام، وسنة 1303 كلفت بإصلاح دوران المدفعين المركبين بإشارة المهندس الإنجليزي المشار إليه سابقا (...) وبالسنة عينها توليت مساعدة المهندس الألماني المكلف ببناء برج رباط الفتح[35] (...) واستهلكت ما بين 1314-1312هـ في بناء ديوانات القبض بالمراسي الثمانية، وإنشاء ديوانيات الجمرك بالساحل البحري لمرسى الصويرة، وسنة 1315 وعلى ظهر (البابور) الحسني كلفت بالتجوال في السواحل السوسية والصحراوية الجنوبية للاطلاع على مراسيها ومعرفة طبيعة أراضيها وشرح أحوالها[36] فقمت بهذا الواجب، وضمنت ما يخص ذلك كناشا دفع للجانب العالي سنة 1317 عينت (بالكرونطلية) الحجر الصحي بجزيرة الصويرة مع الدكتور أرينو، المعين من قبل نواب الدول بطنجة (...) وسنة 1327 انتخبت لإدارة أعمال ضريبة المباني بمدينة تطوان (...) وبربيع النبوي سنة 1345 اقتضت الإدارة السنية والجلالة الحسنية تسميتي مديرا عاما للأملاك المخزنية لتنظيم مداخلها».

## النتائج العلمية:

إذا جاز لنا الحديث عن نخبة مثقفة في مغرب القرن التاسع عشر، يحق تصنيف طلبة البعثات ضمن الفئات المكونة لهذه النخبة[37]، وذلك على أساس أن هؤلاء أوتوا حظا من الثقافة والتحصيل العلمي بصرف النظر عن نوعية ومستوى هذا التكوين، غير أن ما ينبغي

35 - نفسه، ص471.

36 - عن مثل هذه المهمة نشير استنادا إلى ظهير سلطاني مؤرخ ب 3 ربيع الثاني عام 1300، أن السلطان الحسن الأول كلف بعثة لتفقد وضعية الشواطئ المغربية ثغرا ثغرا وقد كان من أعضاء هذه البعثة الطالب المختار الرغاي الذي تلقى تكوينه بإيطاليا.
رسالة من الحسن الأول إلى خاله محمد ولد أب محمد وأمناء مرسى العرائش، أوردها المنوني، ص104-103.

37 - لم يتردد الأستاذ عبد الله كنون في اعتبار أحمد شهبون وعبد السلام العلمي «...من الطلائع الأولى للنهضة الحديثة» بينما أكد الأستاذ محمد المنوني أن بعض أفراد البعثات كالزبير سكيرج وأحمد الجبلي العيدوني والطاهر الأودي من عناصر «النخبة الواعية» التي ساهمت في يقظة البلاد.
عبد الله كنون، أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، ص20.
محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، ج2، ص308. هذا وتشهد بعض مراسلات الطالب الكعاب على وعيه بالمطامع الاجنبية وحرصه على تتبع أخبار هذه المطامع سواء في الجرائد الصادرة في فرنسا وبلجيكا أو في طنجة، حيث يتبين من إحدى مراسلاته أنه رغب في الحصول على أحد أعداد جريدة Reveil du MAROC..

تسجيله هــو أن كل محاولة لتقويم حصيلة الأعمــال التي خلفها أفراد البعثات لا بد وأن تصطدم بصعوبتين، أولهما تتمثل في فقدان ما يكفي من النصوص، فضلا عن أن بعضها لم يكشــف عنه النقاب بعد، ومنها على ســبيل المثال رحلة ألفها الطاهر الأودي خلال مقامه بفرنسا حسب ما أورده في كتابه «الاستبصار»[38]، ورحلة ثانية من تأليف ابن الكعاب[39].

أمــا الصعوبة الثانية فتكمن في نوعية هذه الأعمال، ذلك أنه بحكم طبيعــة التكوين الــذي تلقاه الطلبة، وهو تكويــن في معظمه ذو طابع تقني محض، فإن النصوص المتوفرة لا تسعف الدارس في إخضاعها لتحليل يتيح اســتخراج عناصر الأفق النظري الــذي كان يتحرك فيه تفكير أصحابها، فنحن لسنا حيال نصوص من مستوى نص «تلخيص الإبريــز في تلخيص باريز» لرفاعة الطهطاوي أحد أبرز أعضاء البعثة الطلابية الأولى التي أرســلها محمد علي للدراسة فرنسا، حيث شكل هذا النص موضوع دراسات عديدة ومتباينة[40].

وباســتثناء تأليف عبد الســلام العلمي التي طالت ميادين متنوعة مــن فلك ورياضات وطــب[41]، فــإن المتأمل للآثار الــتي خلفها أفراد البعثــات لا يملك إلا أن يسجل غيــاب النص النظري وحضور الإبداع المستجيب لحاجيات عســكرية ودينية، ذلك أن الكتابات المتوفرة جاءت في شــكل مذكرات إن كانــت ذات قيمة تاريخية فإنهــا لا ترقى إلى مستوى نص يستوفى أبسط قواعد وشروط التأليف المتعارف عليها[42]،

---

38 - وقد أشار في كتابه أنه بعث بنسخة منها إلى السلطان الحسن الأول سنة 1300/1882.

39 - عبد السلام ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج2، ص352.

40 - من بين هذه الدراسات العديدة نخيل على سبيل المثال:
- معن زيادة، معالم على طريق تحديث الفكر العربي، ص ص175/201.
- كمال عبد اللطيف، التمدن والتقدم، عوائق الحداثة السياسية في خطاب الطهطاوي «ندوة النهضة والتراكم»، سلسلة المعرفة التاريخية، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، المحمدية 1986 ص ص150-129.

41 - تحاشيا للتكرار لم نر فائدة في التعريف بمؤلفات الطبيب عبد السلام العلمي، وقد وقفنا على نماذج منها بالخزانة الصبيحية بسلا، ولمزيد من التفاصيل عن نشاطه العلمي وأهميته راجع:
- محمد لأخضر، الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، ص458-456.
- محمد المنوني، مرجع سابق، ص244-237.
- عبد العزيز بنعبد الله، الطب والأطباء بالمغرب، المطبعة الاقتصادية 1960، ص ص87-86.
Renaud (DH.P.J) : « Médecine et Médecins Marocains au siècle de My Ismail Annales de L'Institut d'études orientales T.III, année 1937, Librairie Larousse, pp96.

42 - ونقصد مذكرة الزبير سيكرج، ومذكرة الزعري، والكعاب وقد كتب هذا الأخير بعض مقيداته باللغة الفرنسية، تدل على مدى تمكنه من هذه اللغة، أنظر الملحق.

وهي صفة تصدق على كتاب الطاهر الأودي «الاستبصار» وهو في الأصل تأليف جغرافي عام يقع في 211 صفحة، استهله بالحديث عن أسباب وأطوار الحرب العالمية الأولى ومخلفاتها، ثم انتقل للتعريف بالكيانات السياسية لكل قارة على حدة، مفصلا تارة أخرى، ومذيلا حديثه عن كل قارة بجدول توضيحي حول أسماء أقطارها وعدد سكانها وعواصمها وعدد سكانها ووضعيتها السياسية، وقد تخللت هذه الأوصاف استطرادات وتعليقات في المتن والهامش، منها ما خصصه لبعض الأحداث التاريخية والسياسية التي عاشها المغرب قبل الحماية الفرنسية وبعدها، ومنها ما أفرد لسرد بعض الوقائع التي تهم البلد الذي يكون بصدد تعريفه جغرافيا، عدا حديثه عن المهام التي قام بها كما ضمن آخر كتابه بعض المراسلات السياسية.

لقد صاغ الطاهر الأودي كتابه هذا بأسلوب مهلهل أقرب إلى الدارجة منه إلى العربية الفصحى، مما جعل قراءاته مستعصية وأحيانا متعذرة، فضلا عن افتقاره لوحدة الموضوع وانتظام محاوره.

ولا شك أن تأليفا تلك خصائصه، وخال من أي سعي نظري جاد سيكون من المجازفة اعتباره إنتاجا فكريا قابلا للتحليل أو التأويل، وبالتالي استشفاف عناصر تقويمه.

ويمكن اعتبار الجغرافية والهندسة من أبرز الميادين التي أينع فيها خريجي البعثات، فإلى جانب اختراع بعضهم ساعات تقنية وأجهزة فلكية وما يدخل في معناها من الرسوم[43]، ترك عدد منهم تصاميم هندسية متنوعة وخرائط مرسومة وفق الطرق الحديثة[44]، توخى واضعوها نوعا من الدقة ينم عن كفاءتهم في هذا الميدان.

ومعظم هذه الأعمال إما محفوظة بالخزانة الحسنية، أولا زالت في حوزة ورثة أفراد البعثات، وقد تيسر لنا الاطلاع على بعضها، وتتمثل في مجموعة من التصاميم الهندسية من وضع الطالب ابن الكعاب،

---

43 - أنظر نماذج منها عند محمد المنوني، مرجع سابق، ص ص253-252.

44 - من هذه الخرائط نذكر خريطة من وضع الطالب الزبير سكيرج سنة 1319هـ/1901م لميناء طنجة، وما ذكره في مقدمتها «هذه صورة، خريطة مساحة الأرض المشتملة عليها ديوانة طنجة، وحدودها الكائنة بها مع قدر الفتحة الفارغة من البناء..».

عبد الغني سكيرج، مذكرة الزبير سكيرج، ص31.

كما أشار الطاهر الأودي إلى صورة للكرة الأرضية من رسمه أنظر: الطاهر الأودي: الاستبصار، ص96.

ابن زيدان، الدرر الفاخرة، ص105.

وهي تخص بعض الآلات الصناعية لإنتاج الأسلحة الثقيلة والخفيفة، تدل على مدى تمكنه وخبرته في هذا المجال[45].

ولتقريب صورة هذه الأعمال وإبراز مستواها، ارتأينا الاقتصار على تقديم نموذج تمثيلي يأتي في مقدمة هذا الصنف من الموضوعات التي برز فيها طلبة البعثات، وهو عبارة عن مجموعة من الخرائط الجغرافية جمعها أحمد شهبون في كتاب على شكل أطلس سماه «كتاب الجغرافية المغربية»[46].

يتميز العمل الكارطوغرافي الذي أنجزه أحمد شهبون سنة 1315هـ/1898م بمجموعة خصائص تنم عن مستوى استيعابه لتقنيات وضع الخرائط التي ازدهرت وترسخت خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر في أوربا الغربية، كما تظهر سلامة وغنى معارفه الجغرافية سواء في الميدان الطبيعي أو البشري[47].

فعلى المستوى الطبيعي يستعمل شهبون بإتقان شبكة الإحداثيات من خطوط الطول والعرض حسب الإسقاطات المتعارف عليها آنذاك كالإسقاط المخروطي للامبر Lambert الذي يمكن من الحفاظ على حقيقة الزوايا والاتجاهات مع تشويهه للامتداد الحقيقي للمساحات والإسقاط الأسطواني والإسقاط السمتي.

إن شبكة الإحداثيات الموضوعة من طرف شهبون وفقا لقياسات فلكية ورياضة سمحت له بتحديد دقيق حسب خطوط الطول والعرض لجميع القارات والجزر والمناطق، وبصفة عامة لجميع الظواهر الممثلة في خرائطه، كما يمتاز رسمه لشكل السواحل بدقة تؤكد جدة عمله الكارطوغرافي، وسعة اطلاعه على الخرائط الموضوعة في عصره.

كما استعمل شهبون تقنية الإسقاطات مع تغيير مركزها حسب المناطق المراد تمثيلها، حيث جعل مركز الإسقاط في المحيط الأطلنتي (يسميه بالمحيط الكبير) في خريطة غرينلاند[48]، وفي المحيط الهادي

---

45 - أنظر الملحق.

46 - أحمد شهبون، كتاب الجغرافية المغربية، خ.ح.ؤ، رقم 2388.

47 - راجع تعليق ابن زيدان في العز والصولة، ج2، ص ص162-161.
«الدرر الفاخرة»، ص ص96-95.

48 - أحمد شهبون، ص 16.

(يسميه البحر المحيط) في خريطة اســتراليا وجزر[49] المحيط الهادي الجنوبي، وفي أمريكا الوســطى في خريطة الأمريكتين[50]، وفي وسط إفريقيا في خريطة هذه القارة[51]، وفي وسط في خريطة أوربا[52].

وبالإضافة إلى أن شهبون كان مستوعبا ومطبقا موفقا لأهم أسس الكارطوغرافيــا الحديثــة (كروية الأرض-القياســات الرياضية لوضع الإحداثيــات، ميلان محور الكرة الأرضية تغيير مراكز الإســقاطات)، فــإن عمله الكارطوغرافي يعطي معلومات وافية حول شــبكة الجريان المائي برسمــه أهم الأنهار فضلا عن البحيرات والبحار الداخلية، كما أرفقت خرائط القارات بجداول لأسماء أهم المجموعات الجبلية.

ومما يظهر عمق ورشــد المعرفة الجغرافية عند ابن شهبون تعرضه لمفاهيم ومعاريف جغرافية حديثة الظهور بالنسبة لتاريخ وضعه لأطلسه.

فمن جهة يعرض من خلال خريطته الأولى[53] لظاهرة البنية الباطنية للكــرة الأرضية حيث يبرز مــن خلال الرسم البنيــة الطبقية للأرض، فهو يصور تعاقب ثلاثــة طبقات قبل الوصول إلى المعطف الذي يحيط بالنــواة، وإذا كان سمك هذه الطبقات غير مطابق بدقة لما نعرفه اليوم عنهــا، وكذا غياب تسميتها وذكره لخصائصهــا الفيزيوكيميائية يمثل نقصــا في عمله، فإن مجرد تبنيه للتصور الطبقي للبنية الباطنية للكرة الأرضية يعتبر في حد ذاته مكسبا معرفيا متقدما بالقياس إلى حداثة المعارف حول هذا الموضوع في فترة وضعه لهذه الخريطة.

ومن جهة ثانيــة، يعرض شهبون لمفهوم جغرافي متطور في إحدى خرائطــه[54] حيث يصنف الأرض إلى مناطــق بيومناخية اعتمادا على خصائصهــا المناخيــة والحرارية بالخصوص، فهــو يميز بكل وضوح المنطقة الحــارة الممتدة ما بين مداري الجدي والسرطان يتوســطهما النطاق الاســتوائي، والمنطقــة المعتدلة الشماليــة والجنوبية، وأخيرا المناطق المتجمدة عند القطبين.

---

49 - نفسه، ص17.

50 - نفسه، ص14-13.

51 - نفسه، ص12-11.

52 - نفسه، ص10-9.

53 - نفسه، ص2.

54 - نفسه، ص4-3.

كما يظهر في عمـــل شهبون اهتمام ملحــوظ بمعطيات الجغرافية البشرية، وذلك بمحاولته إبــراز أسماء البلدان وأهم الحواضر إضافة إلى رسمه الحدود السياسية لبلدان العالم.

كما يشــير في جداول مرافقة للخرائط إلى عدد سكان هذه البلدان وعواصمهــا والأجناس الــتي تقطنهــا، وتعكس المعطيــات البشرية الممثلة في الخرائط العامة وفي خريطة المغرب معرفة واســعة بالواقع الســياسي والديمغرافي والاثنوغرافي لمختلف المناطق التي مثلها في هذه الخرائط.

وإذا كان عمل شهبون يمثل أهم إنجاز كارطوغرافي في مغرب نهاية القرن التاســع عشر، فإنه يرقى في جميع جوانبه إلى المســتوى الذي كانت قد وصلته الإنجازات الكارطوغرافية في أوربا خلال نفس الفترة.

ومن أهم المؤاخذات التي يمكن تسجيلها عدم استعماله للمقياس في كل الخرائط، في وقت كانت هذه التقنية قد أصبحت شرطا علميا لدقة الإنجــاز وإمكانية قراءته بنفس الدقة، كما يسجل عليه عدم اســتعماله لتقنية المفتاح والرموز الكارطوغرافية التي أصبح على الخريطة الحديثة أن تمثلها.

وإجمــالا فخرائط شهبون من النــوع العام، كما أنها تمثل مجموع الكرة الأرضية أو قاراتها ومحيطاتها الكبرى وفي حالة وحيدة خريطة بالمغــرب، لذلــك فهي تكتــفي بالمعطيات العامة وغــير المفصلة، وعليه فالحاجة إلى استعمال الرموز غير ملحة.

عــلى أن هــذه النواقص لا تقــل في شيء من قيمــة عمل أحمد شهبون، خصوصا إذا أخذنا بعين الاعتبار قلة وتواضع عطاء المغاربة في هــذا المجال خلال هذه الفــترة بالقياس إلى عطائهم في مجالات أخرى من المعرفة.



# الفصل الثاني

# أسباب الفشل

على غرار ما آلت إليه أغلب المحاولات الإصلاحية التي شهدها المغرب طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر[1]، فإن تجربة البعثات التعليمية كمجهود إصلاحي رسمي باءت هي الأخرى بفشل يكاد يكون تاما.

لقد كان من المنتظر من هذه المبادرة أن تزود الأجهزة المخزنية بأطر تتحدث لغات مختلفة، ومكونة تكوينا حديثا[2]، من شأنها أن تساهم من موقعها بدور فعال في النهوض بالبلاد[3]، غير أن كل هذا لم يحصل وذلك بتجميد المسؤولين لأغلب الخريجين، رغم عودتهم بمؤهلات تعدهم للاضطلاع بالمهام التقنية التي كان يحتكرها الخبراء والمدربون الأجانب، وحتى تلك القلة القليلة التي أوكلت إليها بعض المهام لم يتأت لها ولم يكن بمقدورها القيام بأي دور[4] في مستوى ما كانت تتطلبه أوضاع المغرب المتردية وقتذاك، ولم تخلف كتاباتها المحدودة أي صدى في الأوساط المثقفة.

1 - في تقييمهم لمجمل هذه الإصلاحات كتب مؤلفو تاريخ المغرب ما يلي: «على كل المستويات آلت الجهود إلى فشل شبه كلي مرده إلى قلة الوسائل وقلة كفاءة الموظفين وانعدام خبرة الإدارات المغربية، ومرده كذلك إلى احتراس الناس من الإجراءات المتخذة نظرا للحالة التي كان عليها الرأي العام لقلة اطلاعه...».

2 - Brignon (J) et Collab : « Histoire du Maroc », p319.
SALMI (Jeanne Marie) : « L'attitude des Européens à l'égard de la politique de reformes au Maroc à la veill du protectorat, in Actes du colloque : Reforisme et société Marocaine au XIX siècle, publications de la faculté des lettre-Rabat 1983, p438.
نعيمة التوزاني، مرجع سابق، ص45.

3 - المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، ج1، ص45.
-قاسم الزهيري، مرجع سابق، ص

4 - LAROUI (Abdellah), op.cité, p289.

ولا شك أن رصد عوامل إخفاق هذه التجربة يقتضي بالضرورة ربطها بطبيعة البنية الكلية للمجتمع المغربي، ومعرفة مواقف واختبارات بعض القـوى النافذة والمؤطرة لهذا المجتمـع، فضلا عن دور التدخل الأجنبي المتزايد في شؤون المغرب، فالحديث إذن عن أسباب فشل تجربة البعثات التعليمية لا بد وأن ينتظم ضمن هذه المسـتويات في تشابكها وتفاعلها، ومـا تمخض عنها من عوائق في وجـه كل المحاولات الإصلاحية التي استهدفت تجديد بعض الهياكل التقليدية المتداعية إلى الانهيار.

وبالطبع، يأتي دور الضغط الأجنبي في مقدمة أسـباب فشل هذه التجربة وغيرها من المحاولات الإصلاحية التي رام السـلطان الحسن الأول تحقيقها، والتي من دون شـك كان من أهدافها المركزية مواجهة مضاعفـات هـذا الضغط، ونرى من المفيد هنا أن نـورد ما قاله ألبير عياش مبرزا آثار هذا العامل في شـل الجهـود التحديثية: «...ولو لم يكن العالم آنذاك عبارة عن غابة متوحشـة لاسـتمرت عملية التحديث التي ابتدأت منذ عشرات السـنين عبر الاتصـالات المتكررة مع العالم الخارجي وتبعا لوتيرة تتلائم وعبقرية الشعب المغربي»[5].

عـلى أن دور الضغـط الأجنـبي لم يقف عند حدود إفشـال هذه المحـاولات بـل عمل عـلى تحريفهـا وتوجيهها الوجهـة التي تخدم مصالحه[6]، وحتى لا نسـتعيد ما أبرزته دراسات سابقة حول دور هذا العامل[7]. نكتفي بالإشـارة إلى أننا نشـاطر رأي أحد الباحثين الذي لا يسـتبعد أن المدربين العسـكريين الأوربيين الذين كانوا يعملون في صفوف المخزن قد عرقلوا بنجاح عمل هذه الأطر[8].

ولا نعد مجازفين إذا اعتبرنا أن طغيان التفسير الذي يرجع الفشل إلى عامل التدخل الأجنـبي وحده قد يحجب عنا رؤية وتلمس عناصر ركود البنيات الداخلية كعائق من عوائق الإصلاح.

5 -ألبير عياش، مرجع سابق، ص68.

6 - ثريا رادة، مرجع سابق، ص349.

7 - Miège (JL), op.cité, T.III, p142.
SALMI (J.M), op.cité, p438.
JULIEN (ch.A), op.cité, p245.
لطيفة كندوز، التنافس الأوربي في المغرب على عهد السلطان الحسن الأول، ضمن مجلة البحث العلمي العدد32. ذو الحجة 1401، نونبر 1981، ص143-142.

8 - CHAPI (Mustapha), op.cité, p86.

في هذا السياق يمدنا المؤرخ الناصري بشهادة قصيرة ذات دلالات غنية، بخصوص ما نحن بصدد إبرازه، حيث علق على مبادرة السلطان الحسن الأول بإيفاد البعثات التعليمية إلى أوربا بالكلمات التالية: «... إلا أن ذلك لم يظهر له كبير فائدة، إذ كان ذلك يحتاج إلى تقديم مقدمات وتمهيد أصول ينبغي الخوض في تلك العلوم والعمل بها عليها»[9].

تحيلنا هذه الشهادة في جوهرها إلى القيام باستعادة نقدية للمنطلقات التي حددت المبادرة السلطانية، والخلفية التصورية التي حركتها، والطريقة التي باشر بها المخزن هذا الإصلاح وكيفية إنجازه، وفي هذه الاستعادة نكتشف أن تجربة البعثات التعليمية حملت في طياتها منذ انطلاقتها بعض عوامل فشلها.

لقد كانت النظرة التي استحكمت في الإقدام على هذه الخطوة- على أهميتها- نظرة ضيقة وتقنية بالأساس[10]، وتفسير ذلك يكمن في الطريقة التي أدرك بها المخزن أسباب الهزائم العسكرية التي مني بها المغرب، ونقصد بالأساس هزيمتي إيسلي وتطوان، مع ما ترتب عن هذا الإدراك من وعي سطحي لمفعول هذه الهزائم وفهم غير شامل لمرتكزات التقدم الأوربي، وبالتالي اختزال الغرب أو أوربا إلى مجرد قوة عسكرية يسهل تداركها ومواكبتها[11]، وذلك عن طريق القيام بإجراءات تحديثية معزولة كليا عن سياق تحديث بنيات المجتمع اقتصاديا واجتماعيا وفكريا، ومن هذه الإجراءات العمل على إيجاد أطر ذات تكوين حديث على نمط الأداة التي ألحقت بالمغرب هذه الهزائم، وكشفت عن هشاشة تنظيماته التقليدية.

---

9 - الناصري، زهرة الأفنان، ج2، نقلا عن المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، ج2، ص386.

10 - راجع بصدد هذا الاستنتاج:

عبد المجيد الصغير، ملاحظات حول مشكل الإصلاح في أول مخطوط (صوفي) لتحرير الجزائر، سنة 1265هـ/1849م»، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط العدد الثامن السنة 1982، ص351-350.

11 - تنطبق هذه الملاحظة أيضا على الإصلاحات العثمانية الأولى حيث أكد أكثر من باحث أن بداية القبول بالأخذ عن التجربة الأوربية كانت عسكرية صرفة، نتيجة الوعي الحاصل بعد هزيمة الجيوش العثمانية وهو الوعي الذي حدد نظرة السلاطين العثمانيين للتقدم الأوربي كتقدم عسكري تقني، لذا ثبت الاعتقاد بضرورة الإصلاح والأخذ بالتجربة الأوربية في مجال التنظيم العسكري والعلوم الحربية أنظر:

خالد زيادة، اكتشاف التقدم الأوربي، دراسة في المؤثرات الأوربية على العثمانيين في القرن الثامن عشر، دار الطليعة الطبعة الأولى، بيروت، يونيو 1981 صفحات 34-16-8 معن زيادة، الحل السياسي عند رواد النهضة، ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، ص117.

وقـد كان لهذه النظرة أثرها البالغ في محدودية آفاق هذه الخطوة الإصلاحيـة، وذلك بحـصر الاهتمام على تمكين الطلبـة الموفدين إلى المعاهـد الأوربية من العلوم العسـكرية في المقام الأول، دون الاهتمام بتوسيع دائرة تخصصاتهم لتطال علوم أخرى، اللهم عدا إذا استثنينا بعض البعثات القليلة التي اسـتفاد أفرادها من تكوين متنوع وشامل إلى حد ما[12].

ولعل هذا ما يفسر لنا كون البعثات لم تمارس أي تأثير في ميدان التعليم، يؤكد قولنا هذا ما ذهب إليه الأسـتاذ كنون، حيث اعتبر غلبة الطابع العسـكري على نوعية التكوين الذي تلقاه أغلب أفراد البعثات أحد الأسباب التي حرمت المغرب من الاستفادة من نتائجها، يقول في هـذا الصدد: «...وإذا كان مما يلاحظ أن هذه البعوث لم تقم بنشـاط مهم في ميدان التعليم بعد رجوعها وأن الانتفاع بها كان قاصرا على الميادين التي ذكرناها (يقصد قطاع الجيش والإدارة والدبلوماسـية)، فإن ذلك لسـببين مانعـين أحدهما أن التعليم الـذي كان يتلقاه غالب أفرادها لم يكن تعليمـا كاملا وإنما تدريبا أو تكوينا عاما وأكثره مما يتعلق بالفنون العسكرية»[13].

يضـاف إلى هذا العامل، كـون هذه الأطر لم تجد بعد عودتها بنية تعليمية تتيح لها توظيف ما حصلت عليه من المعارف الجديدة، إذ لم تكن وقتـذاك مدارس كان بالإمكان أن تتولى فيها مهام التدريس[14]. كتعليم اللغات الأجنبية التي لا شك أن بعض الخريجين كانوا يتقنونها[15].

ومن جهـة أخرى يتبين لنا من خلال معاينـة دقيقة للحيثيات التي رافقـت تطبيق هذا الإصلاح، غياب تصور كلي له، أو تخطيط مسـبق ومتكامـل للإجراءات التي كانت تسـتلزمها عملية إيفـاد البعثات إلى الأقطـار الأوربيـة، فاختيار الطلبـة لم يحتـكم إلى مقاييس مفصلة

---

12 - أنظر الفصل الخاص بمقاصد البعثات من هذه الدراسة.

13 - عبد الله كنون، أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، ص21.

14 - نفسه، ص21.

15 - كمثال على ذلك، أنظر في الملحق وثائق الطالب ابن الكعاب باللغة الفرنسية.
وقد أشار قاسم الزهيري الذي أدرك بعض أفراد البعثات كالعربي حركات، وحسين الزعري «أن أحدهم حاول فتح مدرسة بعد عودته من فرنسا فأقفلتها السلطات إذا ذاك...».
قاسم الزهيري، اتصال المغرب بالتعليم العصري، ص25.

ومضبوطـــة، وإنما اكتفت الرســـائل الســـلطانية الموجهـــة إلى النائب السلطاني وعمال المدن في هذا الشأن، بالتنصيص فقط على مقاييس عامة، نذكر منها على الأخص صغر ســـن المرشحين وقابليتهم للتعلم[16] وحـــتى هذان الشرطان نادرا هـي الحالات الـــتي تثبت الوثائق أنه تم التحقـــق مـــن مراعاتهما[17]، فكان من نتائج ذلـك أن جاء الاختيار في غالب الأحايين غير موفق ومناســـب، بـــل هم أحيانا عناصر تفتقر إلى الحد الأدنى من المعارف الأولية[18].

كذلـك لم يكن توجه البعثات مســـبوقا بإعـــداد فعلي وكاف يجعل أفرادها مؤهلين لاســـتيعاب ما سيدرســـونه بالمعاهد الأوربية[19]، إذ لم يتجـــاوز التكوين الإعدادي الذي تلقوه بطنجة حـــدود تعلم أوليات لغة البلاد التي سيقصدونها.

وإذا كانت بعض الحالات قد أثبتت عناية المخزن بطلبة البعثات أثناء مقامهم بأوربا، وذلك بتفقد أحوالهم ومعاينة أعمالهم، فإنه على ما يبدو لم يقع التفكير في جعل هذا التفقد إجراءا منتظما وشاملا لكل البعثات، إذ بقي رهين بعض المناسبات والمتمثلة أساسا في توجيه السفراء إلى بعـــض الأقطار الأوربية حيث يقـــيم أعضاء البعثات الطلابية، ولم نقف على مراســـلات تفيد حرص المخزن على متابعة نوعية وأطوار التكوين الذي يتلقاه الطلبة، بل على العكس من ذلك، فإن بعض رسائل الطالب ابن الكعاب الموجه إلى النائب السلطاني بطنجة، تمدنا بشهادات دالة على تخاذل الجهات المسؤولة في هذا الشأن.

وإذا كان تنويـــع البلدان التي قصدتهـــا البعثات، قد فسر كمظهر من مظاهر سياســـة التوازن التي نهجها السلطان الحسن الأول اتجاه الدول الأوربية المتنافســـة[20]، فـــإن (مييج) في دراســـته قد اعتبر هذا

16 - أنظر نماذج من هذه الرسائل في: مجلة الوثائق، المجلد الثالث.

17 - رسالة الحسن الأول إلى قائد الصويرة الحاج عمارة بن عبد الصادق بتاريخ 23 صفر عام 1293هـ (20 مارس 1876م)، عن مجلة الوثائق المجلد الثالث، ص457-456.

18 - CAILLIE (J), op.cité, p139.
Miège (J.L), op.cité, T.III, p105.
LAROUI (A), op.cité, p285.

19 - جاك كايي، السفارات والبعثات المغربية إلى فرنسا، مجلة تطوان، العدد6 السنة 1961، ص186.
أحمد معنينو، مذكرة طالب مغربي أرسل في بعثة مغربية إلى إيطاليا منذ ثمانين سنة، ص145.

20 - Miège (J.L), op.cité, T.III, p221.

التنويع كسبب من أسباب فشل تجربة البعثات التعليمية، ذلك أن توزيع الطلبة على مدارس إنجليزية وألمانية وإيطالية وفرنسية، وتلقيهم بها دروسا متنوعة وفق مناهج مختلفة جعل تكوينهم جد متباين، كان له انعكاس سلبي على مستوى توظيفهم[21].

نستنتج مما سبق أن سوء طرق تنفيذ الإصلاح، وما شاب إجراءاته من ارتجال، كان من الأسباب التي ساهمت في التقليل من حظوظ الاستفادة منه[22]، على أن شهادة الناصري السابقة تحمل دلالة أبعد من هذه الجوانب التنظيمية التي حاولنا إبراز قصورها، فـ «تقديم مقدمات وتمهيد أصول» التي سجل غيابها، تعني بتعبير آخر أن هذا الإصلاح لم يرتكز على أساس اجتماعي واقتصادي وفكري يوفر له إمكانيات التطبيق الناجع، وبالتالي يضمن له حظوظا ليسفر عن «كبير فائدة»، لذا لم يكن ممكنا أن يؤتي هذا الإصلاح ثماره في غياب أي استعداد داخلي، من شأنه أن يجعل الرأي العام مهيأ لاستقبال وتمثل عناصر التحديث، واستيعاب المعارف الجديدة التي عاد بها طلبة البعثات، وراغبا في غرسها في كيان المجتمع بدل معارضتها كما حصل[23].

فغني عن البيان أن ضمان إنجاح هذا الإصلاح كان يستلزم مسبقا تهيء شروط الأرضية المناسبة التي يمكن الاستناد إليها، وهذا بالضبط ما كان يفتقر إليه المجتمع المغربي وقت إيفاد البعثات وعودة أفرادها، وفي هذا المعنى كتب محمد عابد الجابري مفسرا بعض أسباب فشل التجربة الإصلاحية بقوله: «...غير أن هذه الإصلاحات لم تكن مرفوقة بأي تجديد في الفكر والثقافة، وبعبارة أخرى لقد كانت هذه الإصلاحات تفتقد المناخ الضروري لغرس جذورها في المجتمع وضمان نموها وتطورها، لقد كان أفراد البعثات الموجهة إلى أوربا

21 - Ibid, T.IV, p105.

22 - في تفسيره لأسباب فشل إصلاحات محمد الرابع والحسن الأول عدد إدمون بورك جملة عناصر نذكر منها سوء التطبيق، وتجاهل عنصر التدخل الأجنبي وآثاره الذي كان في مقدمة عوائق الإصلاح الحقيقي.
إدمون بورك، العلماء المغاربة في 1912-1860، تعريب محمد بن عبود وعبد العزيز السعود، مجلة البحث العلمي، العدد31، السنة ذو الحجة 1400هـ/أكتوبر 1980، ص124.

23 - LAROUI (Abd), op.cité, p283.

محمد المنوني، مرجع سابق، ص387.
الحسن السائح، الحضارة الإسلامية في المغرب، ص405.

على دفعات-نحو الأربعمائة من العسكريين والمدنيين- يعودون ليندمجوا في أوضاع فكريـــة واجتماعية لم تكن تسمح لهم بالتنفس بالقيام بأية أعمال تجديدية فكرية أو اجتماعية...»[24].

ولســـنا في حاجة إلى التأكيـــد على أننا ننظر إلى عامل ســـيادة العقليـــة التقليدية وتجذرها في البنيـــة المجتمعية كعائق من عوائق هذا الإصلاح، من زاوية مغايرة لتلك التي نظرت بها الكتابات الأجنبية إلى هذا العامـــل، حيث جعلت من «تخلف» عقلية المغاربـــة و«ثقل» التقاليد السبب الرئيسي الذي كان وراء فشل كل المحاولات الإصلاحية[25].

بناء على هذا التأكيد نود الإشارة إلى ما كان لمواقف بعض القوى التقليدية ذات النفوذ القوي في أوساط المجتمع، من مسؤولية في جعل أعضاء البعثات يعيشـــون منعزلين، وغير فاعلين في مجتمعهم أو حتى في اختصاصاتهم.

لقد ظل أغلب العلماء متمسكين بمواقفهم المحافظة، ومناهضين لأي مبادرة تحديثية منبعثة من آفاق غربية[26]، وكانوا يرون في عادات وزي وعلوم الأوربيين ومن يأخذ عنهم أو يتشـــبه بهم، بدعا ينبغي محاربتها، حتى لا تغزو أذهان الناس وتهـــدد قيم المجتمع المغربي[27]. وأمام هذا النفور الشديد، كان من الطبيعي أن لا ينظر العلماء بعين الارتياح إلى مجموعة الشـــبان المغاربة باعتبارهم درسوا في ديار الأجنبي، وعادوا حاملين لأفكار جديدة وعلوم دخيلة.

---

24 - محمد عابد الجابري: «تطور الأنتلجنسيا المغربية، الأصالة والتحديث في المغرب»، ص15.

25 - تحفل أغلب الكتابات الأجنبية بمثل هذه الأحكام، نحيل على سبيل المثال لا الحصر:

Terrasse (H) : « Histoire du Maroc, des origines de l'établissement du protectorat Français.

E. Aubin (E) : « Le Maroc d'aujourd'hui, p155.

Kerdec un boulevard de L'islam, p111.

ادمون بورك، مرجع سابق، ص124.

26 - Miège (jL), op.cité, T.IV, pp135-139.

مصطفى الشابي، النخبة المغربية في القرن التاسع عشر، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، العدد الثامن السنة 1982، ص306.

27 - محمد الأخضر، الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، ص395.

عبد العزيز بنعبد الله، مرجع سابق، ص86.

محمد عابد الجابري، مرجع سابق، ص17.

وإذا كان موقـف هذه الفئة راجـع إلى تخوفها من أن يواكب هذه التدابـير الإصلاحية تدخلا أجنبيا، خصوصا وأنها عاينت الدسـائس الأوربية التي ما فتئت تشـتد وقتذاك مستهدفة سيادة وخيرات البلاد، فإن كثيرا من الباحثين يجمعون على ما كان لمثل هذه المواقف المحافظة من أثر في تعطيـل إمكانيات الإبداع والخلـق، وصبغ الفكر بسمات الجمود والتقليد، إذ لم يتعد دور أغلب العلماء مستوى الرفض والاكتفاء بمهمـة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، دون أن ترتقي كتاباتهم إلى مسـتوى بلورة حول مطابقة لمتطلبات أحوال الوضع المسـتجد آنذاك، وبـقي فكرهم يتحـرك في دائرة القديم، مسـتلهما أمجاد الماضي[28]. وبعيـدا كل البعد عـن إدراك روح العصر، لذا لم يشهـد المغرب تلك الحركة الفكرية النشـيطة التي عرفتها مـصر في نفس الفترة[29]، ولم يبرز فيه مثقفون باشروا التفكير في مسـتويات التأخر وسبل الترقي والتقـدم، أو دعاة إصلاح يتبنون آراء تنويريـة أو ذووا نزعة تجديدية توفيقية كما حصل في مصر وتونس[30].

ففي ظل هذه البيئة الفكرية الموسـومة بسيادة التقليد والجمود ظل أفراد البعثات يعيشـون على هامش المجتمع والأحداث، وتحت ضغط الإحباط والشعور بالعجز.

وهكذا نجد أحد الباحثين المعاصرين لا يتردد في تحميل نصيب من المسـؤولية حول مصير هذه التجربة إلى مواقف العلماء، يقول الأستاذ عباس الجراري في هذا الصدد: «...وما تجميد المسـؤولين للخريجين الذين عادوا من البعثات الموفدة للخارج إلا مظهر لذلك، والمسؤولية تقع كذلـك على العلماء ورجال الفكر الذين قطعوا ما بينهم وبين الجماهير

---

28 - محمد زنيبر، الفكر المغربي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، 322-317ê é.
عبد الله كنون، أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، ص25.

29 - محمد الأمين البزاز، الإصلاحات والمشكل الصحي في مغرب القرن التاسع عشر، ضمن ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن 19، ص232.
محمد زنيبر، المرجع السابق، ص320.
ولقد أشار لوترنو إلى المفارقة بين الحياة الثقافية والنشاط الاقتصادي التي ميزت مدينة فاس قبيل الحماية الفرنسية، إذ في الوقت الذي شهدت المدينة تطورا اقتصاديا ظلت على الصعيد الثقافي منغلقة على نفسها، ومشدودة بإخلاص إلى التقاليد.

30 - سقنا هذه الملاحظة على سبيل المقارنة الأولية فحسب، علما أن كتابات رواد الإصلاح قد تعرضت لانتقادات عديدة من حيث بنيتها الفكرية، غير أن هذه الانتقادات لا تقلل من فاعليتها الإصلاحية كما أشار إلى ذلك عبد الله العروي في مؤلفه مفهوم الحرية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1981، ص36.

من رباط، فلم تعد لهم على الصعيد المجتمعي أية مبادرة ولا أي دور قيادي ولا أي صوت مسموع إلا ما كان من صوت الوعظ والإرشاد، وحتى هذا الصوت فقد كان غالبا ما يضيع في زحمة الصراع من أجل المصالح...»[31].

وأخيرا نشير إلى أن عدم استغلال هذه الأطر وتهميشها كان راجعا أيضا إلى معارضة رجال المخزن من وزراء وقواد وكتاب وغيرهم لهذه الأطر[32]، وإذا علمنا أن جل هؤلاء كانوا شبه أميين أو في أحسن الأحوال ذووا تكوين ثقافي محدود وجامد، أدركنا خلفية موقفهم هذا والذي بلغ حد تنظيم حملات تشهير ضد أفراد البعثات متهمين إياهم بالجهل والكفر، حيث يستفاد من كتاب «الاستبصار» أن صاحبه الطاهر الأودي بعد أن نبه الأوساط المخزنية إلى حقيقة المطامع الاستعمارية وضرورة الاستعداد اللازم لدرء أخطارها، جاء جواب بعض الوزراء أن اتهموه بالإلحاد مضيفا أنهم كانوا ينقلون للسلطان أن أعضاء البعثات بعد أن مكثوا في الدول الأوربية مدة طويلة عادوا منها جهالا متنصرين[33]. ولا شك أنهم فعلوا ذلك كما أكد عابد الجابري: «خوفا من أن ينال هذا الاستعداد لمواجهة التدخل الأجنبي من مكانتهم ونفوذهم ومصالحهم»[34].

إن فشل أول تجربة للبعثات التعليمية، والتجارب المماثلة التي ستليها في فترات لاحقة، يفضي بنا إلى التأكيد على أن أية محاولة تروم إدخال بعض عناصر التحديث على بنية مجتمعية موسومة بهيمنة الطابع التقليدي، دون أن توازيها عملية تحديث شامل وكلي، ودون أن تكون منبثقة من تطور داخلي، تبقى محاولة محكومة بإخفاق متواصل،

---

31 - عباس الجراري، النضال في الشعر العربي بالمغرب من 1830 1912، دار الثقافة، مطبعة النجاح، الجديدة، الطبعة 2، الداري البيضاء 1978، ص11.

32 - ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص465.
عبد العزيز بنعبد الله، مرجع سابق، ص86.

33 - المنوني، مرجع سابق، ص386 LAROUI (ABD) op.cité, p288
حول هذه الاتهامات كتب الطاهر الأودي بلغة أقرب إلى العامية ما يلي: «وحين بيناهم بحجاج الستعدد لأعادي الدين على سبيل النصيحة بنياتنا خالصة، الحساد وزراء وكتاب خرجونا من الملة المحمدية...».
وفي موقع آخر كتب «...وفي عام 1305 بفاس رئيت بعين القلب وزراء وكتاب وأمناء...حين قالوا لأمير المسلمين كما ير النصارى جئنا منها جهور (كذا) متنصرين».
الطاهر الأودي، الاستبصار، ص38، وص96.

34 - محمد عابد الجابري، مرجع سابق، ص15.

وغير قادرة على إحداث تحول حقيقي، رغم عودة بعض أفراد البعثات وصياغتهم لبعض أطروحات الإصلاح في هذا الميدان أو ذاك، وهو أمر يبرزه بكل وضوح الأستاذ عبد الله العروي في كتابه «العرب والفكر التاريخي»[35] بقوله: «ينظر هذا المجتمع (يقصد المجتمع المتخلف) إلى العلوم الحديثة كبضاعة أجنبية، يستوعبها في لغة أجنبية، وأحيانا في مناخ أجنبي حيث يرسل أبناءه للتعليم والتدريب، والتخلف في الحقيقة هو عدم التمكن من استغلال هذا العلم المستورد، فتبقى البعثات تتبع البعثات دون أن تنجح عند رجوعها في تجدير هذا العلم المكتسب وتلقيح الحياة العمومية، قد تكون أسباب هذا العقم ناتجة عن كيفية التلقين في البلد المضيف أو المادة الملقاة أو القدر الملقن، وقد تكون الأسباب منوطة بأوضاع البلد الذي يحاول استيعاب ذلك العلم. لكن الظاهرة التي لا جدال فيها هي أنه لا يوجد تداخل بين العلم الحديث والإيديولوجية العامة في البلاد المتخلفة، ومن ضمنها البلاد العربية».



35 - عبد الله العروي، العرب والفكر التاريخي، دار الحقيقة بيروت، 1973، ص ص31-30.

# خاتمة

كيف نشأت فكرة إيفاد البعثات التعليمية إلى الخارج؟ هل جاءت كمبادرة سلطانية صرفة، أم تمت بإيعاز من جهات أجنبية؟ ما هي المقاييس والشروط التي روعيت في عملية اختيار أفراد البعثات؟ ما هي الأهداف المتوخاة من وراء هذه المبادرة الإصلاحية. كيف يتأتى لتجربة مماثلة أن تؤتي ثمارها في مجتمع مغرب القرن التاسع عشر بما هو عليه كمجتمع تقليدي متأخر؟ وما هي حدود استفادة المغرب من هذه المبادرة؟

إن هذه الدراسة في بنائها العام لا تعدو أن تكون محاولة جد متواضعة لتقديم أجوبة عن هذه الأسئلة ومثيلاتها، أثبتناها في سياق تحليل فصول البحث، جاعلين من هذه الأسئلة منطلق وموجه هذه المقاربة التي نشعر حيالها أنها لا زالت في حاجة إلى مزيد من التهذيب، والتمحيص، وليس ذلك نتيجة تقصير في التنقيب عن المادة اللازمة والكافية، بقدر ما هو مرتبط بندرة ومحدودية المعلومات التي تمدنا بها المظان التي تيسر الاطلاع عليها.

وهي معلومات لم تسعفنا دوما في تقديم صورة دقيقة وعميقة لبعض جوانب موضوع هذه الدراسة، كالجانب المتعلق بالأصول الاجتماعية لأفراد البعثات، ودرجة ومستوى وعيهم بعد عودتهم إلى المغرب، وتصوراتهم لمظاهر الحضارة الأوروبية التي عاينوها خلال مقامهم بالديار الأجنبية، والقضايا التي استقطبت اهتمامهم.

ولا شك أن التمكن من الوثائق الخاصة التي من المؤكد أن بعضها لا زال مودعا في خزائن أسر بعض أفراد البعثات، واستغلال المعلومات الواردة فيها، من شأنه أن يمكن من إغناء معالجتنا لهذه الجوانب.

ومـن جهة أخرى فـإن الوثائـق الأجنبية التي طالتهـا اليد تعد غير كافية، ولا يخامرنا شـك في أن الاطلاع عـلى مزيد من الوثائق المحفوظة في أرشيفات كل الدول التي قصدتها البعثات، لكفيل بسد بعض ثغرات هذا العمل.

تأسيسـا على هذه الاعتبارات، نرى من المجازفة والسـابق لأوانه إصدار خلاصات وأحكام نهائية حول هذه التجربة الإصلاحية، بيد أن تفاعلنا مع الموضوع طيلة المدة التي اسـتغرقها إنجازه أتاح لنا بلورة بعض التصورات الأولية التي يمكن إجمالها فيما يلي:

إن أيـة رؤية موضوعية لهـذه التجربة تجنب نفسها السـقوط في إصدار أحكام قيمة، لا بد تستبعد تصورين يختلفان في الحكم والتقويم، ويلتقيـان في المنطق المعتمد، التصور الأول الذي يسـتصغر أو يقزم- إن جاز التعبير- من شـأن هذه المبـادرة، باعتبارها مثلث مجرد إجراء سطحي وجزئي، مما يوحي بالاعتقاد أنها غير قمينة بالبحث والدراسة، والتصـور الثاني مناقض للأول، وهو تصـور يعلي أكثر من اللازم من شأن هذه المبادرة ويحملها أبعادا تفوق بكثير حجمها الحقيقي.

إن هـذه التجربة-بـصرف النظر عن مردوديتها السـلبية- تمثل في اعتقادنا محاولة جادة تثبت الإرادة الإصلاحية لدى السـلطان الحسن الأول، وتعكـس رغبة أكيدة في تجاوز الحالـة المتردية التي أصبحت عليها الهياكل الإدارية والعسـكرية، وتستهدف تقوية هذه الهياكل إزاء تحديات الدول الأوربية الاسـتعمارية، غـير أن هذه الرغبة اعترضتها عوائـق داخلية وخارجية حالت دون إنجازهـا بصورة فعالة، وافتقدت إلى المناخ المناسب الذي يمكنها من التبلور وتحقيق الأهداف المنشودة.

من الخطـأ تصنيف هذه المحاولة ضمن مجال محدد من المجالات التي جرى الاهتمام بإصلاحها، كالقول مثلا أنها تمس الميدان التعليمي فحسـب، أو اعتبارها مجرد إجراء من ضمن الإجراءات المتخذة بهدف تحديث مؤسسـة الجيش، بل هـي تجسـيد مكثف لكل هذه المحاولات الإصلاحيـة، باعتبارها تطال الميدان العسـكري والتعليمي والإداري،

ويتأكد هذا من خلال منطلقاتهـــا ومحتواها وأهدافها ونتائجها، وذلك بالنظـــر إلى نوعية تركيبـــة البعثات، حيث تشـــكلت بعضها من طلبة، وأخـــرى من جنود، وثالثة منهما معا، وبالنظر أيضا إلى أهدافها حيث توخى الســـلطان الحسن الأول من ورائها إيجاد أطر مؤهلة للإشراف على المشـــاريع الإصلاحية التي رغب في إنجازها، وأخيرا بالنظر إلى تنـــوع المجالات التي اســـتثمرت فيها معارف وخبرة القلـــة القليلة من الأطر التي تم استخدامها بعد عودتها من أوربا.

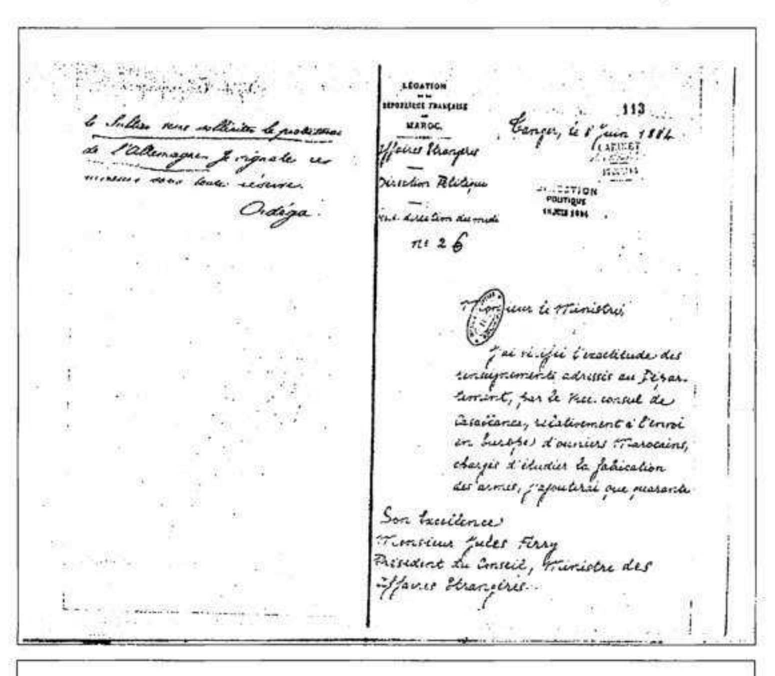
إن تجربـــة إيفاد البعثات الطلابية إلى مختلف الدول الأوربية، تمثل في نظرنا خير معبر عن مأزق الإصلاح الذي يكمن تفسيره في الموقف المزدوج اتجـــاه أوربا، والمتمثل في التناقض بـــين الرغبة في تحصيل علوم أوربا المتقدمة والأخذ بأسباب قوتها، واستيعاب أسس تنظيماتها من جهة، والعمل على مقاومـــة النفوذ المتزايد للدول الأوربية ومواجهة ضغوطها المتعددة من جهة ثانية، فأوربا مثلث النموذج والعدو في نفس الآن، النموذج بعلومها وســـلاحها وصناعتهـــا، والعدو لأنها أبانت عن سياستها التوســـعية وأطماعها الاستعمارية التي أصبحت تهدد كيان وسيادة البلاد.



## الملحق:

- نماذج من الوثائق الأجنبية المتصلة بالموضوع
- نماذج من مراسلات محمد الكعاب أحد طلبة البعثات
- نماذج من أعمال متنوعة لأفراد بعض البعثات

## ▪ نماذج من الوثائق الأجنبية



le Sultan veut solliciter la protection de l'Allemagne. Je signale ces rumeurs sous toute réserve.

Ordega.

LÉGATION DE LA RÉPUBLIQUE FRANÇAISE
MAROC.

Affaires Étrangères

Direction Politique

Sous-direction du midi

n° 26

113

Tanger, le 8 juin 1884

CABINET

DIRECTION POLITIQUE 14 JUIN 1884

Monsieur le Ministre,

J'ai vérifié l'exactitude des renseignements adressés au Département, par le Vice-consul de Casablanca, relativement à l'envoi en Europe d'ouvriers Marocains, chargés d'étudier la fabrication des armes; j'ajouterai que quarante

Son Excellence
Monsieur Jules Ferry
Président du Conseil, Ministre des Affaires Étrangères.

autres indigènes viennent de prendre passage à bord d'un steamer anglais pour se rendre à Liège et à Essen.

Je sais de source certaine que mon collègue d'Angleterre a obtenu du Sultan, pour la maison anglaise Cockerill de Seraing, une commande de six pièces d'artillerie de montagne en acier. On m'assure, en outre, qu'une autre commande de canons aurait été faite par le Gouvernement Marocain à la maison Krupp dont les agents ont fait récemment un voyage à Mekinez.

Jusqu'à nouvel ordre, nous n'avons pas à nous préoccuper outre mesure de ces opérations qui ne sont que des spéculations lucratives auxquelles

114

participe l'entourage du Sultan associé à quelques agents étrangers. Le fils de Mohammed Bargach est chargé de ces achats et j'ai déjà signalé les commentaires qu'a provoqués son départ pour l'Europe, en compagnie du drogman de la Légation d'Allemagne.

Veuillez agréer, Monsieur le Ministre, les assurances de ma très haute considération.

Ordega

À la date du 24 septembre, j'avais avisé le Grand Vizir de l'arrivée de ces officiers, en le priant de donner les ordres pour qu'une escorte soit mise à leur disposition afin qu'ils puissent rejoindre S. M. Chérifienne. Je viens de remettre au Commandant de Breuille des lettres pour notre consul de Mogador et notre agent de Mazagan, ainsi que pour les gouverneurs de ces localités, pour que tout leur concours facilite leur voyage.

Le Commandant de Breuille, d'après les instructions du Ministre de la Guerre, remplacera le service de chef de mission devenu de M. le Commandant de Vallières, et devra rejoindre sans retard le nouveau poste qui lui aura été assigné par ses chefs.

Veuillez agréer, Monsieur le Ministre, les assurances de ma très haute considération.

Féraud

---

LÉGATION DE LA RÉPUBLIQUE FRANÇAISE AU MAROC

Tanger, le 5 Octobre 1885.

170

Direction Politique

N° 156.

Monsieur le Ministre,

Depuis quelques jours on annonçait ici que le Dr Testa, le nouveau représentant de l'Allemagne au Maroc, était à la veille de rejoindre son poste, mais le vapeur de la Compagnie Forwood de Londres, qu'il devait prendre, est arrivé hier sans amener le ministre allemand dont l'absence, d'après ce que laisse entendre le personnel de sa Légation, se prolongerait jusqu'à ce qu'on ne jugerait plus utile de le retenir à Berlin.

Par contre le bateau anglais a ramené une douzaine de jeunes marocains

Son Excellence
Monsieur de Freycinet
Ministre des Affaires Étrangères.
Paris.

---

qui viennent de terminer leur instruction militaire en Allemagne. Depuis leur débarquement, ils parcourent les rues de Tanger avec l'uniforme et le sabre prussien, n'ayant du costume marocain que la coiffure qui permet de reconnaître leur origine.

On sait que c'est un fils de Sid Mohammed Bargach, dont les sympathies pour l'Allemagne ne sont un secret pour personne, qu'est dû l'envoi de ces jeunes gens à l'école militaire de Berlin, comme c'est également par suite de ses instigations que le Gouvernement Chérifien a fait, il y a deux ans, une commande importante à la maison Krupp. Les intrigues du fils du ministre marocain et les relations suivies qu'il s'efforce d'entretenir entre son pays et l'Allemagne trouvent leur explication dans les bénéfices considérables qu'il retire et espère encore retirer de ces marchés; d'ailleurs, trop intéressé pour être exclusif dans ses prédilections, il ne

---

171

se fait pas faute de recommander à son souverain tout pays dans lequel il espère réaliser quelque gain. C'est ainsi qu'après avoir réussi à faire armer les forts de la côte d'une artillerie aussi inutile que coûteuse, et à faire substituer aux Remingtons de l'infanterie marocaine des fusils achetés par les soins de la maison Cockerill, il a décidé le Sultan à acheter à Liverpool un grand vapeur, l'"Hassani", destiné au service de la côte marocaine, et qui n'a pas coûté moins de 750.000 francs.

Le gouvernement chérifien, désireux d'utiliser son bateau, était entré récemment en pourparlers avec la Compagnie Paquet de Marseille; mais celle-ci a déclaré ne vouloir assumer aucune responsabilité si l'équipage et l'État-Major n'étaient pas exclusivement composés de marins français. — Entre temps, le fils de Bargach faisait venir de Belgique un capitaine, un mécanicien, et des matelots qui sont

arrivé avant. Mis à Tanger il eut été immédiatement installé à bord de l'[illegible]. Mais comme les termes du contrat à intervenir entre le Gouvernement marocain et l'équipage belge n'ont pas encore été arrêtés, il est à présumer que le dernier mot n'est pas dit sur cette affaire.

Dans tous les cas, c'est le fils de Bargach qui est aujourd'hui l'intermédiaire entre le Gouvernement marocain dans toutes les affaires entreprises avec l'Allemagne et la Belgique. Il s'est déjà rendu à plusieurs reprises dans ces deux pays, et, lors de son dernier voyage, le Roi des Belges, auquel il fut présenté, le décora de sa main de l'ordre de Léopold. — Ici, il est étroitement lié avec le Syrien Manzour (?), drogman de la Légation allemande et l'israélite marocain Sicsu (?), interprète du Ministre de Belgique, qui lui servent d'acolytes dans ses voyages en Europe et, s'il faut ajouter foi aux rumeurs qui ont cours à Tanger, et que, pour ma part, je crois pleinement fondées,

172

qui partagent avec lui les bénéfices qu'il a retenus dans chaque fourniture achetée pour le compte du Sultan.

On annonçait, il y a quelque temps, que S. M. Chérifienne lui avait confié le ministère de la Guerre. — Le bruit est assurément inexact. — Il serait, en effet, difficile d'imaginer, si grande que puisse être son influence, par quels moyens le fils de Bargach aurait réussi à faire destituer le ministre actuel, qui appartient à la famille de [illegible] et est fils du Grand Vizir.

Les journaux français et espagnols ont reproduit un télégramme, d'après lequel des ingénieurs allemands auraient été surpris pratiquant des sondages sur la côte méditerranéenne du Maroc, à la hauteur des îles Zaffarines. Il est à peine besoin d'ajouter que cette nouvelle est absolument imaginaire.

Le correspondant de l'Agence Havas

---

Légation de la République Française au Maroc.

Copie

30-4

Note sur les jeunes gens envoyés par le Sultan du Maroc à l'Ecole du 2e Régiment du Génie à Montpellier.

L'intention du Sultan en envoyant à Montpellier ces jeunes marocains est de les voir s'appliquer au côté pratique des travaux de mine, de sape, ainsi qu'au maniement sérieux et bien entendu de la dynamite au point de vue militaire.

Leur éducation se ferait plus rapidement et d'une manière plus complète s'il était possible de les faire participer à la guerre des mines qui se pratique habituellement à cette époque de l'année.

D'autre part il ne serait point utile qu'ils soient initiés à l'école du soldat d'infanterie. Cette instruction devant leur être donnée dans leur pays même par les soins des officiers de notre mission au Maroc.

En ce qui regarde la solde et l'entretien de ces jeunes gens, le Gouvernement Marocain

serait

versera pour mon entremise, au Ministère de la Guerre, la somme de deux francs par jour à chacun de ces élèves et celle de trois francs pour l'interprète qui résidera auprès d'eux durant tout le temps de leur période d'instruction en France.

Trois jeunes gens parlant le français et qui se trouvaient dernièrement encore en Belgique où ils devaient s'instruire(?) aux frais(?) [illegible] envoyés dans ce pays par le gouvernement Marocain ont reçu l'ordre de se rendre sans retard à Paris pour rejoindre les huit jeunes gens [illegible].

Ils seront traités au point de vue de la solde sur le même pied que l'interprète.

Le Gouvernement Marocain exprime le désir de voir ces jeunes gens continuer à porter leur costume national, et dans le cas où dans les heures de travail ils seraient vêtus de la tenue(?), le gouvernement du Maroc tient beaucoup à ce qu'ils conservent au moins la coiffure de leur pays.

Pour copie conforme
Le Lieutenant Colonel chef de la Section d'Afrique



---

[illegible] de faire [illegible] et de [illegible].

Il est [illegible] en Belgique [illegible] jeunes Marocains, pour apprendre [illegible] l'Anglais [illegible] en Belgique [illegible].

[illegible] de la Mission. — [illegible] pendant la plus grande partie du mois d'Avril.

A Rabat, le [illegible] depuis [illegible] Rabat [illegible].



من وثائق وزارة الحربية الفرنسية

A.C.V. Rapport du C. Vallois, n° 4, Meknès, le 3 mai 1884

combinaison se réalise, j'ai chance d'avoir
gain de cause auprès de l'Empereur.

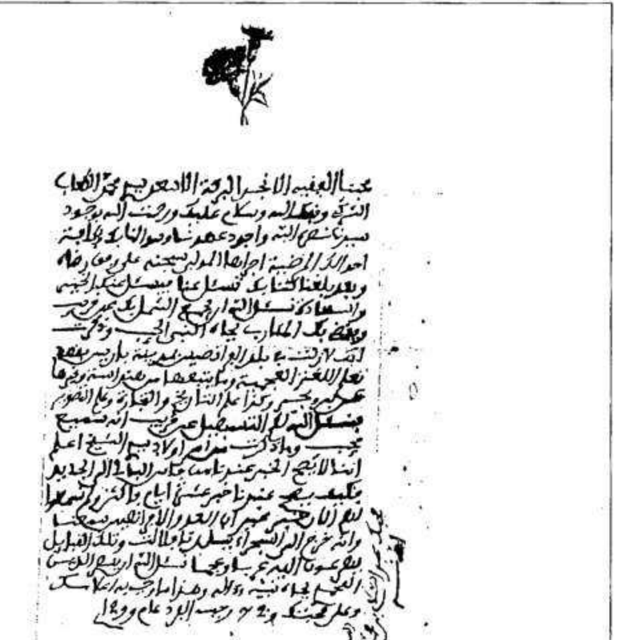
Le canon Krupp de campagne de 87 mill. acheté
par le Maroc, et dont j'ai parlé dans mon
dernier rapport, (1er juin n°4), est enfin arrivé le
... lieu à Rabat. Les expériences de tir qui ont
eu lieu le lendemain ... de distance,
ont été satisfaisantes, et le Sultan a fait une
commande de deux batteries de 87 mill. qui
doivent lui être livrées en octobre prochain, par la
maison Krupp. C'est une opération désastreuse,
car il n'existe pas de routes au Maroc, et les
pièces, quand on aura pu les transporter à Fez
au prix de sacrifices de temps et d'argent
considérables, y resteront immobilisées, et ne
rendront, de longtemps, aucun service. Le
Sultan, d'ailleurs, avait reconnu lui la vérité, que
ses agents lui ont caché jusqu'au moment de
la conclusion du marché, et il est fort mécontent.
Je n'ai jamais été appelé à donner mon avis
sur cette affaire.

Travaux de la Mission. — Cinquante des jeunes gens dont j'avais
annoncé l'envoi en Belgique dans mon dernier
rapport, sont partis depuis quelques jours;
vingt autres sont ici, tout prêts à partir, pour
Berlin, dit-on. Enfin, au commencement de mai,
quatre armuriers se sont embarqués à Casablanca
à destination de l'Europe : ils vont faire des
achats, disent les uns, — se perfectionner dans leur
métier, disent les autres.

L'instruction a continué régulièrement pendant
le mois de mai. Le Sergent Bru, du 3e génie,

A.G.V, Rapport di C. Vallois, n° 5 meknès,
le 10 juin 1884

# ▪ نماذج من مراسلات الطالب محمد الكعاب



صحبنا الفقيه الأنجد البركة، الأسعد سيدي محمد الكعاب الشركي وفقك الله وسـلام عليك ورحمة الله بوجود سـيدنا نصره الله وأجدد عهدنا وسـؤالنا بك وبكافة أحوالك المرضية، أجراها المولى سجنه على وفق رضاه، وبعد: بلغنا كتابك تسـئل عنا فيسئل عنك الخير والسعادة، نسئل الله أن يجمع الشمل بك عن قريب، ويقضي بك المئارب بجاه النبي الحبيـب، وذكرت أنك لا زلت في بلد الفرانصيص بمدينة باريس بقصد تعـلم اللغة العجمية وما يتبعها من هنداسـة وغيرها من بر وبحر وكذا علم التاريخ والتجارة وعلم التصوير، فتسئل الله لكم التسهيل عن قريب إنه سميع مجيب، وما ذكرت من أمر أولاد سـيدي الشـيخ أعلم أننا لا يصح الخبر عندنا من فاس البالي إلى الجديد، فكيف يصح عندنا خبر عشرة أيام فأكثر، ولم نسمعوا لهم الآن خبر غير أن العدو الافرانصيس سمعنـا أنه خرج إلى السحراء ببلد تافلالـت وتلك القبائل يهرعون إليه عربا وعجما نسئل الله أن ينصر الدين المحمدي بجاء نبيه وءاله، وهذا ما وجب به إعلامك وعلى محبتك وفي 7 رجب عام 1299.

**محبك عبد السلام بن محمد**



الحمد الله وحده

وصلى الله على سيدنا محمد وءاله وصحبه

أخي وقرة عيني وثمرة فؤادي الفقيه الأنجد، الطالب الأسعد، سيدي محمد بن محمد الكعاب الشركي، أمنك الله والسلام عليم ورحمة الله عن خير سـيدنا أيده الله ونصره، وأجدد عهدنا وسؤالنا بك وبكافة أحوالك المرضية، أجراها سبحانه على وفق رضاه، فإن سالت عنا كسؤالنا عنك فــلا بأس والحمد الله من فضل الله ورضا الوالدين، وأعلم أن إخوانك كافة لا بأس عليهم والحمد الله، وكذلك أعمامك وأولادهم وأزواجهم وكافة أهلنا وأحبائنا بعد سـلام الجميع عليك، وبعد هذا ذكرت لنا في كتابك الأعـز تاريخه 12 ربيع النبوي الأنور، أن نبـين لنا جميع أمورنا لتكون منها على بــاب، أعلم القيام في محل والدك في أمــور المخزنية، أخاك محمد كمــا تقدم لك في كتب مضت قبل، وهو قاطن بفاس بداركم وأما قولك عــلى راتب والدك قدس الله روحه، فلا زال يقبضه أخاك المذكور،

وأما قولك نبين لك ما نحن فيه من أمر العســكر والطبجية والمسخرين، أعلم أننا لم يكن عندنا فيهم أحد غير اثنان من المسخرين الذين تركتهم عندنــا كما علمتهم، غير أن المخازنية تفر مــن الخدمة الشريفة، وتكتب الحــضرة العالية بالله للباشــا في رجوعهم للخدمة، ويأمرنا الباشــا بإحضارهم فنخرج لمجيئهم، فلا نمكث إلا أياما قلائلا، فيأتي كتاباء آخر في شــأن ءاخرين فنخرج أيضا إليهم، وهكذا نحن الله ينظر من حال الجميع، وأما قولك على قبر الوالد رحمه الله، فهو في قرب سيدي بوبكر بــن العربي نفعنا الله وإياك ببركته، وأمــا قولك على الفلاحة فها نحن رابطين أزواج عن ثلاثة، فالله يجعل البركة ويمطرنا مطر الرحمة، وكما يسلمون عليك القايد بوشت بن علي وأولاده علال والسيد محمد وعباس وإدريس وأمهم وهما بخير الله، وكما يســلم عليك الكاتب بكثير السلام وعز الســلام وها نحن نطلب الله عــز وجل أن يطلق سراحك عن قريب إنه سميع مجيب، وسلم من عند أخوتك على سادتنا طلبا قبيلة الأوداية جميعا بكثير الســلام وعز السلام، وأعلم أن ما ذكرت من أمورك وأمور أصحابك من القراءة وما أنتم بصدده فالله يعينيكم ويقضى بكم غرض سيدنا نصره الله، وذكرت لنا في كتابك أن مولانا المؤيد بالله، وجه لكم ثلاثة كساو مطروزين بالذهب زي المغرب، وتملكتم بهم حجة الحرام متم 1298 ، فبصحتــكم وعافيتكم، فالله يعطى لسـيدنا خــير الدنيا والآخرة، وذكرتم ما أنتم صدد من الله في أحســن ما ينبغي والحمد الله، وقلت أنكم ببلد باريس من ســنتين وثلاثــة أشهر، وتقبضون ثلاثون مثقالا 30 وكل ما ذكرت من أكل وشرب، فنحن منه على بال، واستوصى بأصحابك وعشرائك خيرا، واتهلا في حسن الخلق معهم، فالله يرضى عنك ويردك سالما عن قريب، إنه سميع مجيب وهذا ما وجب به إعلامك وعلى محبتك والسلام وفي 8 ربيع الثاني عام 1299.

**أخاك القايد محمد**

**وماتبه عبد السلام**

**من فوق الجميع،**

**آمين**

الحمد الله وحده

وصلى الله على سيدنا محمد وءاله وصحبه

أزكى السلام التام مع الرحمة والبركة على الفقيه الأديب الفايق بأدبه، أولى الألباب سيدي محمد بن الكعاب، هذا يصلك طي هذا، كتاب ورد علينا من أهلك مختوما، لنوجه لك من وعيدكم مبارك سعيد ويمه عندنا يوم الأربعاء فقد صمنا رمضان ثلاثين يوما فالله يتقبل من الجميع بجاه النبي الشفيع وسلم منا على رفيقك الطالب الطاهر بن والسيد قاسم وكما يسلم عليكم السيد محمد بناني ورفيقيه ولا زالوا بحضرتنا وكذلك السيد أحمد بن شقرون ورفقاءيه برباط الفتح ليجعلوا هناك العيد مع أهلهم ويرجعون لمحلهم بمدريد وكما يسلم عليكم المعلم عبد الله والفقيه الزناتي وسيدي عبد القادر الدكالي والسلام في شهر شوال عام 1299.

**عبد السلام بن محمد الحليم**

2427 — 18 juin — 1884

Excellence —

J'ai l'honneur de rapporter à votre excellence les conditions de séjour à Seraing dans nos usines, des vingt jeunes apprentis, ouvriers mécaniciens, et de l'interprète-professeur de langue française, annoncés par votre excellence —

Ces jeunes gens sont complètement pourvus [illegible]

La Société Cockerill leur donnera gratuitement le logement, le chauffage et l'éclairage, avec une cuisinière, femme de charge, et un employé pour faire les achats de ménage.

La Société Cockerill payera à ces jeunes gens, pour compte de votre excellence :

1° les frais faits pour eux depuis leur arrivée à Anvers, soit par votre légation, soit par nous-mêmes à Seraing jusqu'à lundi prochain ;

2° les frais à faire pour les habiller complètement à l'européenne, à l'exception des fez qu'ils conserveront, soit fr. 500 (cinq cents francs) pour l'interprète et fr. 125 (cent vingt-cinq francs) à chacun des apprentis ouvriers, tant pour les vêtements de travail que pour ceux de sortie des dimanches et jours de fêtes ;

3° le salaire de fr. 225 (deux cent vingt-cinq francs) d'indemnité de professorat de fr. 50 (cinquante francs) par mois pour l'interprète, [illegible]

fr. 5 (Cinq francs) pour les cinq maîtres
apprentis et fr. 3,75 (Trois francs soixante
quinze centimes) pour les autres par jour,
libre à moi de ne payer l'intégralité
de fr. 50 — que si je suis content de son
professorat et aux ouvriers le salaire
entier que lorsque je les en jugerai
capables.

La Société Cockerill remettra des relevés à
la fin de chaque série (quatre semaines)
la situation exacte des comptes ouverts
dans nos livres pour ce service, avec
les états de salaires et de dépenses à
l'appui.

Sur le salaire de l'ouvrier sera retenu
le montant des dépenses de vivres qu'il
sera nécessaire de faire et dont je reste
seul juge.

Je prie votre Excellence de nous déclarer
son accord sur ce qui précède et de
croire à mon entier dévouement aux
Augustes intentions de Sa Majesté
l'Empereur du Maroc.

A Son Excellence Bargach
Actuellement à Seraing.

(Lettre)

9 Août 1880

Cher ami.

Permettez-moi de vous écrire quelques mots en français, parce que je ne sache pas bien encore cette langue. Aussi je ne vous parlerai pas bien longtemps.

Je désire avoir des nouvelles de votre santé. Je prie Dieu de vous la faire toujours bonne et de vous accorder tout ce que vous pouvez désirer.

Écrivez-moi le plus tôt que vous pouvez et donnez-moi des nouvelles de tout ce que vous faites.

Une autre fois je vous ferai une lettre très longue.

Je suis bonne santé grâce à Dieu et je travaille beaucoup. Et me tarde bien de vous revoir, mais je ne sais pas quand cela pourra se faire.

Votre dévoué ami

Nous travaillons toujours avec le
même bon courage.
Votre santé est bonne et nous
vous souhaitons que la votre
soit de même.

[illegible]

Cher ami
Votre lettre m'a fait beaucoup
de plaisir. Je suis heureux d'apprendre
que votre santé est bonne et que vous
ne m'avez pas oublié.
De mon côté je me souviens toujours de
vous et je suis charmé que nos
relations puissent se continuer par
lettre. Ma santé est bonne, et
je travaille beaucoup. On me dit
tous les jours que je fais beaucoup de
progrès; mais je trouve que je n'en
fais pas encore assez; je voudrais être assez savant
pour revenir vite au Maroc,
et je ne laisse passer aucun jour sans
y penser. Cela seul suffirait pour me
faire travailler. Je suis très content
d'avoir été envoyé à Paris, la capitale
de la France et le rendez-vous de tous
les étrangers de tous les pays; c'est plutôt
la capitale du monde entier que
de la France.
Tout ce qu'il y a de beau, de grand se
trouve à Paris, c'est là que se trouve
l'élite des gens savants, instruits, les hommes ...

Lettre

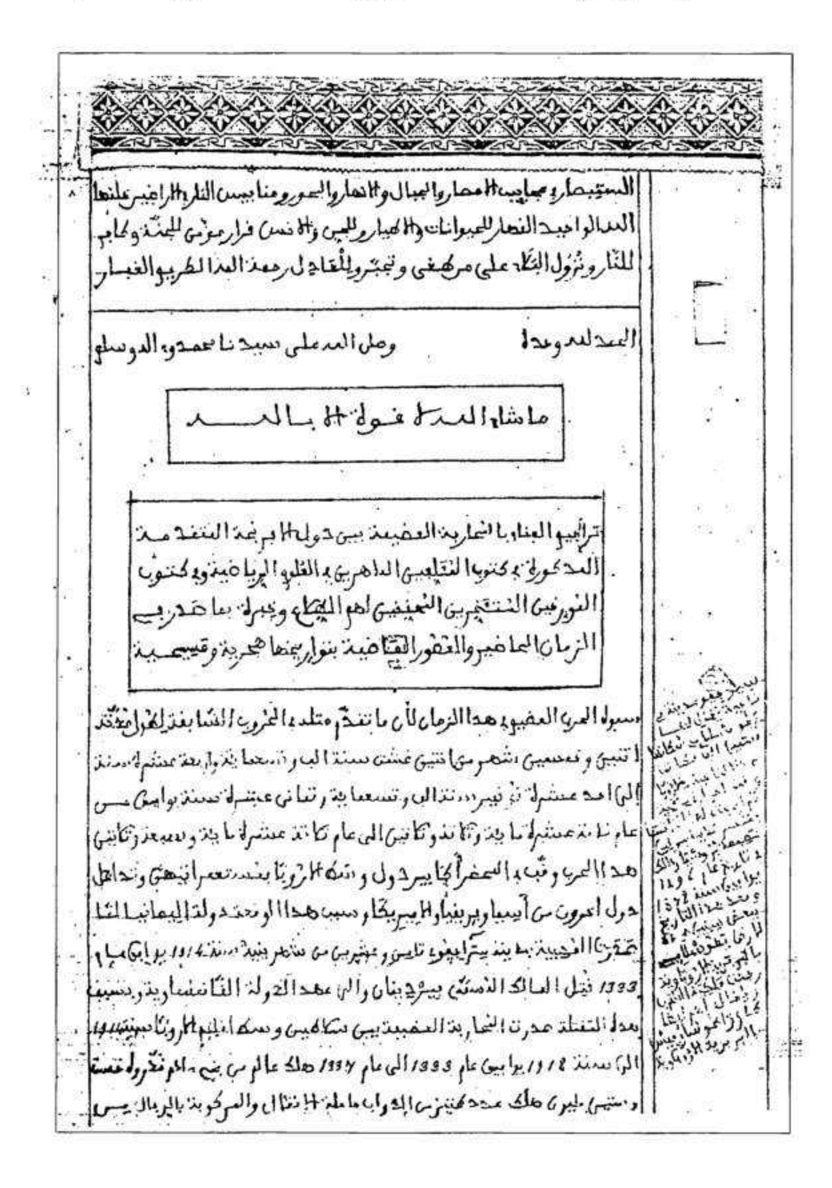
La lettre que nous vous écrivons est
pour vous prier de nous envoyer
deux costumes riches pour l'été et pour
l'hiver, car ceux que nous portons
commencent à devenir usés.
Nous voudrions aussi, si cela est possible
que vous augmentiez la somme qui nous
est donnée tous les mois pour nos
besoins particuliers.
Nous aurions besoin de 30 francs au
moins, car à Paris si peu que
l'on fasse on a vite dépensé son
argent, tout y est coûteux, toute chose
[illegible]
ce que nous demandons.
N'oubliez pas non plus d'envoyer aussi
un pardessus français et des
chaussures françaises, car nous
les préférons. Les chaussures [illegible]
garantissent [illegible]
La chaleur a été accablante cette
année avec beaucoup d'orages
continuels ; nous en avons souffert
beaucoup.
M. le [illegible] nous écrit [illegible]
parle de nous [illegible] ; nous ne
vous en dirons rien pour [illegible]

Nous étions [illegible] car on y apprend
beaucoup de choses en des livres, mais
on trouve toujours quelque chose
de nouveau à apprendre, et
ce n'est pas [illegible] Paris
Je ne finirais pas si je voulais
vous entretenir des musiques, des
monuments, des rues et des magasins
de toutes sortes de cette grande et
belle ville. Je m'arrête et vous
prie de croire ma sincère amitié.
Souhaitez bien le bonjour de ma
part à vos amis M. et Mme [illegible]
dont aussi les miens.
Je ne les oublie pas, et ils [illegible]
[illegible] bien de le savoir.
Parlez-moi dans vos lettres
de tout ce que vous voyez en
Espagne de beau et d'utile.
Elles m'intéressent beaucoup,
et surtout écrivez-moi ~~moi~~ un
un peu plus souvent.
En attendant votre prochaine
lettre, recevez pour vous et pour
vos amis, mes salutations amicales.

Votre dévoué et [illegible]

# ▪ نماذج من أعمال أفراد البعثات

## ◆ الطاهر الأودي ◆ أحمد شهبون ◆ محمد بن الكعاب



الاستبصار وعجائب الامصار والجبال والانهار والبحور ومنابيس الناس الراغبين علينها
الله الواحد النصار للحيوانات والاحيار والجن والانس فرار مومن للجنة وكافر
للنار ونزول البلاء على من طغى وتجبر وللعادل رحمة الله الطريق الغبار

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

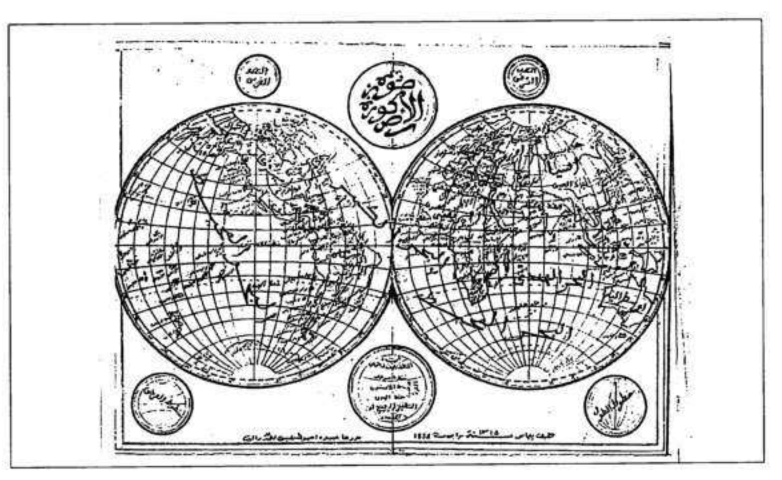
ما شاء الله لا قوة الا بالله

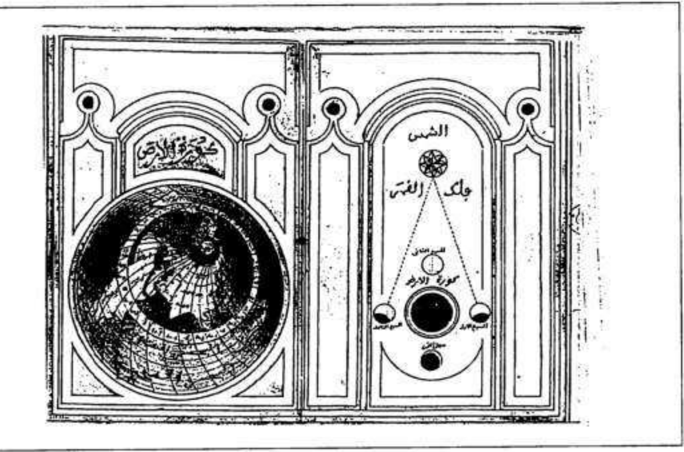
تراتيب العناية بالمحاربة العظيمة بين دول الافرنجة المتقدمة
المذكورة في كتب التعليم الظاهرين في العلوم الرياضية وفي كتب
المؤرخين المتبحرين المحققين اهل الاطلاع وخبرة بما حدث في
الزمان الماضي والعصور الخالية بتواريخها بحرية وقيصرية

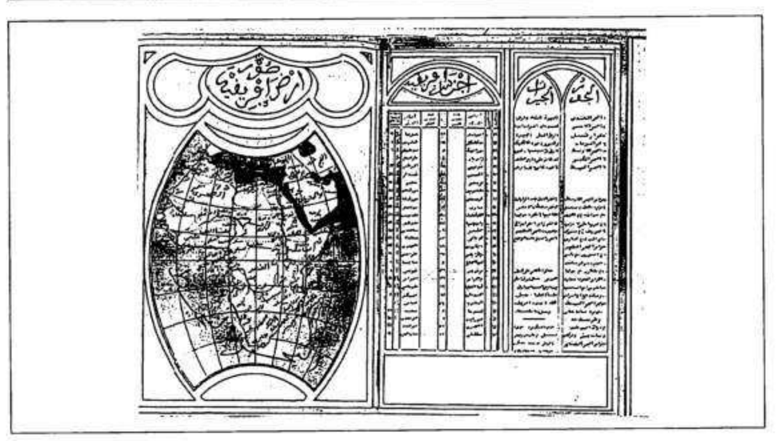
وسبول الحرب العظيمة هذا الزمان لأن ما تقدم من تلك الحروب التي بعدها الحرب المذكور
ا تنين وخمسين شهر من اثنين عشر سنة الف وتسعماية واربعة عشر ميلادية
الى احد عشر من نوبر سنة الف وتسعماية وثماني عشرة سنة يوافق من
عام ثلاثة عشر ماية وثلاثة وثلاثين الى عام ثلاثة عشر ماية وسبعة وثلاثين
هذا الحرب وقع في السفر اثنا عشر دول ومنه الاوروبا بعضهم تعمرانيهو وتداخل
دول اخرون من آسيا وافريقيا والاميريكا وسبب هذا الوقت دولة اليمانيا التي
تحترز الفجيعة بمدينة سراجيفو تاسع وعشرين من شهر جونيه سنة 1914 يوافق عام
1333 قتل الملك الاستة بيرديناند والي عهد الدولة النمساوية وبسبب
هذه المقتلة حدثت المحاربة العظيمة بين المسلمين وممالك اوروبا بينهم
الى سنة 1918 يوافق عام 1333 الى عام 1337 هلك عالم من بني آدم قدر خمسة
وستين مليون هلك عدد كثير من الدواب ما عدا الانتقال والمركوبة بالرجال

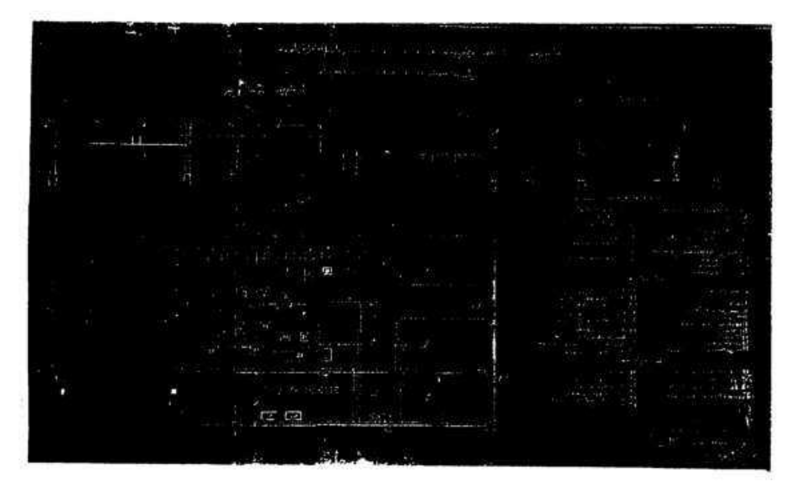
في الشكة بأراضي الكفرة فتجمعت منها ثابتة رجال تسمى ثابتة رجال فرنسوية
فيضيقوا بين تالك الدولة التركية فكان الامر حتى الى غاية النشروط الفتنة لفرنسا
تحت لك الحي التلمسان وزنجها ثم تبلها ففرانه جبرة عظيمة والفرانسيس بحيث
رابطة وبيار بيزكيتا انا ترينتان السبير مع كاتنا على دولة التونسية عام 1299 يوافق
سنة 1882 وفي عام 1300 يوافق سنة 1881 التي الرغلة التجلة الليبيا بيعتبر
في صورة الدنيا مستقرة مناسبة للجهة البلجيكية بعضها للسلطات العولي المحسن
وفي عام 1301 يوافق سنة 1883 في التي زينا بأثر السلطان زة شاه تعقيبي
رجال سيبارة تغربية لأرض التي كالأتل تعليم المغاربة التصادية وفي عام
1304 يقا سارة بنت يحيى الملك وزراء وكتاب وأقنا د ابرة البيان كتابا الترولة
والتنابية بين التي الأمير المسلمين كتابين التجارة ديني يتنا فيها فغور
مشهورين ونتفكر ولنا اتاعي العور وبين الى هذا الساعة وفي ذلك الزمان يجلو
لنا إمشهد دار السلاع السعيدة ما نتمنى الابشد انول البيمارة الناصحة القالبة
مدة تسع وعشرين سنة من عام 1304 الى عام 1334 وفي عام 1307 يوافق سنة
1889 نزلنا المقيم بن الكبير سفير الدولة فرنسا بصحبة لرابيس الجمهورية كارنو
وبصحبته لناك شبابا البرونس الثالث عشر وفي عام 1324 يوافق سنة 1905
نزلنا في مؤتمر باريس مع نايبي الدولة الفرنسوية والوزراء ونواب الايالة العربية
بقول النايب أهم أموال السنان كلها متاريت عربية بيد لا تاجد للخارج
الشاي والقبايل التنا ببيدنع بو مسارة تحجو على الفنانة الجزايرية وهو
رؤساء الدولة العربية من شيخ البناني فكلة مشتغلون مخالج انبيتعو
وأمور الشافة التهنة عندهم صحة لنا بنيتي على حساب المجاورة للوطن
الجزايرية فرنسا نتكلم من إصلاح حالة الغربة المرهبة لازم تذهب صدلو
الحالة الحاصلة لا بد ابرة فرنسا الحربية كحالتي من النعاد لا بو مدارة وعود
البلاسة لا احتلت مع بند وحيدا وبقا بزبع لها البنات بعد وعد الحاسرة فرنسا
وصلتها المفترة للوطن الجزايرية ما يقولون تعواء المغاربة بضربو سكنة حتى
بعد التشريحية لثوارية شجيرة محققة بفاموا أنفع ونمرت الجلسة التي البدي تلك
الساعة الرياسة لنجة كالبومي الجنوسة الكلام بحث انا نزلنا البيمارة العربية

المغربية الحاج محمد الجباص. الحاج محمد الليف. عبد الرحمن بنيس. الحاج محمد
الصفار، والفقيه العلامة الأديب الحاج محمد بنونا أرسلتهم الحكومة إلى الجزيرة الخضراء
عام 1303 بموافق سنة 1886 وبعد التمرين بجاليس مدة ثلاثة شهور بعثوا لجبل
بلنسية بعد أيام من سلفوا الجيوش لفرنسا ضبط ما بيد المغربية من مولفاتها وتاريخها
وتملكوا عقاراتها في التراب بما فيه جزائر شبه جزيرة إلى الثغور المغربية
واستولت فرنسا على الإيالة حصلت أموال داعب ومعه بيد البانكا كاملة عليها
مراقب الكلين ومراقب كالبانية ومراقب سنيول ومراقب فرنسية ومدير مغربية
وقامت فرنسا المعركة في نايبر ومحاربة حربية لابعد حد الك التداريب الحربية
(عليه مع) الجديدة لقنها الخصيصي فرنكد الاتي سلفت للمغرب البانكا الباريزبانيز
بقلوع عشرة ملايين فرنك على يد الشيخ التازي واحيد لمعرفة بنزلت فرنسا أثناءها
في المدارس التعليمية واستولت فرنسا بالسيبايسة على الإيالة المغربية واشتغلت
دايرتها الحربية بجواب النيزكة باعتبارها هم من المتقسمة بقوليتا لتمويل المغربية
كليه بعبر كنه واحدة في النشر جرها على ما لم تنها ... الاثرات النهضة بجميع ما نشأ
سنة منظور عليها شبان المغربية الوكالات الجزائرية وشرعوا بدعبرة تعلما
بيقابين واستثنائي المدارس مع الزاريا اثنه عشر هذه اللجنة على عدم رد بالي
على نظام أنه سنيتين في الرحلات بعضهم ومنها الحربي كلفاو مسؤولة بتبعية
الفنانين الاستعمارية سمم الخلاية الغيور الخلال الجناين الدين يتعلق بالى
ليتعرفوا [illegible] الاخبار [illegible] الى التناهي الحاج جلال من
الارض الفرنسية قام بها وبارك الطبيعة سنتين وناجح سلطان الأمة المثقفة
المغربية بيهادلة الثقافة نهيئنا عصر التلين واستفادة كان فرنسا ونأخذ على
تراجم سرقوا مكانها أقيد فرنسا تأخذ الارض المغربية وتعلينا وزير الخارجية
عبد الكريم بن سليمان عن طلب الجيوش تشتغر في شأن مطالب فرنسا في
فتنة بامسلمي شتنزلة الوزير شرنيكه بالتزييد آلة الحروب تحت الجزيرة ستفعلون
على المغرب تنزوله باد منه كبيرة لمقاتليهم وتفرقهم أرض المغرب المبكرة
كما طلب القول الحسن ت البجنوس تشعر بعدي شأن بنشر البعثة عام 1299
بموافق سنة 1880 وبعث مديرة الناصح الخبير السيد محمد بركاش وتعد ثالم بعنوان




الشمس
فلك القمر
كورة الارض







صورة للطالب محمد بن الكعاب ببذلته الاروبية

# البيوغرافيا

## المصادر والمراجع

■ **باللغة العربية:**

### الوثائق:

المحافظ رقم: 15-14-13-11-10-8-7-5 بالخزانة العامة تطوان

الوثائق: مجموعة دورية تصدرها مديرية الوثائق الملكية بالرباط:
المجلد الثالث والرابع، 1396هـ/1976.

### ◆ الكناشات:

كناش رقم: 302، كناش رقم: 303، كناش رقم: 327، كناش رقم 321، سجل مخزني «بيان الداخل والخارج على أمناء الصائر بدار عديل» رقم 331 بالخزانة الحسنية الرباط.

### ◆ المخطوطات:

ابن زيدان: عبد الرحمان «النهضة العلمية في عهد الدولة العلوية خ.ح.ر. تحت رقم 1377

ابن عزوز المراكشي: «رسالة العبد الضعيف إلى السلطان الشريف»، مخطوط ع.ر. تحت رقم د1623.

ابن المواز أحمد: «المقالة المرضية في الدولة العلوية والتسول بالنبي الطاهر للعلي القادر»، خ.ح.ر. تحت رقم 493.

الحجوي محمد: «اختصار الابتسام خ.ع.ر. تحت رقم ح 144.

الخوجة محمد بن أحمد: «رالة في تنظيم الجيش»، خ.ع.ر. رقم ك 2733.

سكيرج أبي العباس أحمد: «قدم الرسوخ فيما لمؤلفه من الشيوخ»، خ.ع.ر. رقم د 3844.

السباعي بن إبراهيم: «البستان الجامع لكل نوع حسن وفن مستحسن في عد بعض مآثر السلطان مولانا الحسن»، خ.ع.ر. رقم د 1346.

السليماني محمد بن الأعرج: «زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ»، ج2 خ.ع.ر. رقم د3657.

السملالي علي السوسي: «عناية الاستعانة في حكم التوظيف والمعونة»، خ.ع.ر. ضمن مجموع تحت رقم د480.

شهبون أحمد:

«كتابة الجغرافية المغربية وصورة الفلك»، خ.ح.ر. رقم 11654.

الصفار محمد بن عبد الله التطواني: «رحلة إلى فرنسا»، خ.ح.ر. رقم 113.

الغيغائي محمد بن عبد الله: «رحلة الغيغائي»، خ.ع.ر، رقم ج98.

الكردودي أحمد: ««كشف الضمة ببيان أن قريب النظام حق على الأمة»، خ.ع.ر. رقم د1281.

اللجائي الغالي: «مقمع الكفرة بالنسان والحسام في بيان إيجاب الاستعداد وحرب النظام»، خ.ح.ر. رقم 965.

المدغري محمد الدرقاوي العربي: «منشور يدعو إلى الحرب»، خ.ع.ر. رقم د3353.

المشرفي محمد بن محمد بم مصطفى: «الحلل البهية في تاريخ ملوك الدولة العلوية»، خ.ع.ر رقم د1463.

المشرفي العربي بن علي:

«الحسام المشرفي، خ.ع.ر. ضمن مجموع رقم ك 2276.

نزهة الأبصار لذوي المعرفة والاستبصار»، خ.ع.ر. رقم ك579.

المغيلي محمد بن عبد الكريم: «جواب على سؤال فيما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار»، خ.ع.ر. د2013.

الأودي الطاهر ن الحاج: «الاستبصار في عجائب الأمصار والأراضي والجبال والأنهار والبحور ومنافيس النار...»، مخطوط خاص.

## ♦ المصادر المطبوعة:

ابن إبراهيم عباس المراكشي: «الأعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام»، المطبعة بالرباط، 1983-1974، الجزء 3 و 7.

ابن زيدان عبد الرحمان:

«إتحاف أعـلام الناس بجـمال أخبار حـاضرة مكناس»، الأجـزاء (5-3-2) المطبعة الوطنية، الرباط 1931.

العز والصولة في معالم نظم الدولة»، الجـزء الثاني، المطبعة الملكية، الرباط 1962.

«الدرر الفاخرة»، المطبعة الاقتصادية»، الرباط 1937.

بلديراما فرناند ومرتنيت: خواكـين غاثيل رحالة المغرب»، دار الطباعة المغربية، تطوان 1954.

داوود محمد: «تاريخ تطوان»، المجلد الثالث، المطبعة المهدية تطوان 1962.

الدكالي محمد بن علي: «الاتحاف الوجيز»، تحقيق مصطفى بو شـعراء، من منشورات الخزانة الصبيحية بسلا 1986-1406.

السليماني أبو عبد الله: «اللسـان المعرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب»، المطبعة الأولى، مطبعة الأمنية، الرباط 1971.

الصديقي محمد بن سـعيد: «إيقاظ السريرة لتاريخ الصويرة»، الجزء الأول، مطبعة دار الكتاب الدار البيضاء بدون تاريخ.

الضعيف محمد بن عد السـلام الربـاطي: «تاريخ الضعيف (تـاريخ الدولة السـعيدة)»، تحقيق وتعليق وتقديم الأستاذ أحمد العماري، نشر دار المأثورات، الطبعة الأولى، الرباط 1986-1406.

العـلمي أحمد: «ضياء النبراس في حل مفـردات الانطاكي بلغة أهل فاس»، المبطعة الحجرية، فاس 1318هـ.

العمـراوي إدريس ابن دريس: «تحفـة الملك العزيز بمملكـة باريز»، الطبعة الحجرية دون تاريخ.

غريـط محمد: «فواصـل الجمان في أنبـاء ووزراء وكتاب الزمـان»، مطبعة الجديدة، فاس 1346هـ.

الكانـوني أبي عبد الله العبدي: «جواهـر الكمال في تراجم الرجال»، الجزء الأولى، المطبعة العربية، الطبعة الأولى، الدار البيضاء 1356هـ.

الكردودي أبو العباس أحمد: «التحفة السنية بالمملكة الاصبنيولية»، مطبوعات القصر الملكي، الرباط 1963م.

الناصري أحمد بن خالد: «الاسـتقصا لأخبار دول المغـرب الأقصى»، الجزء التاسع دار الكتاب، الدار البيضاء 1956.

## ◆ المراجع والدراسات:


ابن سودة عبد السلام: «دليل مؤرخ المغرب الأقصى»، الجزء الثاني، طبعة دار الكتاب الدار البيضاء، 1960.

ابن عبود محمد بن عبد السلام: «تاريخ المغرب»، الجزء الأول، دار الطباعة، تطوان، الطبعة الثانية 1957.

أبو طالب محمد: «مواقف بريطانية من مغرب القرن التاسع عشر»، ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر»، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنساني، الرباط 1983.

أومليل علي: «الإصلاحية العربية والدولة الوطنية»، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 1985.

الأخضر محمد: «الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية (-1664 1894)، دار الرشاد الحديثة، الطبعة الأولى الدار البيضاء 1977.

ألبرت حوراني: «الفكر العربي في عصر النهضة 1939-1798، دار النهار للنشر، الطبعة الثانية بيروت 1977.

برادة ثريا: «الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر»، مساهمة في دراسة الإصلاحات العسكري، رسالة نيل دكتوراه السلك الثالث، خزانة كلية الآداب، الرباط 1984.

البزاز محمد أمين:

- «المجلس الصحي الدولي بالمغرب، 1929-1792»، رسالة دبلوم الدراسات العليا بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط 1980.
- «الإصلاحات والمشكل الصحي في مغرب القرن التاسع عشر»، ضمن ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، الرباط 1983.

بروفنصال ليفي: «مؤرخو الشرفاء، تعريب عبد القادر الخلادي»، مطبوعات دار المغرب للتأليف والنشر، الرباط 1977.

بنعبد الله عبد العزيز:

- «تاريخ المغرب، العصر الحديث والفترة المعاصرة»، الجزء الثاني، مكتبة المعارف، الرباط بدون تاريخ.
- «الموسوعة المغربية، الجزء الرابع»، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المحمدية 1981.
- «الطب والأطباء بالمغرب»، المطبعة الاقتصادية 1960.

التازي عبد الهادي:

✦ «الموجز في تاريخ العلاقات الدولية للمملكة المغربية»، مطبعة المعارف الجديدة، الطبعة الأولى، الجديدة 1984.

«الأمناء بالمغرب في عهد السلطان المولى الحسن 1873-1894»، مطبعة فضالة، الرباط 1977.

الجابري محمد عابد: «تطور الانتلجنسيا المغربية، الأصالة والتحديث في المغرب»، ضمن أعمال ندوة الانتلجنسيا في المغرب العربي، المجموعة بإشراف عبد القادر جغلول، دار الحداثة، الطبعة الأولى بيروت 1984.

الجراري عبد الله:

✦ «من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين سلا والرباط»، الجزء الثاني، دون تاريخ الطبع ومكانه.

✦ «النضال في الشعر العربي بالمغرب من 1830-1912»، دار الثقافة، مطبعة النجاح، الجديدة الطبعة الثانية البيضاء 1978.

حركات إبراهيم: «التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية»، مطبعة الدار البيضاء، الطبعة1، الدار البيضاء 1985.

الرافعي عبد الرحمان: «عصر محمد علي»، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1951.

روجرز ب.ج: «تاريخ العلاقات الأنجليزية المغربية في عام 1900»، ترجمة ودراسة وتعليق، ديونان لبيب رزق، دار الثقافة الطبعة الأولى، الدار البيضاء 1981.

زنيبر محمد: «هل هناك مصادر داخلية للإصلاح»، ضمن أعمال ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن 19، الرباط 1983.

زيادة خالد: «اكتشاف التقدم الأوربي، دراسة المؤشرات العربية على العثمانيين في القرن الثامن عشر»، دار الطبيعة، بيروت يونيو 1981.

السائح الحسن: «الحضارة الإسلامية في المغرب»، دار الثقافة، الطبعة الثانية، الدار البيضاء 1986.

الشريف محمد الهادي: «مشكلة الإصلاحات بتونس وارتباطها بمسألة العلاقات التونسية العثمانية حوالي 1840.

عبد الكريم أحمد عزت:

«تاريخ التعليم في عصر محمد علي»، دار النهضة المصرية القاهرة 1938.

العماري أحمد: «نظرية التحديث والمواجهة عند علي السوي السملالي من

خلال كتابه (عناية الاستعانة في حكم التوظيف والمعونة)، ضمن أعمال ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن 19، الرباط 1983.

الفاسي علال: «الحركات الاستقلالية في المغرب العربي»، مطبعة الرسالة الطبعة الرابعة، الرباط 1980.

العروي عبد الله:

- «العرب والفكر التاريخي»، دار الحقيقة، بيروت 1973.
- «تاريخ المغرب محاولة في التركيب»، ترجمة ذوقان قرقوط المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1977.
- «مفهوم الدول»، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى الدار البيضاء 1981.
- «مفهوم الحرية»، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 1981.

عياش ألبير: «المغرب والاستعمار»، حصيلة السيطرة الفرنسية، ترجمة عبد القادر الشاوي، نور الدين سعودي، منشورات دار الخطابي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، أبريل 1985.

عياش جرمان: «دراسات في تاريخ المغرب»، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الطبعة الأولى، الدار البيضاء 1986.

كنون عبد الله: «أحاديث عن الأدب المغربي الحديث»، دار الثقافة، الطبعة الثانية، الدار البيضاء، 1981.

المنصور محمد: «الحركة الوهابية وردود الفعل المغربية عند بداية القرن التاسع عشر»، ضمن أعمال ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن 19، الرباط 1983.

معن زيادة: «معالم على طريق تحديث الفكر العربي»، سلسلة عالم المعرفة الكويت»، يوليو 1987.

المنوني محمد:

- «مظاهر يقظة المغرب الحديث»، (جزءان) مطبعة المتوسط، الطبعة الثانية، بيروت 1985.
- «المصادر العربية لتاريخ المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث»، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط 1983.
- «نماذج من تفتح مغرب القرن التاسع على معطيات نهضة أوربا والشرق الإسلامي، ضمن أعمال ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي القرن 19، الرباط 1983.

✦ ركب الحاج المغربي»، نشر معهد مولاي الحسن، تطوان 1953.

المؤدن عبد الرحمان:

✦ «الرحلة الحجية مصدر من مصادر التاريخ الاجتماعي المغربي ضمن أعمال ندوة: في النهضة والتراكم»، دار توبقال للنشر، مطبعة فضالة، الطبعة الأولى، المحمدية 1986.

✦ بعض المواقف المغربية من المستجدات التقنية الغربية في القرن التاسع عشر»، ضمن أعمال ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن 19، الرباط 1983.

## ■ المصادر والمراجع الأجنبية:

- Archives du Ministère des Affaires Etrangères Quai d'Orsay-Paris.

- Archives du Service Historique de L'Armée de Terre- Ministère de la Guerre-Vincennes-Paris.

- ARNAUD(Louis) : « Au temps des Mehallas ou le Maroc de 1980 à 1912 », Editions Atlantides Casablanca 1952.

- AUBIN (Eugène) : « Le Maroc d'aujourd'hui- Librairie Armand Gollin-Paris 1904.

- BAYSSIER(N) : « Histoire du Maroc », Librairie Hatier, Paris.

- BRIGNON et COLL : « Histoire du Maroc », Paris, Hatier, Casablanca, Lib. Nat 1967.

- CAILLE (Jaques) : « La petite Histoire de Rabat », Chérifienne d'éditions et de publicités Casablanca.

- CHAPI (Mustapha) : « Quelques Grandes Famille du Makhzen Marocain au XIXe siècle d'après IBN ZAIDANE, thèse de doctorat, 3ème cycle, Rabat 5 Avril 1973.

- CHARMES (Gabriel) : « Une Ambassade au Maroc», Edi.Calman Lvy, Paris 1887.

- COMPOU (DE Ludvic): « Un Empire qui croule, le Maroc Contemporain », Paris 1886.
- COUVION (Marthe et Edmond) : « Kitab Ayane al Maghreb Aksa, Esquise générale des Maghrebs de la Genèse à mes jours et livre des Grands du Maroc », Librairie orientaliste, Paul Guethner, Paris1939.
- DOUTTE (Edmond) : « Des Moyens pour developper l'influence Française au Maroc» -Paris 1909.
- ERCKMAN (Jules) : « Le Maroc Moderne », Challmel, paris 1885.
- EDMOND(Picard) : « El Moghreb al Aksa, Une Mission belge au Maroc », Bruxelles 1889.
- EL MALKI (H) et DOUMOU (A) : « Réflexions Méthodologiques sur la problématique des reformes au Maroc du 19ème siècle, in Actes du Colloque : Réformisme et Société Marocaine au XIX siècle, publications de la Faculté de Lettres et des sciences humains, Rabat 1983.
- FOUGAULD (Charles-Eugène de) : « Reconnaissance au Maroc 18831884 CHALLAMEL », Paris 1888.
- France : » Documents Politiques-Affaires du Maric », vol1, 1901-1905.
- FRISH (R.J) : « Le Maroc : géographie-organisation-politique », Editeur Ernest Leroux, Leroux, Paris 1895.
- GODARD (Abbé Léon) : « Description et histoire du Maroc », Paris 1860.
- GUILLEN (Pierre) : « L'Allemagne et le Maroc de 1870 à 1905, P.U.F, Paris1967.
- JULIEN (CA) : « Le Maroc face aux impérialismes, Editions J.A1978.
- KERDEC : « Un boulevard de l'Islam», Tanger 1895, Madrid.
- LAHBABI(Mohamed) : Le Gouvernement Marocain à L'Aube du XX siècle, Editions Techniques Nord-Africaines, Rabat 1958.
- LAROUI (Abdallah) : « Les Origines Sociales et Culturelles du nationalisme marocain (1830-1912), Maspero, Paris 1977.
- MARTINIERE Henri de la) : « Souvenirs du Maroc voyages et missions 1882-1918 Lib. PLON, Paris 1919.
- MARLET (A) : « Le Maroc voyage d'une Mission Française à la cour du Sultan Lib. PLON, Paris 1885.

- MIGE(J.L) : »Une Mission Française à Marrakech en 1882», Publications des annales de la Faculté des Lettres, Aix-en-probence 1960.
- Le Maroc et L'Europe P.U.F. Paris 1962, Tome III et IV.
- GUEDEFELDT (M) : « Mitteillungen aus Marokko und dem nord westtichen, Sahara gebet, in Jahresbresbricht der geog. Ges-zu Greifs Wald 1888.
- RAy (Jauny) : « Les Marocains en France», Institut des hautes études marocains collections des centres d'études juridiques1938.
- SALMI (Jeame-Marie) : « L'Attitude des Européens à L'égard de la politique de reformes au Maroc à la veille du protectorat», in Actes du colloque, Réformisme et Société Marocaine au XIX siècle, Rabat 1983.
- TAILLANDIER(S.R) : «Les Origines du Maroc Français, Récit d'une Mission », 1901-1906, paris 1930.
- TERRASSE (H) : « Histoire du Maroc des origines à l'établissement du protectorat français» -Editions Atlantides, Casablanca 1950.
- WEUSGERBER (D) : « Au seuil du Maroc Moderne », Rabat 1947.



# المجلات والدوريات:

## ■ بالعربية:

البرجاني المهدي: «نظرة على الأحوال المغربية في القرن التاسع عشر»، مجلة دعوة الحق، العدد6، السنة 12، ماي 1969.

بورك أدمون: «العلماء المغاربة في 1912-1860»، تعريب محمد بن عبود عبد العزيز سعود، مجلة البحث العدد 31، السنة أكتوبر 1980.

التازي عبد الهادي:

- «تاريخ الولايات المتحدة في المصادر المغربية»، مجلة المناهل، العدد12، السنة الخامسة، يوليوز 1978.
- الثغور المغربية المحتلة بين المواجهة المسلحة والتدخل الدبلوماسي، مجلة البحث العلمي، العدد27، يناير-يوليوز 1977.
- حرص ملوك المغرب عبر التاريخ على تحسين نوعية الأطر»، مجلة الشؤون الإدارية ع1 س 1 يناير 1983.

الجابري محمد عابد: «العرب والغرب على عتبة العصر التكنولوجي»، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 32، السنة 1984.

خلوق عبد العزيز التمسماني: «المطامع الإسبانية في طنجة 1945-1914»، مجلة دار النيابة العدد8، السنة 2 خريف 1985.

زنيبر محمد: «الفكر المغربي في الربع الأخير من القرن 19»، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، ع 8، السنة 1982.

الزهيري قاسم: «اتصال المغرب بالتعليم العصري»، مجلة دعوة الحق، العدد الثالث السنة الثانية.

سكيرج عبد الغني: «مذكرة الزبير سكيرج (1932-1850)، مجلة دار النيابة، العدد8، السنة 2، خريف 1985.

الشابي مصطفى: «النخبة المغربية في القرن التاسع عشر»، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، العدد الثامن، السنة 1982.

الصغير عبد المجيد: «ملاحظات حول مشكل الإصلاح في أول مخطوط (صوفي) لتحرير الجزائر سنة 1265/1849 مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، العدد الثامن، السنة 1982.

عياش جرمان: «حول الإصلاح بالمغرب في القرن التاسع عشر»، مجلة دار النيابة، العدد الأول، السنة الأولى يناير 1984.

الفاسي محمد: «الرحلات السفارية المغربية»، مجلة البينة، العدد6 السنة الأولى، أكتوبر 1962.

كايي جاك: «السفارات والبعثات المغربية إلى فرنسا»، مجلة تطوان، العدد6، السنة 1961.

كندور لطيفة: «التنافس الأوربي في المغرب على عهد السلطان الحسن الأول»، مجلة البحث العلمي، العدد 32، السنة نونبر 1981.

زكي مبارك: «من أدب الرحلات: تحفة الملك العزيز بمملكة باريز للكاتب الأديب الحاد إدريس العمراوي، مجلة البحث العلمي، العدد31، السنة أكتوبر 1980.

معنينو أحمد:

«مذكرة طالب مغربي أرسل في بعثة مغربية إلى إيطاليا منذ ثمانين سنة»، مجلة دعوة الحق، العدد الأول، السنة 12 نونبر 1968.

ترجمة مختصرة لتلميذ من بعثة الحسن الأول 1297 محمد بن الكعاب الشركي، مجلة البحث العلمي، العدد25، السنة يناير-يونيو 1976.

«تكوين الأطر في عهد الحسن الأول»، مجلة دعوة الحق، العدد الرابع، السنة الثانية عشرة، مارس 1969.

المريني عبد الحق: «الإصلاحات العسكرية في عهد الملك المصلح مولاي الحسن»، مجلة دعوة الحق، العدد4، السنة 12 مارس 1969.

الوكيلي محمد التهامي: «جلالة السلطان مولاي الحسن الأول»، مجلة دعوة الحق، العدد 27 السنة، مارس 1983.



■ بالفرنسية:

- Archives Marocaines-Tome 3, année 1905.

- Bulletin de L'Afrique Française, Renseignements coloniaux, n°7 Année 1901.

- GAGNE (Jacques) : « Presse et Salafisme au Maroc au début du XIXe Siècle », in Revue Dar et Niaba, 2ème Année, n°7, Eté 1985.

- GAILLIE (Jacques) :

« Les Maroccains à L'école de Génie de Montpellier 1885-1888 », Hesperis, vl. XLI année 1954.

« Quelques Renseignements sur le capitaine ERCKMAN », Hesperis, vl. XLI , 3-4ème trimestre année 1954.

La véritable histoire de l'ingénieur Abder-Rahman-Desaulty », Hesperis, vol. XXXVL, 3-4ème trimestre, Année 1949.

- COUFOURISER (L) : « Chronique de la vie de My Hassan », in Archives Marocains, Volume 8, anné 1908.

- ISKANDAR (Assabghy) : « Les Missions Scolaires au temps de Mohamed Aly », in Revue Conférences Françaises en Orient-publication Mensuelle n°11, 9ème Année, Novembre 1945, le Caire Egypte.

- JULIEN (C.A) : « Hassan 1 er et la crise marocaine au XIX siècle », in les AFRICAINS , tome III, Editions J.A.

- LEROUX (Charles) : « Mission Diplomatique française à Fès », in Hesperis, vol. 35n Année 1948.

- LECLERC (Ch René) : « L'Armée Marocaine », in bulletin de la Société de Géographie d'Alger et de L'Afrique du Nord, 4ème trimestre, Neuvième Année.

- PERETIE (A) : « Les Medersas de Fès » in Archives Marocaines, vol. XVIII, Année 1912

- « Un homme du Maroc d'hier », in la vigie Marocaine, n° du 21-30-1938.

- YVER (Georges) : « La Question Marocaine », in Revue Africaine, Année 1909.

# فهرس الموضوعات




نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة




# الدكتور جمال حيمر
# البعثات التعليمية
# في عهد السلطان مولاي الحسن

"... يمكن الجزم أنه قبل إقدام الباحث جمال حيمر على هذه المغامرة البحثية الدقيقة، لم تكن معرفة المهتمين بتاريخ المغرب في القرن 19م تتجاوز سقف الإشارات، والتلميحات الباهتة إلى هذه المبادرة الإصلاحية بكثير من العمومية والتأسف عن نكوص وكبوة هذه المبادرة على غرار كل التجارب الإصلاحية التي شهدتها معظم البلدان الإسلامية في سياق الاحتكاكات الأولى التي وقعت بينها وبين أوربا خلال القرن التاسع عشر."

"لقد أكدت نتائج الدراسة أن فشل هذه التجربة يعزى إلى أن أي محاولة تريد إدخال بعض عناصر التحديث على بنيات اقتصادية واجتماعية وذهنية تقليدية دون أن توازيها عملية تحديث شامل وكلي، ودون أن تكون منبثقة من تطور داخلي، تبقى محاولة عقيمة ومحكومة بإخفاق متواصل، وغير قادرة على إحداث تحول حقيقي. وفي تقدير الباحث أن هذا الحكم لا يزال يصدق على تجارب متعددة، ومن هنا تكمن راهنية هذا الموضوع، وحاجتنا إليه اليوم كمرجعية نبني عليها توجهاتنا."

"إن الكتاب الذي بين أيدينا يعد قيمة مضافة لتاريخ المغرب خلال القرن التاسع عشر، وللحركة الإصلاحية التي ميزت هذا القرن، وتفسيرا مقنعا للإخفاقات التي بصمت هذه المرحلة من تاريخنا الوطني. كما أنه يشكل مرجعا مهما وأساسيا لا يستغني عنه أي باحث في القرن التاسع عشر، ولكل مهتم بتاريخ إصلاح التعليم بالمغرب، وبالتالي فإن هذا الكتاب يعتبر قيمة مضافة يشرّف الخزانة التاريخية المغربية."

الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش

48 د




لوحة الغلاف من تركيب «الزمن»